الشيخ عبد الله العلايلي

المعرّي ذلك المجهول

رحلة في فكره وعالمه النّفسي

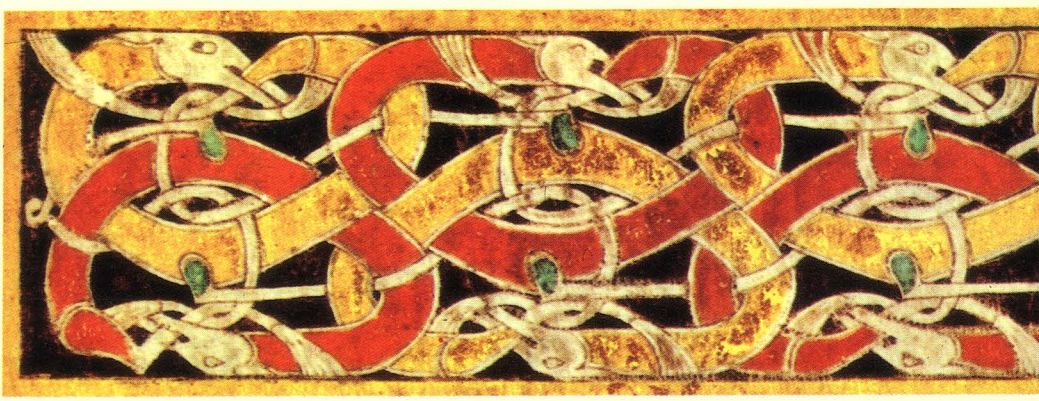

دار الجديد

الشيخ عبدالله العلايلي

المعرّي ذلك المجهول

رحلة في فكره وعالمه النّفسي

دار الجديد

© دار الجديد، الطبعة الثالثة، ١٩٩٥.

إنتاج وتنفيذ وتوزيع شركة دار الجديد ش. م. م. □ صندوق بريد: ١١/٥٢٣٢ بيروت ـ لبنان □ نضد النصوص: سناء سلامي وجميلة هزيمة □ انشاها كتاباً: علي حمدان □ ضبطها على اصولها: محمود عساف □ خط خطوط الغلاف: علي عاصي □ الفه: عمر حرقوص □ صورة الغلاف: زخرفة بحاشية مخطوط سَلتي من القرن السابع للميلاد.

على غرارِ الطَّبعة الثّانية الصادرة سنة ١٩٨١ والّتي قدَّم لها المؤلِّف بالتّالي:

«برُغْمِ ما فَصَلَ بينَ طبعتَيْ هذا الكتابِ من زَمنٍ، لم أجِدْني في حاجةٍ إلى تَغْييرِ شيءٍ ممّا تَوَصّلتُ إليهِ، وفقَ منهجٍ اتّبعتُهُ، وأنا مُقْتنعٌ، في درسِ فِكْرِ المَعرّيِّ الصّادرِ سنةَ ١٩٤٤، ولا سيّما فيما أبدَيتُهُ من آراءٍ، لم يَحُلْ بيني وبينَها ما صَدَرَ، من قبلُ ومن بعدُ، منِ ادّعاءاتِ تَرَدُّدِهِ وتَلَدُّدِهِ وحَيْرَتِهِ وما إلى ذلك. ومِن هُنا لم أرَ أنّي في حاجةٍ إلى كتابةِ مُقدّمةٍ لهذه الطَّبعةِ الثّانيةِ الجَديدةِ ولكنْ لا يَسعُني إلّا التنبيهُ على أنّي استعملتُ حَرْفَ «ل» إشارة إلى اللّزوميات، طبعة بيروت وحرف «س» إشارة إلى سقط الزند، طبعة القاهرة».

... على غِرارِها، لم يَجِدْهُ، بمناسبةِ هذه الطَّبعةِ، في حاجةٍ إلى تغييرِ شَيءٍ ممّا تَوَصَّلَ إليه.

«إنَّ التَّعَقُّبَ عَلى ٱلكُتُبِ سَهْلٌ بالنِّسْبَةِ إلى تَأْليفِها وَوَضْعِها، كما يُشاهَدُ في ٱلأبنيةِ حينَ يَعْتَرِضُ على بانيها مَنْ عَرِيَ في فَنِّهِ عنِ ٱلقُوى وَٱلقُدَرِ، بحيثُ لا يَقْدِرُ على وَضْعِ حَجَرٍ على حجرٍ».

حاجي خليفة، في كتابه **كشف الظنون**.

وهذا جوابي عمّا يُرَدُّ على كتابي.

مقدّمة

لَيْسَ هذا ٱلكتابُ تَرْجَمَةَ حياةٍ في حُدودِها من السَّعَةِ أو الضّيقِ، وفي مِقْدارِها من الضَّخامةِ أو الضُّمورِ، وإنّما هو تَرْجَمَةُ فِكْرٍ فقطْ، ولَيْسَ في كُلِّ منازِلِهِ أيضاً.

فإنَّ ٱلحياةَ ـ وهي مُتَحَيِّزَةٌ بمادّيَّتِها، بما فيها من عُنْصُرِ ٱلواقعِ ـ تَظَلُّ ٱستعادتُها، على مُخْتَلِفِ ألوانِها ومظاهِرِها، مُبهَمةً أو أشدَّ مُجانَبَةً للوُضوحِ، فكيفَ بٱلفِكْرِ غَيْرِ ٱلمُتَحَيِّزِ، غَيْرِ ٱلمَحْدودِ.

ولا سِيَّما هذا ٱلفِكْرُ ٱلّذي نُعنى بفَهْمِهِ وشَرْحِهِ، أو بٱلحَرِيِّ ٱلّذي نُمَهِّدُ السّبيلَ إلى فَهْمِهِ وشَرْحِه. فقدْ نَبَتَ في ٱلغُموضِ، وشَدَّ حَوْلَ ذاتِه هالاتٍ كثيفةً من التَّعميَةِ في قَصْدٍ، بل في لذَّةٍ أيضاً:

إذا قُلْتُ ٱلمُحالَ، رَفَعْتُ صَوْتي

وإن قُلْتُ ٱليَقينَ أطَلْتُ هَمْسي (ل٣/٥٦)

وتصَوّرْ أنّى تبلُغُ التَّعْميةُ بمَنْ كَبَتَ على نَفْسِه كُلَّ لذّاتِها لتَنْطلقَ مُتَدَفِّقةً في شكلٍ حادٍّ من السُّخْر بأشياءِ النّاسِ، وكان أقسى نِكايةً حينَما

قَصَدَ إلى التَّلهّي بأفكارِهم على ذلك النَّحوِ من ٱلإيغال.

على أنّ ٱلعُرْفَ سَبَقَ بٱلمُسْتَسِرّينَ، أنّهم ٱستعملوا «التّغبيرَ» إلغازاً وضنّاً بما ٱنطَوَوْا عليه، ودَرَجُوا فيه نَسَقاً مع أبي الطيّب:

إذا شاءَ أن يلْهو بِلِحْيَةِ أحمقٍ
أراهُ غباري، ثمَّ قالَ له: ٱلحَقِ!

إنّ ٱلمَعرّيَّ ـ برُغمِ ما يُرى في هذا ٱلإيغالِ من أنّه عُنْصُرٌ مُهِمٌّ بسبيلِ التّسامي النّظريِّ، بسبيلِ ٱلإدراكِ التّجْريديِّ ـ كان يَجِدُ فيه لُبانَةَ هوىً ولذاذةَ هوىً ووُلوعٍ:

لا تُقيِّدْ عليَّ لَفْظي فإنّي
مِثْلُ غَيْري، تَكَلُّمي بٱلمَجازِ (ل٢/٣٢٩)

فَنَحْنُ من هذا ٱلفِكْرِ أمامَ شيءٍ مُسْتَغْلَقٍ أشدَّ ٱستغلاقٍ، مُبْهَمٍ أشدَّ إبهامٍ، أمامَ شيءٍ ٱستوى في التّعقيدِ وحُبِّبَ إليه، فهو لا يُفْصِحُ عن كُنْهِه، وإذا أفصَحَ أحياناً فِلكَيْ يكونَ طريقاً إلى تعقيدٍ جديدٍ.

ولذلكَ لنْ نأخُذَه جُمْلَةً بل تفصيلاً، ولن نأخُذَه في كُلِّ أدوارِ ٱستحالتِه بلْ في دَوْرِها ٱلأخيرِ فقطْ، ٱلّذي ٱستمْكَنَ ٱلمَعرّيّ عندَه وٱستَوْفَزَ ليقولَ كلمَتَه ٱلمُطْلقةَ؛ ذلك الدّورِ ٱلّذي ظَلَّ، برُغمِ الدّراساتِ له[1]، في مَعْزِلٍ كبيرٍ عنها:

أوْفِ دُيوني، وخلِّ أقْراضي،
مِثْلُك لا يَهْتَدي لأغْراضي (ل٣/٩٨)

وإنّما جاءَتْ تلكَ الدّراساتُ ٱلمُشارُ إليها، مثْلَما نقولُ، مُتردِّدةً حائرةً

(١) راجعْ دراسات مرجليوث، طه حسين، الميمني الراجكوني، الكيلاني، إلخ.

ودونَ ما يَنْبَغي لها أن تكونَ، بل مُبتَسَرةً في كثيرٍ منها، ومُرْتَجلَةً في بعضٍ منها، لكَوْنِها لم تَجْرِ وفْقَ مَنْهَجٍ مُحَقَّقٍ فأخْطَأتْ بذلكَ أُصولَ الدَّرسِ ٱللّازمةَ، حينَ أتَتْ وليسَ لها طريقةٌ مَنْهَجِيّةٌ تَحْرِصُ على ٱتّجاهِ بعينِه، فكانَتْ مُميَّلَةً بينَ فُروضٍ شَتّى ألقَتْ بنا من ورائِها في تَخَبُّطٍ كبيرٍ، زادَنا بٱلمَعَرّيّ وَحْشَةً وٱستخْفاء...

نَعَمْ، لم تكُنْ لتلكَ الدِّراساتِ طريقةٌ مَنْطِقيّةٌ أو مَوْضُوعيّةٌ يَسْتقيمُ لها أن تُفرَغَ في صِيَغٍ مَنْهَجيَّةٍ، مِن شَأْنِها أن تُسْلِمَنا إلى نتائجِها إسلاماً عَفويّاً، في ٱتّفاقٍ أو ٱختلافٍ يسيرٍ.

والدِّراساتُ غيرُ «ٱلمُمَنْهَجَةِ»، إذا صَحَّ هذا التَّعبيرُ، يكونُ الشّخصُ الدّارسُ هو ٱلعُنْصُرَ ٱلبارزَ، فيرتئي ويُلفِّقُ الدِّراسةَ على شاكِلَةِ ما ٱرتأى، ضامّاً ألْفاقَها مِن هُنا وهُناك في عَناءٍ يُعَبِّرُ عن أنّه مَدْخولٌ مَصْنوعٌ.

على أنّ من ٱلمفروغِ منه، أنّ درسَ أيِّ إنتاجٍ، فنّيّاً كانَ أو أدبيّاً، فَلْسفيّاً أو عِلْميّاً، يَقْتَضينا الطَّريقَةَ أو ٱلمَنْهَجَ قَبْلَ كُلِّ شيءٍ، وهذا بالتّالي يَضَعُنا أمامَ نتائجَ مُعَيَّنةٍ، وإن بَدَتْ مُتَفاوِتَةً، لأنّ مرَدَّ تفاوُتِها، من بَعْدُ، قُدرَةُ ٱلباحِثِ على التّناوُلِ. أمّا إذا كانَ ٱلعَكْسُ، أيْ بَحْثٌ ولا مَنْهَجَ، فهناكَ ٱلٱرتجالُ وٱلٱبتسارُ.

وليتَ دارِسي ٱلمَعَرّيّ خَفَضوا من غُلَوائِهم فلم يَقْطَعوا فيه، ولو أنصَفوا لأخَذوا أنفُسَهُم بما أخَذَ به ٱلمَعَرّيّ نَفْسَه في قَوْلِه:

أمّا ٱليَقينُ، فَلا يَقينَ، وإنّما
أقْصى ٱجْتِهادي، أنْ أظُنَّ وأحْدِسا (ل٣٦/٣)

ولذا ٱنصَبَّ ٱهتمامي على الطَّريقةِ ٱلّتي أُقيمُ لها وزناً أكبرَ من الدَّرْسِ نَفْسِهِ، ما دامَ لا يُعَبِّرُ إلّا عن جَهْدٍ شَخْصيٍّ، وهو لا يكونُ مُشْتَرَكاً،

فكيفَ يَصِلُنا مِمَّنْ نُديرُ ٱلبَحْثَ عَلَيه، في قَطْعٍ وتَأْكيدٍ.

أمّا حينَ يَدْخُلُ الدَّرْسَ، أي ٱلجَهْدَ، عنصرُ الطَّريقةِ، فَمَعْناه أنّ ٱلجَهْدَ الشّخصيَّ ٱنطلَقَ من قاعدةٍ مَوْضوعيّةٍ، وتَخَصَّبَ بنواةِ تَخَمُّرِهِ، وقيمَتُه تكونُ بِمِقْدارِ ٱتّصالِ هذهِ الظّاهرةِ، ظاهرةِ التَّخمُّرِ، في نَواحي الدّرسِ أو عَدَمِ ٱتّصالِها.

ولذا نُلاحظُ ٱليَوْمَ، في كُلِّ دوائرِ ٱلبَحْثِ، على تنوُّعِها، ٱهتماماً أشدَّ بالطَّريقةِ، ولذا نُحِسُّ عندَ النَّقْدِ أيضاً، تَحْتَ هذه الرّغبةِ، بِمَيْلٍ مُلِحٍّ إلى تَصْنيفِ ٱلأُدباءِ مَثَلاً ضِمْنَ مدارسَ، ليكونَ نَقْدُهم أكثرَ تحديداً للطريقةِ وإلماماً بها. وبديهيٌّ أنّ الدّارسَ لن ينتهيَ إلى فهمٍ حقيقيٍّ لأيِّ أديبٍ من أيّةِ مدرسةٍ، إذا لم يكُنْ مُلِمّاً بمناهجِها ٱلّتي ٱسْتَنَّها أُسلوباً وسبيلاً إلى التَّوْليدِ وٱلإبداع.

وهذا لا يَعْني إنكارَ أنّ ٱلعَبْقَريّةَ أحياناً، وبٱلأحرى في ٱلكثيرِ ٱلغالبِ، لَيستْ تَخْضَعُ للطُّرُقِ وٱلمَناهجِ، لأنّ ٱلعَبْقَريّةَ ـ وهي إذ تَتَحَلّلُ من قُيودِ طريقةٍ ما ـ تَصْطَنِعُ لنفسِها طريقةً خاصّةً تلتزِمُها وتأخُذُ بأسبابِها.

وربّما كانَتِ الطَّريقةُ أهمَّ نواحي ٱلعَبْقَريّةِ فيما تهَدَّتْ إليه، وهذا جَلِيٌّ كالضَّحاءِ، فما من عبقريّةٍ إلّا وأبرزُ ما فيها الطَّريقةُ ٱلّتي تَخُصُّ على مَنْهَجٍ في ٱلفِكْرِ، لا يلْبَثُ حتّى يغدوَ طابَعاً ثابتاً يُمِدُّ ٱلأحياءَ وأفكارَهُم بألوانٍ جَديدةٍ، ويُغْريهِمْ بأشياءَ من ٱلخَلْقِ وٱلٱبتكار.

ولَيْسَ مَنْ يَرْتابُ في أنّ عَظَمَةَ أرسطو لَيْسَتْ في التَّفْسيرِ والتَّعْليلِ ٱلفَلْسَفيَّيْنِ، بِمِقْدارِ ما هي كامنةٌ في طريقتِهِ ٱلمَنْطِقيّةِ ٱلّتي حَدّدَتِ ٱلفِكْرَ ٱلفَلْسَفيَّ والنّظرَ ٱلمُجَرّدَ.

والصُّعوبةُ ٱلّتي نُعانيها في دَرْسِ ٱلعَبْقَريِّ تَنْصَبُّ بأكبرِ قِسْطٍ على

الطّريقةِ، وبأقلِّ نصيبٍ على نواحي آمتداداتِها ٱلأُخرى وجوانبِها ٱلمُتَفَيِّئةِ. ولا سيَّما إذا كان ٱلعَبْقَريُّ مَجْهولَ ٱلغاياتِ مُهَوِّشاً، أو عامداً بٱلقَصْدِ، إلى إخفاءِ مَعالمِ طريقهِ وسبيلِ ٱلآهتداءِ إليه، ومُبَعْثِراً للتَّعميةِ صُوَى الدُّروبِ ٱلّتي جَهِدَ بٱكتشافِها وجَهِدَ بتعبيدِها، مِثْلَ عَبْقَرِيِّنا أبي ٱلعلاء:

ولـيـسَ عـلـى ٱلـحَـقـائـقِ كُـلُّ قَـوْلـي
ولـكِـنْ فـيـه أصْـنـافُ ٱلـمَـجـازِ (ل٢/٣٢٦)

حتّى الطَّبيعةُ نفسُها، وحتّى جَهْدُنا ٱلفِكْريُّ ٱلكادحُ حيالَها، بل كُلُّ ما أعطى ٱلفِكْرُ ٱلبَشَريُّ ويُعطي من إنتاجٍ فلسفيٍّ وعلميٍّ وحَيَويٍّ وٱجتماعيٍّ وفنيٍّ، ليسَ أكثرَ من أنّه بحثٌ في الطَّريقةِ الثّابتةِ في الطَّبيعةِ وٱلحياةِ وٱلفِكْرِ، ٱلّذي أبدَعَ في نفسِهِ ٱلمَجْهولَ وٱلمُطْلقَ والتَّجريدَ...

فنحنُ، لذلكَ، لن نَفْهَمَ ٱلمَعرّيَّ ولن نَفْهَمَهُ أبداً، ما لم نَتَمَكّنْ منِ ٱستخلاصِ طريقتِهِ ونَتَمَكّنْ منِ ٱستخدامِها بسبيلِ ٱلوصولِ إليه والنُّفوذِ إلى أغوارِ فَلْسَفَتِه.

فعلينا، إذاً، أن نَجْمَعَ ٱلجَهْدَ لإبانةِ الطّريقةِ النَّظريّةِ عند ٱلمَعَرّيِّ قبلَ أيِّ ٱعتبارٍ، ثمّ نَمْضي في مُحاوَلَةِ شَرْحِهِ وعَرْضِهِ على ضَوْئِها جَهْدَ الطَّاقةِ ٱلبَشَريّةِ، ٱلمحدودةِ ٱلآختيارِ وٱلآستجاباتِ والطّواعيّات.

«ويَسُرُّني أن أُنبّهَ هنا إلى أنّه لا يَحْسُنُ بقائلٍ أن يقولَ ويقطَعَ القولَ، وبالأخصِّ في القضايا ٱلّتي تزدادُ تَعقيداً بما تزدادُ به تركيباً.

فقدْ يدخُلُ في حدِّ ٱلمُسْتَطاعِ أن يَجيءَ قائلٌ بأحْسنِ ما قيلَ، وأمّا بأحسنِ ما يُقالُ، فإنّها مَنْزِلةٌ لم يَبْلُغْها ٱلعَقْلُ ٱلبَشَريُّ، فكَيْفَ بٱلعَقْلِ الشّخصيِّ.

فأنا لذلك أعْرِضُ شُروحي عَرْضاً خالصاً دونَ ما تحكُّمٍ، لأنّي أعُدُّهُ

إغفالاً للعَقْلِ ٱلعامِّ وتغريراً بالنُّفوسِ ٱلمُتفتّحةِ ٱلمُتقبّلةِ، ودونَ ما تحدٍّ لأنّ الصّراعَ ٱلفكريَّ يَفْقِدُ رَوْعَتَه وجلالَه في عَصَبيّةِ الرّأيِ ونَزَعاتِ الشَّخْصيّة.

وٱلمُنْصِفونَ ٱلّذين يَحْتَرمونَ ٱلٱستعدادَ ٱلإنسانيَّ لا يكتبونَ لكيْ يُتابِعوا، بل ليُصحِّحوا تفكيرَهم بالنّقدِ، والتّفكيرَ ٱلعامَّ الشّائعَ أيضاً. ولا يَنْقُدونَ لعَبَثٍ أو شهوةٍ، لأنّ النّقْدَ الشّهْويَّ يُبَلْبِلُ فِكْرَ ٱلجُمهورِ، ويُلقيهِ في حَيْرَةٍ ممّا يَنْبغي أن يقتَنِعَ به ويُضيفَه إلى مَجْموعتِه ٱلعقليّة»[٢].

ونحنُ هنا لا نختَلِفُ، بل على ٱلعَكْسِ، نتّفقُ، وفي حَدٍّ كبيرٍ، معَ مَن ذَهَبَ من دارسي أبي ٱلعلاءِ يُقرِّرُ أنّنا، حيالَ آثارِه، نَحْتاجُ إلى ٱلٱتّصالِ بثقافاتٍ شتّى وبكُلِّ منابعِ ٱلفِكْرِ ٱلبَشَريِّ ٱلمُخْتَلِفَةِ. بيْدَ أنّنا لا نَنْهَجُ هذا النَّهْجَ ونُلاحِظُ هذه ٱلمُلاحظةَ في جَنْبِ ٱلمعرّيِّ وَحْدَه، بلْ في جَنْبِ كُلِّ مُفكّرٍ من طِرازِه أو غيرِ طِرازِه.

ففي نَظَرِنا أنّ كُلَّ ما سَبَقَ وأعطاهُ ٱلمُفَكِّرونَ من إنتاجٍ، يؤلّفُ «أبجديّةً للفِكْرِ» مِثْلَ ٱلألفاظِ تماماً، وٱلّذين يَلونَ فَيُرَكِّبونَها ألفاظاً فكريّةً في دَوْرٍ، وجُمَلاً فكريّةً في دَوْرٍ آخرَ، وتراكيبَ أُسلوبيّةً في دَوْرٍ فَوْقَ ذلكَ، وأيضاً يَمْضونَ فَيَقْرؤونَ بها مُنْتَجاتِ ٱلأفكارِ، ٱلمُتَّصِلَةِ التّوليدِ، الدّائمةِ ٱلٱبتكارِ.

فٱلبَحْثُ عن مقاديرِ التأثُّرِ عندَ أيّةِ شَخْصِيّةٍ من شَخْصِيّاتِ ٱلفِكْرِ، عَناءٌ يدورُ حَوْلَ نَفْسِهِ دونَ طائلٍ. فما مِنْ فِكْرٍ مُتَمَيِّزٍ[٣] إلّا وهو مُتأثّرٌ بقَصْدٍ

(٢) أُنظر كتابي **دستور العرب القومي**، ص ٤٠، ط بيروت، سنة ١٩٤١.

(٣) المُتَمَيِّز هنا بمَعْنى ٱلمُتَفَرِّد عن نظائِرِه؛ ووردَ في ٱستعمال ٱلقُدامى ٱلعباسيّين بٱلمعنى ٱلمذكور، وليسَ بمَعْنى ٱلمُتَقَطِّعِ لأنّه من ٱلميز بمَعْنى ٱلقَطْعِ وفَصْلِ شيءٍ عن شيءٍ، عَلى أنّ الصَّوابَ الصَّوابَ هو ٱلمُتَمَزّي أي ٱلمُتَّسِمُ بمَيِّزة، ولكنّه شاع.

ودون قَصْدٍ، وما من فِكْرٍ مُتَمَيِّزٍ إلّا وهو مُبْتَكِرٌ في نِسبٍ كبيرةٍ أو قليلةٍ، واسعةٍ أو ضيّقةٍ.

إنّ طائفةَ ٱلإنتاجِ أبجديّةٌ فِكْرِيّةٌ تُضيفُ إلى الشَّخصِ صِفَةَ التَّفَهُّمِ، كما تُضيفُ أبجديّةُ ٱلحروفِ إليه صِفَةَ ٱلقراءةِ. وكذلكَ تُضيفُ إليه، من ناحيةٍ أُخرى، صِفَةَ التَّفَكُّرِ وٱلإبداعِ فيه، مِثْلَما تُضيفُ أبجديّةُ ٱلحُروفِ إليه صِفَةَ ٱلكتابةِ وٱلإبداعِ فيها.

هذا شيءٌ لَيْسَ به رَيْبٌ في كثيرٍ أو قليلٍ، فمن ٱلجَهْدِ الضّائعِ أن نُوَفِّرَ ٱلقُوى على دَرْسِ مناحي التأثُّرِ وإحصائِها، ما دامتْ هي بالذّاتِ حُروفَ ٱلفِكْرِ ٱلّتي يُؤَلِّفُها كَلِماتٍ، ويُرَكِّبُها جُمَلاً وعباراتٍ ذهنيّةً[٤].

وليسَ يَهُمُّنا أن نَعْرِفَ عِنْدَ مَنْ نَدْرُسُهُ أقاليمَ ٱلأفكارِ وآباءَها، بِمِقْدارِ ما تَهُمُّنا مَعْرِفةُ كَيْفَ ٱستحالتْ هذه ٱلفِكْرَةُ وتَخَلَّقَتْ في وُجودٍ آخرَ، وكَيْفَ ٱستوَتْ وهي مِثْلُ خلايا في كائنٍ فِكْريٍّ جَديدٍ.

ومَهْما يكُنْ من شيءٍ، فأبو ٱلعلاءِ وُفِّقَ إلى ٱلاتّصالِ بأبْجَديّةِ ٱلفِكْرِ يومَذاك على وَجْهٍ يكادُ يكونُ كامِلاً، فلم تَكُنْ أبجديّتُهُ ناقِصَةً في شِبْهِ تأكيدٍ. وغيرُ بعيدٍ، في ٱلوقتِ ذاتِهِ، أن تكونَ مُشوّشةً في حدٍّ ما، ولذلكَ ٱستقامَتْ عبارَتُه ٱلفِكْرِيّةُ أحياناً، ولم تستَقِمْ أحياناً أُخرى؛ وكأنّه أدرَكَ هذا ٱلإدراكَ نَفْسَه، وأخَذَ به جوهرَ فِكْرِه، فقالَ:

وعالَمُنا ٱلمُنْتَهي كالصَّبِيِّ
قيلَ لهُ في ٱبتداءِ: تَهَجَّ (ل١/٢٩١)

(٤) هذا ٱلمفهومُ ٱلقائلُ بأنّ ٱلأفكارَ ٱلمُقْتَبَسَةَ ليستْ أكثرَ من أبجديّة، يُريكَ خَطَأَ دارسي ٱلمعرّيّ ٱلّذين أضاعوا جُهودَهُم في إيضاح أنّ ٱلفِكْرَةَ ٱلفُلانيّةَ عِنْدَهُ هِنْدِيّةٌ أو أُخرى إغريقيّة... إلخ، ما دامت كُلُّها حروفٌ أبجديّة، ٱلمُفَكِّر يُرَكِّبُها على ما يرى، فتذوبُ عِنْدَهُ في جَوْهَرِ فِكْرٍ جديد.

وبهذه ٱلمُناسبةِ يَجْدُرُ أن لا يفوتَنا التَّنبيهُ على أنَّ أكبرَ ما تأثّرَ به في أوّليّتِه وتركّزَ في خَيالِه، كانَتْ **رسائلَ إخوانِ الصّفا** وطائفةَ أفكارِهم، ولقد ظَلَّ خاضِعاً لـخُطوطِها ٱلأكثرِ عُمْقاً وشمولاً. ولولا أنّه لَيْسَ مِن مَوْضوعِ التّأْريخِ لآخرِ أدوارِ ٱستحالتِه ٱلّذي هو مَوْضوعُ هذا ٱلكتابِ، لَتَوَفَّرْنا على عَقْدِ بَحْثٍ مُقارنٍ مُسْتَفيضٍ بينَه وبينَهم، يَقْطَعُ كُلَّ رَيْبٍ في صِدْقِ هذه ٱلعَلاقةِ وأحقّيّتِها.

ولكنّنا نُشيرُ، مع هذا، إلى أنّ أيّةَ فِكْرَةٍ تُعبّرُ عن «كَمٍّ إراديٍّ»، وهي بما فيها من هذا ٱلعُنْصُرِ تَمَسُّ ٱلبَشَريَّ ٱلقارِىءَ بَنَوْعٍ من التّنْويمِ ٱلآستهوائيِّ أشبهَ بالتّنويمِ ٱلمغنطيسيِّ[٥]، ثُمّ تَذْهَبُ به مُستغرقاً في جوٍّ أحلامِها الضّاغطِ، على أنّه يَسْتَيْقِظُ أخيراً، يقظَتَه من حُلُمٍ مزعجٍ، وأبو ٱلعلاءِ كانَ حُلُمُه مُزْعجاً دونَ شكٍّ، فهبَّ مُتأفّفاً في صَخَبٍ، ومُستنكِراً في تَحْطيمِ.

ومهما يَكُنْ، فشِعاري في هذا ٱلكتابِ، مِثْلُهُ في كتابٍ سابقٍ «ليسَتْ تَمْنَعُني غرابةُ رأيٍ أظنُّ أنّه صَحيحٌ أو أعتقدُ صِحَّتَهُ من إبدائِه، كما لا يحولُ بَيْني وبَيْنَ رأيٍ أنّه قليلُ ٱلأنصارِ. فإنَّ ٱلحَقيقةَ لم تَعُدْ تُنالُ بالتّصويتِ، كما أنّ ٱلانتخابَ من عَمَلِ الطّبيعةِ وهي لا تُغالِطُ نفسَها كما لا تَعْمِدُ إلى التّزوير»[٦].

(٥) هو ما يُسَمّيه عُلَماءُ النفس: عَدوى ٱلفِكْر أو الشّعور، فكثيراً ما يقرأُ ٱلمرءُ كتاباً أو موضوعاً، فيُصيبُهُ بعدواه في حدٍّ ما، ويأخُذُهُ تحت سَيْطَرَتِهِ زمناً يطولُ أمدُهُ أو يَقْصُر.

(٦) أنظرْ كتابي **تاريخ الحسين: نقد وتحليل**، الطبعة الثانية، ١٩٩٤، دار الجديد، ص ٤٤.

مدخل إلى عصر المعرّي

لَيْسَ من شَكٍّ في أنَّ عَصْرَ ٱلمَعَرّيّ كانَ أضْخَمَ عَصْرٍ فِكْريٍّ بينَ كُلِّ عُصورِ ٱلحَضارةِ ٱلعربيّةِ، برُغمِ ما سادَهُ مِنِ ٱضطرابٍ سياسيٍّ، حتّى لقدْ بدا مُتْخَماً بما هَضَمَ، ومحموماً أيضاً بما لم يهضِمْ.

فقدْ أفسَحَ ٱلمُجْتَمَعُ ٱلعَرَبيُّ من جَوانِبِهِ، قَبْلَ قَرْنَيْنِ، لِكُلِّ فِكْرٍ وكُلِّ ثقافةٍ، وَتَحرّكَ ٱلمُجْتَمَعُ، بما فيهِ من كِفاياتٍ وٱستعداداتٍ، حَرَكَتَهُ ٱلواسعةَ ٱلخُطى، ٱلجبّارةَ التَّدفّق.

وكانَ من هذا ٱلٱلتقاءِ وٱلمُزاوَجَةِ ٱلحضاريّةِ، خِصْبٌ أيُّ خِصْبٍ، وثَراءٌ أيُّ ثراءٍ، في كُلِّ نواحي ٱلمَعْرِفةِ، كما كانَ هذا ٱلٱلتقاءُ أيضاً باعثاً لأعاصيرَ شتّى دارَتْ بٱلفكرِ وبٱلعقيدةِ في مداراتٍ مُضطربةٍ مُضطرمةٍ، فتركَتْ أُخدوداً هنا ونُتوءاً هناك، ومن بَيْنِهما عَفاءٌ أو بَعْثَرَةٌ.

وقدِ ٱتّصلَ ولَمْ يتراخَ هذا ٱلإعْصارُ الدّائرُ على نَفْسِه، وٱلعاصفُ بكُلِّ ما عَلِقَ به، بِعَصْرِ أبي ٱلعلاءِ، بل لَعَلَّهُ زادَ فيه حِدَّةً وعُنْفاً، فقدِ ٱسْتكمَلَتْ كُلُّ ٱلمدارسِ ٱلفِكْريّةِ نظريّاتِها ووسائِلَ نضالِها؛ من كلاميّةٍ وفلسفيّةٍ

وصوفيّةٍ وحديثيّةٍ وفِقْهيّةٍ، وما تَفَرَّعَ مِنْها وآنقسَم عنها. أضِفْ إلى هذا كُلِّهِ نزولَ آلباطنيّةِ إلى آلـمَيْدانِ بكاملِ قُوّتِها، مُسْتفيدةً من سوءِ آلوَضْعِ السِّياسيِّ والآجتماعيِّ آلبالغِ، ومن غَيْبيَّتها آلخالبةِ آلأخّاذة.

وهذا عُنْصُرٌ آستهوائيٌّ أخّاذٌ بعيدُ نواحي التّأثيرِ، وبآلفِعْلِ ظَهَرَ أثرُهُ سَريعاً، حتّى لقد طَبَعَ آلإنتاجَ ولُغَتَه، يومَذاك، بطابَعٍ ثابتٍ، وأرْبى نَزْعَةَ آلـمَجْهولِ وآلـخفاءِ إلى حدٍّ آلآستهتارِ. وأجِدُني مُطْمَئِنّاً، وأنا أُقرِّرُ في تأكيدٍ، أنَّ نَزْعَةَ آلـمَجازِ والتَّكَلُّفِ له وآلكَلَفِ به، كانَتْ مُتأثّرةً إلى أبعدِ حَدٍّ بما بثَّتِ آلباطنيّةُ من هذا آلعُنْصُرِ آلآستهوائيِّ وما نشَرَتْ من لَوْنٍ مُشْبَعٍ مديدٍ.

ولَيْسَ لنا آلآنَ أنْ نأخُذَ في تَفْصيلٍ يتناولُ آلـحَرَكَةَ آلفِكْريّةَ، إبّانَ عَصْرِ آلـمَعَرّيّ، ونحنُ نـخُصُّ هذا آلكتابَ بدَرْسِه كائناً فَلْسَفيّاً مُتَوَحِّداً، بَلْ نَكْتفي بإشاراتٍ وصْفيّةٍ عارِضَةٍ.

في ذلك آلإعصارِ آلـمُتناهي بالضَّجيجِ والذُّعرِ، كانَ فَتاءُ آلـمَعَرّيّ وتَـحَرُّكُ ذِهْنِهِ للمَعْرِفةِ، وتَنادي قُواهُ آلـمَعْنويّةِ للإدراكِ. فلا جَرَمَ آتّصلَ بآلفِكْرِ من أقطارِه وفَعَلتْ فيه طائفةُ تلكَ آلأفكارِ فِعْلَها، ومادَتْ بها نفسُه مَيَداناً شَديداً، هَزَّ مشاعِرَهُ وهيّأَ له أخيراً آلوَثْبَةَ آلـخاطفةَ إلى آلأُفُق.

وآلـمَعَرّيُّ لـم يَكْتُمْنا هذه النّاحيةَ من نَفْسِه، فقد تَـحَدَّثَ إلينا بها على نحوٍ واضحٍ صريحٍ في رِسالتِه إلى أهل آلـمَعَرّة.

إنّه يُثْقِلُه ما قدْ أثقلَ عَقْلَ آلـمُجْتَمَعِ حينذاكَ، ويُشْقيه أيضاً ويَعيا بحَمْلِه في عناءٍ شديدٍ، ولقد أحسَّ بما يزيدُ ثِقْلُه أكثرَ وأكثرَ، قربَ النّاسِ آلـمُتَصايحينَ بحَميّاتِ آلفِكْرِ، وآلهاذينَ بخَيالاتِ هُلاسِها. فآشتدَّ به آستنكارُه لهمْ وشَعَرَ بما يُقْصيهِ عَنْهُم في عُنْفٍ وقَسْرٍ، إنّهم تائهونَ

مُسْتَسْلمونَ يَزيدونَ في مَعْنى حَيْرَتِهِ وفي ألوانِها، وآسمَعْه كيفَ يقولُ:

بُعدي من النّاسِ بُرءٌ من سَقامِهِمُ،

وقربُهُمْ للحِجى والدّينِ، أدواءُ

كآلبيتِ أُفْرِدِ[1] لا إيطاءَ يُدركُه

ولا سِنادٌ، ولا في اللَّفظِ إقواءُ (ل١/٥٦)

إنّه، حينَ يَخْلُطُهم بنفسِه، يُضيفُ إليها أدواءَهم على حِدَّتِها وشُبوبِها، ولذا بَدَأَ يَمْقُتُهم، وهو يَمْقُتُ، بمَقْتِهم، الجَهْلَ الشّامخَ والإيمانَ المُكابرَ والعَقْلَ المريضَ. نَعَمْ، هو شَقيٌّ من نوعِ شَقاوتِهم، ولكنْ بِحَسْبِه أنّه يُكافحُ في الإعصارِ دونَ هَوادةٍ، مُطمئنّاً إلى أنّ البارقةَ الهاديةَ لا تَلْبَثُ أنْ تَنْقَدِحَ، ولم يَطُلِ الصِّراعُ به كَثيراً حتّى انكشفَتْ عَقابيلُه عن خُيوطِ النّورِ تعترِضُ الأُفُقَ الجديدَ، الّذي استوى المَعَرّيّ عليه في كَوْنِ الفِكْرِ...

إنطَلَقَ يَخُفُّ بما تَنَوَّرَ في نَفْسِه يُحاذرُ سُخْبَ النّاسِ وغُيومَهُمُ الحالكةَ أنْ تَمُرَّ عليه، فانْزوى مُجافياً ونأى مُباعِداً، عن سَنَنِ حياتِهم وأفكارِهم، وتَوَحَّدَ نتيجةَ فِكْرَةٍ مُطْلقةٍ بهذهِ الرّغبةِ الّتي غدَتْ جُزءاً من مَنْهَجِ السُّلوكِ التّأمّليِّ عِنْدَه، على ما انتهَتْ به فَلْسَفَتُه:

وماذا يَبْتَغي الجُلَساءُ عِنْدي،

أرادوا مَنْطِقي، وأردْتُ صَمْتي

ويُوجَدُ بيننا أمدٌ قَصِيٌّ

فأمّوا سَمْتَهم وأمَمْتُ سَمْتي (ل١/٢٤٠)

(١) يَعْني أنّ شأنَه شأنُ البيتِ المفردِ خَلا من عُيوبِ القوافي، فلا إيطاءٌ، أي تكرّرُ القافيةِ لفظاً ومعنىً، ولا إقواءٌ، أي تَخالفٌ بينَ حركتَيِ الرَّويّ كَسراً وضَمّاً، ولا سنادٌ، أي خُروجٌ عَمّا تَنبغي مُراعاته قبلَ الرَّويِّ من الحُروفِ والحَركاتِ.

وَدَعْ عَنْكَ ما يُزْعَمُ ويُقالُ ويُلْتَمسُ عَناءً، تارةً من إساءةِ النّاسِ إليه، وتارةً من غَريزتِه ٱلوَحْشيّةِ، وآونةً وآونةً من إخفاقِه عن ٱلمجدِ ومن مُصابِه بأُمِّه.

لم يَكُنْ، في كُلِّ هذه ٱلأسبابِ، ٱلباعثُ ٱلحقيقيُّ وإنّما هو في تلكَ الرَّغبةِ وحدَها، وإن كانَ لا يُنْكرُ أنّ تلكَ ٱلأسبابَ مُجْتَمِعَةً زادَتْ في إغرائِه وأعانَتْ على تسويدِ ما بينَه وبينَ النّاس.

هذا شيءٌ تَتَحَدّثُ به رسالتُه إلى أهلِ ٱلمَعَرّةِ في صراحةٍ كما نَدْعوها، نحنُ ٱلّذينَ لا نعهَدُ عندَ ٱلمَعَرّيّ طُرَفاً منها كما لم يُعَوِّدْناها. وإذا لم يَكُنْ يُصَرِّحُ بهذا ٱلّذي نَقولُ، فماذا يَعْني فيها؟ ومِنَ ٱلخَيْرِ أن نوردَها كاملةً، قَصْداً للبحثِ ووفاءً به:

«هذا كتابٌ إلى السَّكَنِ ٱلمُقيمِ بٱلمَعَرّةِ شملَهُمُ اللّهُ بالسّعادةِ، من أحمدَ بنِ عبدِٱللّهِ بنِ سُليمانَ. خَصَّ به مَنْ عَرَفَهُ وداناه، سلّمَ ٱللّهُ ٱلجماعةَ ولا أسلَمَها، ولَمَّ شعَثَها ولا ٱلمَها.

أمّا ٱلآنَ، فهذه مُناجاتي إيّاهم ـ مُنصَرَفي عن ٱلعِراقِ، مُجْتَمَعِ أهلِ ٱلجَدَلِ ومواطنِ بقيّةِ السّلفِ ـ بعدَ أنْ قَضَيْتُ ٱلحَداثةَ فٱنقضَتْ، وودَّعْتُ الشّبيبةَ فمضَتْ، وحَلَبْتُ الدَّهرَ أشْطُرَه، وجرّبْتُ خَيْرَه وشَرَّه. فوجدْتُ أوْفَقَ ما أصنَعُه في أيّامِ ٱلحياةِ، عُزْلَةً تجعَلُني من النّاسِ كبارحِ ٱلأَرْوى من سانِحِ النَّعامِ، وما أَلَوْتُ نَصيحةً لنفسي ولا قصَرْتُ في ٱجتذابِ ٱلمَنْفَعَةِ إلى حَيِّزي،

فأجْمَعْتُ على ذلكَ وٱستَخَرْتُ ٱللّهَ فيه، بعدَ جلائِهِ على نَفَرٍ يُوثَقُ بخَصائِلهم، فكلُّهم رآهُ حَزْماً، وعَدَّهُ إذا تَمَّ رَشَداً.

وهو أمرٌ ليسَ بنتيجِ السّاعةِ، ولا رَبيبِ الشَّهْرِ والسَّنَةِ، ولكنّه غَذِيُّ ٱلحِقَبِ ٱلمُتقادمةِ، وسليلُ ٱلفِكْرِ الطّويلِ.

وبادرتُ إعلامَهم ذلكَ، مَخافةَ أن يتفضّلَ مِنْهم مُتَفَضِّلٌ بالنُّهوضِ إلى ٱلمَنْزلِ، ٱلجاريةِ عادتي بسُكْناه ليَلْقاني فيها، فيتَعذّرَ ذلكَ عليه، فأكون قد جَمَعْتُ بينَ سَمِجَيْنِ: سوءِ ٱلأدبِ، وسوءِ ٱلقطيعةِ. ورُبَّ مَلومٍ لا ذنبَ له. وٱلمَثلُ السّائرُ: خَلِّ ٱمرأً وما ٱختار.

وما سَمَحَتِ ٱلقَرونُ، (النَّفْسُ)، بٱلإيابِ حتّى وعدْتُها أشياءَ ثلاثةً: نبذةً كنبذةِ فتيقِ النّجومِ، وٱنقضاباً من ٱلعالمِ كٱنقضابِ ٱلقائيةِ من ٱلقُوبِ، وثباتاً في ٱلبلدِ إنْ حالَ أهلُه من خوفِ الرّومِ.

وأحلِفُ ما سافرْتُ أتكثَّرُ من النَّشَبِ ولا أستكثِرُ بلقاءِ الرّجالِ، ولكنْ آثرْتُ ٱلإقامةَ بدارِ ٱلعلمِ، فشاهَدْتُ أنْفَسَ مكانٍ لم يُسْعِفِ الزَّمنُ بإقامتي فيه.

ويُحسِنُ ٱللّهُ جزاءَ ٱلبغداديّينَ، فَلَقَدْ وَصَفوني بما لا أستحِقُّ، وشَهِدوا لي بٱلفضيلةِ على غَيْرِ عِلْمٍ، وعَرَضوا عليّ أموالَهم عَرْضَ ٱلجِدِّ. فصادفوني غيرَ جَذلٍ

بالصّفاتِ، ولا هَنٍ إلى مَعْروفِ ٱلأقوامِ، ورَحَلْتُ وهُمْ لرحيلي كارهون»[٢].

إذا لم يكُنْ في هذهِ ٱلفِقراتِ تَصْريحٌ بما نقولُ، فما هو هذا ٱلأمرُ غَذِيُّ ٱلحِقَبِ ٱلمُتقادمةِ وسليلُ ٱلفِكْرِ الطّويلِ؟ وما هو ٱلّذي ليسَ بنتيجِ السّاعةِ؟ ولماذا وَعَدَ نفسَه بهذا ٱلآنتباذِ وأخذَ هذا ٱلأخذَ؟ ولماذا عَبَّرَ بـ «وعد» إذا لم يَكُنْ شيئاً رَغيباً إليها، وكَيْفَ ضلّتْ عنه كلمةُ «أوعد» وهو يُرْهِقُها بٱلآعتزال؟

إنّ «وعد» كلمةٌ يذهَبُ مَعناها في ٱتّجاهِ ٱلمَرْغوبِ به، ولونُ دلالِتها ٱللّذّةُ، و«أوعد» تذهَبُ في عكسِ ٱلآتّجاهِ وعكسِ ٱللّونِ. فٱلمعرّيُّ يُشعِرُنا، بآختيارِها للتّعبيرِ، أنّ عقيدَتَه ٱلجديدةَ ومقتضياتِها ٱستحالَتْ أُمنيّةً حادّةً وظمأً شهويّاً أو شهوةً ظامئةً.

وأنا أُلحُّ بهذا ٱلفهمِ لرسالتِه، وإثباتِ هذه الرّغبةِ ٱلفلسفيّةِ عندَه، بَيْنَ يديْ دَرْسِنا لمُشَخَّصاتِه ٱلفكريّةِ في دَوْرِ عُزْلتِه ٱلقاسيةِ، قَصْدَ ٱلآطمئنانِ إلى أنّه تَهدّى لفكرةٍ شاملةٍ مُطْلَقَةٍ، باعَدَتْ بينَه وبينَ ٱلأحياءِ في ٱستحواذٍ كبيرٍ، وفي هِنافٍ حادٍّ (ضحكٍ هازىءٍ).

على أنَّ تَحَقُّقَنا من مكانِ هذه ٱلفكرةِ ٱلكُلّيّةِ لدَيهِ، يدفَعُنا إلى دَرْسِهِ في حدٍّ أكثرَ ممّا تعوّدْنا أخذَ أنْفُسِنا به، وفي جَهْدٍ أكبرَ ممّا أصبْناه، لا سيّما إذا رأيناهُ يقطعُ بأنّ السّادِلَ بين ٱلعالِمِ وٱلجاهلِ شفيفٌ:

وما ٱلعلماءُ وٱلجُهّالُ إلّا
قَريبٌ، حينَ تَنْظُرُ مِنْ قَريبِ (ل١/١٩١)

(٢) رسائل أبي ٱلعلاء، ص ٣٤ ـ ٣٦، ط القاهرة.

هذا ٱلمعرّيُّ المُتَوَحِّدُ شيءٌ جديدٌ من كُلِّ جوانبِه وأقطارِه، وَلَنْ نفهَمَه ونَحْنُ نَدْرُسُه في ٱتّجاهِ ما تناهَتْ إليه ٱلفلسفاتُ يومَذاكَ أو على ضَوْئِها، إنّها قد تُعينُنا وتُنيرُ لنا الطّريقَ ولكنّها لن تصِلَنا به.

إنّ ٱلمعرّيَّ ٱلّذي يُبالِغُ في التّساؤلِ ٱلفلسفيِّ ـ وهو لا يستخدِمُ أساليبَه ٱلمُصْطَلَحيّةَ بينَما يستخدمُ أسلوباً بِدْعاً ـ يُلِحُّ بشيءٍ جديدٍ، ويُشيرُ إلى آفاقٍ جديدةٍ للفكرِ. وهو من وجهٍ آخرَ يُشيرُ إلى ضآلةِ ٱلقيمةِ لذلكَ ٱلأسلوبِ، وبٱلحَرِيِّ يُشيرُ إلى ٱلعُقْمِ ٱلخالصِ فيه، بلْ والتّضليلِ ٱلمَنْطِقيِّ ٱلمُنَظَّمِ ٱلمُغالطاتِ:

وٱلأَرْيُ، بــاطِــنُــهُ، مَــتــى ذُقْــتَــه، شَــرْيٌ، فـمـاذا، لا أبـا لـك، تَـلْـسَـبُ (ل١/١١٥)

وسَنرى بعدُ، كيفَ تَحْفِلُ آثارُه، وأخَصُّها **اللّزوميّاتُ**، بٱلهجومِ على قضايا ٱلعقلِ ٱلمشوبِ ٱلمَدْخولِ بلا هوادةٍ أو لينٍ، بل بعُنْجُهيّةٍ مُشتعليةٍ، ويتجاوزُها إلى ٱلفكرِ الدّائرِ في إطارِها، وكيفَ تَحْفِلُ أيضاً بـ «تقييم» ٱلعَقْلِ ٱلخالصِ إلى حدِّ ٱلقداسةِ ٱلمُطْلَقَةِ وٱلإشادةِ به إلى دَرَجَةِ ٱلإمامةِ ٱلمُطْلَقَة.

فهذا ٱلمعرّيُّ الشّاكُّ بقيمةِ ٱلفِكْرِ ٱلاَصطلاحيِّ في كُلِّ أشيائِه، ليسَ لنا أن نَشْرَحَه به. إنّه، كما قُلْنا، شيءٌ جديدٌ يؤمِنُ بجوهرِ ٱلعَقْلِ دونَ مادّةِ التَّعَقُّلِ ٱلكثيفةِ بٱلأوهامِ وٱلمُتَناقضاتِ.

ونَحْنُ نلحَظُ، بل لَنُحِسُّ إحساساً حيّاً بأنّه لا يُؤْمِنُ أبداً بوحيِ ٱلعَقْلِ المُثْقَلِ بٱلمَخْرَقاتِ، هذا ٱلعَقْلِ ٱلمريضِ ٱلمَكْدودِ بما حُمِّلَ ويُحَمَّلُ من تقاليدَ فكريّةٍ. إنّه يكفُرُ بِوَحْيِ هذا ٱلعَقْلِ ٱلّذي هو ذَوْبُ حُمّى، وعُصارةُ تمويهٍ خادعٍ، ورَشْحُ أباطيلَ ٱنتظَمَها السّرابُ:

ورُبَّ مُسمّىً عَنْبَراً، وَهْوَ مُوهِتٌ،
ولَيْثاً وفيهِ أنْ يَهِيجَ، نُباحُ (ل٢٩٥/١)

ولكنّه معَ ذلكَ يُؤْمِنُ، وإيماناً شديداً، بوحيِ ٱلعَقْلِ ٱلفِطْريِّ ٱلخالصِ، أو ٱلعَقْلِ ٱلّذي ٱستحيا ٱلفِطْرَةَ النَّقيّةَ فيه، ماحياً ما تكاثَفَه من غُيومِ ٱلأوهامِ ومُؤْذِناً بٱلٱنطلاق...

ومَعَ أنّي أنعتُه بٱلباطنيّةِ فلا أعني أنّها من نَوْعِ ما عُرِفَ من فِرَقِها، بلْ كانَتْ له باطنيّةٌ خاصّةٌ ٱستقلَّ بها، وإنِ ٱستعانَ ببعضِ مناهجِها في التّفكيرِ، ونَجِدُ هذا واضحاً في مُهاجمتِه للباطنيّاتِ ٱلمَأْلوفةِ إذْ ذاكَ، في **رسالةِ الغفران** وفي **اللّزوميّات**:

فَما أفادوا، سِوى إحلالِ نِسْوَتِهِمْ
مُعَرَّضاتٍ لأهلِ ٱلباطنِ الفُجُرِ (ل٢٦/٢)

يؤمِنُ، كما قدَّمْنا، بٱلعقْلِ ٱلخالصِ، وبكُلِّ أشيائِه حتّى ٱلأسطوريِّ منها ٱلّذي يَفْهَمُه كنائيّاً على طريقتِه، ولذا هو يؤمِنُ بٱللّغةِ وروحِها وما تُشيرُ وترمُزُ إليه، وسيَمُرُّ بنا بعدُ أنّ ٱللُّغةَ وما إليها كانَتْ لهُ مثلَ مصباحِ ديوجين إلى ٱلمَجْهولِ ٱلكَوْنيِّ وٱلغَيْبيّ.

وأنا سَأمْضي مَعَهُ في أشعَّةِ ذلكَ ٱلمِصْباحِ ٱلّذي كانَ في يَدِهِ طَريقاً إلى ٱلمَجْهولِ، وٱلّذي هو في أيْدينا طَريقٌ إليه.

المعرّي يضع أصول فلسفةٍ جديدة

طَريفٌ أن نعرِفَ أنّ أبا ٱلعَلاءِ طالِعٌ بفلسفةٍ جديدةٍ، وٱستوَتْ في نَفْسِهِ عناصِرُ فِكْرٍ جديدٍ أطافَ بٱلوجودِ وما وراءَ، وغَلْغَلَ يَسْتَكْشفُ أسرارَ ٱلحياةِ، وكان سبيلُهُ إلى هذا ٱلفِكْرِ أشدَّ طرافةً.

والدّارسونَ عَرَفوهُ شاعراً أو فيلسوفاً أو شيئاً غيرَ واضحٍ بينَهما، وعَرَّفوه للنّاسِ كذلكَ في شكْلٍ من هذه ٱلأشكالِ.

وٱلذينَ زَعَموا فَلْسَفَتَه وَقَفوا عندَ حدٍّ أنّه حكى أفكاراً من فَلْسَفاتٍ شَتّى، ثمّ جَهَدَ في أن يُلائمَ بينَها، وقد أخفقَ في رأيِ فريقٍ إخفاقاً عَبّرَ عن عَدَمِ تمثيلٍ وهَضْمٍ، ووُفِّقَ في رأيِ فريقٍ تَوْفيقاً مُعْجِباً، ومن وراءِ هؤلاءِ وهؤلاءِ طائفةٌ تُنكِرُ عليه ٱلفكرَ، وإن أضافَتْ إليه طائفةٌ من ٱلخَطَراتِ الشّاردةِ ٱلمُتماورةِ.

وأيّةٌ من هذهِ الدّراساتِ جاءَتْ مُعَبِّرةً عن جَهْدٍ وعن تَفَهُّمٍ أحياناً، ولكنَّ سبيلَ نَقْصِها إنّما تأتّى من أنّها عالَجتْ فكرَ ٱلمعرّيّ في آثارِه، ولم تَقِفْ أبداً عندَ ظروفِ هذا ٱلفِكْرِ تَسْتَوْحيها وتتّخِذُ منها أقباساً إليه، فأتَتْ

حائِرَةَ النّتائجِ وغيرَ صادقةٍ أيضاً.

أمّا نحنُ فَلَسْنا نَجِدُ بُدّاً من دَرْسِهِ وٱلوصولِ إليه أو، بتعبيرٍ آخَرَ، ٱلوصولِ إلى ما ٱنبنى عليه فِكْرُه وداخَلَ هذا ٱلفِكْرَ، على ضوءِ ٱلمُلابساتِ ٱلّتي صاحبَتِ ٱلفِكْرَ ٱلعامَّ أيّامَ ٱلمعرّيِّ، وٱلّتي عاشَها وحيَّها في شكلٍ مُباشر.

وٱلمُلابساتُ ٱلفِكْريّةُ ٱلّتي نَعْنيها ونُحاولُ الدّلالةَ عليها هي:

أ ـ رسائلُ إخوانِ الصّفا.

ب ـ رمزيّةُ ٱلباطنيّةِ ٱلحرفيّةِ.

ج ـ تأوُّجُ ٱلبَحْثِ ٱللُّغويِّ، أي بُلوغُه ٱلأوجَ.

ولكيْ نَتَحَقّقَ من الصّرحِ ٱلفلسفيِّ ٱلمَشيدِ ٱلّذي سوّاه ٱلمعرّيُّ بكِلْتا يَدَيْهِ، وأقامَهُ إقامةَ ٱلمُدِلِّ ٱلمُبْتَكِرِ، يَنْبغي لنا أن نتناولَ، ولو لَمْحاً، هذه ٱلمُلابساتِ، ونُوضِحَ كُنْهَها وأثرَها، وكيف ٱستحالَتْ وتخلَّقَتْ في ذِهْنِ ٱلمعرّيِّ، السَّرِيِّ بٱلإلهامِ وٱلخِصبِ، والسَّرِيِّ، من وجهٍ آخرَ، بالتّعقيدِ أو ٱلعُمقِ.

رسائل إخوان الصفا: في معرفةِ مُؤَرِّخي ٱلفِكْرِ ٱلعربيِّ شيءٌ كثيرٌ عن هذه الرّسائلِ، وعمّا تَرَكَتْ من آثارٍ في مُتَنوِّعِ ٱلحُقولِ، ولكنّ شيئاً مُهمّاً فاتَهمُ التّنبُّهُ إليه والتّنبيهُ عليه، وهو أنّها لم تَقِفْ عندَ حدِّ التأثيرِ فَقَطْ، بَلِ ٱسْتبدَّتْ بٱلفِكْرِ ٱلعربيِّ، وطَبَعَتْه طوالَ قرنينِ ونيِّفٍ، حتّى لَيَسْتقيمُ لنا أنْ نَدْعُوَ ٱلحِقْبَةَ ٱلقائمةَ من أواخرِ ٱلقرنِ الرّابعِ حتّى أواسطِ ٱلقَرْنِ السّادسِ، بعَصْرِ إخوانِ الصّفا ٱلفكريِّ. ولو شِئْنا تَتَبُّعَ آثارِ هذا ٱلفِكْرِ في مُخْتَلِفِ نواحي ٱلإنتاجِ والنّظَرِ ٱلفلسفيِّ التّجريديِّ، بل وٱلحياةِ أيضاً، لألفَيْناها كثيرةً جليّةً إلى أبعدِ حدٍّ.

بَيْدَ أنّ شَيئاً من هذا لا يَعْنينا ٱلآنَ بقَدْرِ ما يَعْنينا معرفةُ أنّ هذا ٱلعَصْرَ ٱلفكريَّ ٱشتمَلَ حياةَ ٱلمعرّيّ من أقطارِها، وٱستبدَّتْ به آثارُه، إلى أنْ تَهَيَّأَ له ٱلعُروجُ إلى أُفُقِهِ ٱلجديدِ، وإشراقُه بحرارةِ جديدةِ ٱلحياةِ، جديدةِ *ٱلألوانِ*.

فمِمّا لا ريبَ فيه أنّ الرّسائلَ كانَتْ مَوْجودةً مُتداولَةً سنة ٣٧٣هـ، على ما يتّضِحُ من كلامِ أبي حَيّانَ التّوحيديّ؛ وٱلمعرّيُّ وُلِد سنة ٣٦٣هـ، وقد ٱمتدَّتِ الرّسائلُ إلى كُلِّ مكانٍ وٱتّصلَتْ بأثرِها إلى أزمانٍ طويلةٍ، بَلْهَ ٱهتمامَ ٱلوَسَطِ بها ٱهتماماً شَديداً لم يُقْتصَرْ على طَبَقةٍ دونَ أُخرى أو فئةٍ دونَ ما عَداها. حتّى لكأنَّها ٱلمُفاجأةُ ٱلحقيقيّةُ تبُثُّ الدّهَشَ ٱلّذي يَذْهَبُ بالنّفوسِ شيئاً بعدَ شيءٍ، إلى ٱلٱستنامةِ لجديدِها في قَصْدٍ ودونَ قصدٍ.

ويَقَظَةُ قُوى ٱلمعرّيِّ كانَتْ في جَوٍّ عابقٍ بسِحْرِها، فَمَضى مُسْتنيماً يُفكِّرُ على نَهْجِها ويَأْتَمُّ رُسومَها.

وفي ثَنايا كِتابِه **سَقْط الزَّند** لا يَكْتُمُنا هذا كُلَّه، فنراه في بَغْدادَ يَخْتَلِفُ كُلَّ يومِ جُمُعةٍ إلى ٱلمَجْمَعِ ٱلفَلْسَفيِّ ٱلخاصِّ في دارِ عبدِ السّلامِ ٱلبَصْريِّ، وأسْمى جَماعةَ هذا ٱلمَجْلسِ «إخوانَ الصّفا» لُشيوعِ هذا ٱلٱسمِ في ذلك ٱلعصرِ، ولِما له من دَلالةٍ على جَماعةٍ فَلْسَفيّةٍ حُرّةِ التّفكيرِ، مُشْتَرَكةِ النّزعاتِ وٱلمُيولِ وٱلآراءِ، وٱسمعْهُ يقولُ:

كَمْ بلدةٍ فارَقْتُها ومَعاشرٍ
يَذْرونَ من أسَفٍ عليَّ دُموعا
وإذا أضاعتْني ٱلخُطوبُ فلنْ أُرى
لودادِ إخوانِ الصّفاءِ مُضيعا

رمزيّة ٱلباطنيّة ٱلحرفيّة: كانَتِ ٱلباطنيّةُ شيئاً راسخاً أزمانَ ٱلمعرّيِّ، فَقَدْ نَجَحَتْ دِعاوتُها، ونجَحَ وُجودُها، وقامَتْ بمُحاولاتٍ من ٱلكُبرَياتِ هُنا وهُناك.

وكانَتْ هذه ٱلباطنيّةُ تَسْلُكُ مَسْلَكَ ٱستنطاقِ ٱلحُروفِ، وتعتَبِرُ ٱلحَرْفَ كائناً حيّاً له جَسَدٌ ودمٌ وعقلٌ. وبسبيلِ ذلكَ ٱستخدَمَتْ حِسابَ ٱلجُمَّلِ لٱستنطاقِ ٱلحُروفِ عن مُوحياتِ ٱلأوضاعِ ٱلفلكيّةِ، وما تَدْعوه بالتّنكيسِ، وهو شبيهٌ بٱلجِناسِ التّصحيفيِّ، لٱستنطاقِ ٱلكلمةِ وٱلجُمْلةِ. وقدْ تبلْوَرَتْ رمزِيَّتُها هذه في فُنونٍ شتّى من الشّعْوَذةِ أو الشّعْبَذَةِ، ونحنُ نَجِدُ عناصرَ هذه الرّمزيّةِ في الرّسائلِ جليّةً واضحةً، كما فَشَتْ في **ٱللّزوميّاتِ** على نَحْوٍ يفوتُ ٱلإحصاءَ، وإليك نموذجاً:

غَـــرَّ صـــاحـــبـــةَ ٱلـــجَـــمـــالِ

مُـــنـــجِّـــمٌ بـــحِـــســـابِ جُـــمَّـــلْ (ل٤/١٢١)

تأوّج ٱلبحث ٱللُّغويّ: لم يَبْلُغِ ٱلبَحْثُ ٱللُّغويُّ في عَصْرٍ مَبْلَغَه عَصْرَ ٱلمعرّيِّ، فقدْ نُفِضَتِ ٱليَدُ منه على كُلِّ أشكالِه، وتألّفَتْ له فلسَفَةٌ خاصّةٌ كانَتْ غنيّةً خَصْبةً، حتّى لقد تَحَيَّزَ ٱلبَحْثُ ٱللُّغويُّ على أنّه غايةٌ في ذاتِه، وزادَ في تَحَيُّزِه ٱعتبارُ ٱلعَصْرِ ٱلّذي أسقطَ ٱلقيَمَ ٱلأدبيّةَ بكُلِّ أنواعِها إلى ٱلألفاظِ.

فكانَ من تزاوُجِ هذه ٱلمُلابساتِ للفكرِ ٱلعامِّ وتفاعُلِها في نَفْسِه وٱستحالتِها في كيانِه ٱلمعنويِّ، ما أعَدَّهُ لٱنبثاقٍ فَلْسَفيٍّ مُدْهشٍ لم يَسْتَخْدِمْ للتعبيرِ عنه قَوالبَ ٱلفَلْسَفَةِ ٱلّتي باتَ يراها باليَةً، ويراها أيضاً ٱفتعالاً من ٱفتعالاتِ ٱلفسادِ، بل تَصَوُّراً من تَصَوُّراتِ ٱلباطلِ ٱلمُغري بأنّه ٱلحقيقةُ:

إذا تَـفَـكَّـرْتَ فِـكْـراً لا يُـمـازِجُـهُ

فسادُ عَقْلٍ صَحيحٍ، هانَ ما صَعُبا (ل١/١٢٨)

فما أحْراه، وقد هُدِيَ إلى فِكْرٍ جديدٍ، أنْ لا يَصْطنِعَ في التّعبيرِ عنه أيّةَ ٱلقوالبِ ٱلّتي ٱنتفخَتْ وتَمَلّأتْ من وَحْيِ ٱلأباطيلِ، وإنّما ٱستحدثَ فلسفةً ومَنْطِقاً فَلْسفيّاً وألفاظاً في هذا ٱلمَنْطقِ ولتلكَ ٱلفلسفةِ:

إنْ عَـذُبَ ٱلـمَـيْنُ بـأفـواهِـكُـمْ

فـإنَّ صِـدْقـي بِـغَـمّـي أعـذبُ

طَـلَـبْـتُ لـلـعـالَمِ تَـهْـذيـبَـهـم،

والـنّـاسُ مـا صُـفّـوا ولا هُـذِّبـوا

وأكْـثَـروا الـدَّعـوى بـلا حُـجَّـةٍ،

كـلٌّ إلـى حَـيِّـزِه، يَـجْـذِبُ (ل١/١١٦)

وقبلَ أن نُشيرَ إلى شيءٍ من بنائِه ٱلكبيرِ الشّامخِ، يجدُرُ بنا أن ندورَ قليلاً مع أدوارِ ٱستحالتِه لنرى كيفَ ٱبتدأَتْ وتكامَلَتْ ثُمَّ تفرّعَتْ.

نشهَدُ ٱلمعرّيّ في بدايتِه يَحْيا في عالَمٍ لُغويٍّ من كُلِّ أرجائِه، مِثْلَ الرّياضيِّ ٱلّذي يَسْبَحُ في عالَمٍ لا نهائيٍّ من ٱلأعدادِ، يَحْيا في ٱلعَدَدِ ويَحْيا فيه ٱلعَدَدُ. فقدْ بَدأ ثقافةً لُغويّةً خالصةً ٱنقطعَ إليها، وزادَه ٱنقطاعاً إلى عالمِه ٱللُّغويِّ ٱلخالِصِ، ٱنطفاءُ حاسّةٍ هي أشدُّ ٱلحواسِّ في ٱلكائنِ جَذْباً إلى واقعِ ٱلمادّةِ ذاتِ التّلاوينِ.

إذاً، فٱلمعرّيُّ ليسَ له مِمّا يَصِلهُ بٱلواقعِ ٱلماديِّ إلّا ٱلأضْعَفُ تَشْويقاً وتأثيراً، فَلَمْ يَشُدَّهُ واقعُ ٱلمادّةِ إليه، ويَمْشِ عليه بغمرتِهِ، بل ظلّ طَلْقاً من الأسْرِ، أسْرِ ٱلمكانِ ٱلجَمود.

إنّه ليسَ يَشْهَدُ سِوى صُوَرِ ٱلألفاظِ كما يَفْتَرضُها، وهي تَحْياهُ ويَحْياها

فَيَطْمَئِنُّ ويَغْتَبِطُ، وتُشوّقُه كثيراً فيستَلِذُّها ويَتَذَوَّقُها. إنّه يُحِسُّ بكيانِه فيها، وهيَ، أيِ ٱلألفاظُ، في حِسِّهِ، يَنبوعٌ يتدَفّقُ مِثْلَ شلّالٍ إلى هاويةِ ٱلوجودِ، فيروقُهُ سماعُ هَديرِه ٱلّذي هو هديرُ ذاتِه في ذاتِ ٱلوجودِ.

وكانَ هذا ٱلآفتلاتُ من أسْرِ ٱلمكانِ أوّلَ قادمةٍ نبتَتْ في جَناحِ نَسْرِنا ٱلعظيمِ ٱلّذي أطَلَّ علينا في هذا الدَّوْرِ، بوجهِ الشّاعرِ ٱلمُلْتمعِ بٱلفكرِ مثل:

أَجَدَّ بـه غَـوانـي ٱلـجِـنِّ، لُـعْـبـاً
فأعجَلَها الصّباحُ، وفيه جانُ[1] (س١/٦٩)

*

وَلَوْ تَقَدَّمَ في عَصْرٍ مَضى، نَزَلَتْ
في وَصْفِه مُعْجِزاتُ ٱلآيِ والسُّوَرِ[2] (س١/٤٨)

ونَشهدُ ٱلمعرّيَّ مرّةً أُخرى يتقلَّبُ في حَلَب[3]، وهي منزلٌ من منازلِ ٱلمَعْرفةِ يومَذاك، يعُبُّ كُلَّ ما وَصَلَتْ إليه يدُه غَيْرَ مُتَحَرِّجٍ ولا مُتأثِّمٍ، وكانَ في حَلَبَ وٱلمسافاتِ ٱلقريبةِ منها نشاطٌ للباطنيّةِ، وقريبٌ جدّاً أنّ ٱلمعرّيّ ٱتّصلَ به أثرُها، وهَدَأ ذاهلاً يرشُفُ رسائلَ ٱلإخوان بِنَهَمٍ.

(١) قالَ في شَرحِ التّنويرِ على **سَقط الزّند**، المَعْنى: نِساء الجِنّ لعبْنَ في هذا ٱلغَديرِ لَيلاً، فداهَمَهُنّ الصّباحُ فخِفْنَ ٱلآفتِضاحَ فهَرَبْنَ ونَسينَ ٱلجانَّة أي السّوارَ ـ هذا ٱلبيتُ بمَعْناه ٱلّذي ذَكَرَه في التّنويرِ يُرينا كيفَ أخذَ ٱلأخطلُ الصّغيرُ صورةَ ٱلجِنِّ الرّاقصينَ في قَصيدته ٱلبائيّةِ في ذِكْرى ٱلمُتنبّي ٱلّتي مَطلعُها:

نـفـيـتَ عـنـك ٱلـعُـلـى والـظَّـرفَ والأدبـا
وإنْ خُلقتَ لها، إن لم تَزُرْ حلبا... إلخ

(٢) يَظْهَرُ واضِحاً كيفَ آستلهم شَوقي هذا ٱلبيتَ حتّى كأنّه آجتلبَهُ في مَرثاتِه لمُصطفى كامل:

لـو كـانَ لـلـذِّكـرِ ٱلـحَـكـيـمِ بـقـيّـةٌ
لـم تَأتِ بعدُ، رُئيتَ في ٱلقُرآنِ

(٣) حَكى بعضٌ من أضْحابِ التّراجم رحلتَه إلى حَلَب ورحلاتٍ أُخرى إلى أنطاكيةَ وطرابلسَ وٱللّاذقيةِ، وشكَّ بها بعضٌ آخرُ، ولكنّهم آتّفقوا جَميعاً على رِحلتِه ٱلبَغداديّةِ.

وما هو، حتّى عَصَفَتْ به هَذْأةُ الذُّهولِ، وما هو حتّى هبَّ في نَفْسِه ٱلإعصارُ، وإذا به يَعودُ إلى ٱلمَعَرَّةِ حامِلاً أعقدَ أزماتِ ٱلفِكْرِ ٱلّتي لَبِثَ طَويلاً وعانى كَثيراً حتّى تَهَدّى إلى حَلِّها، وقد تداعى في مُتَناوحِ ٱلإعصارِ كلُّ ما كانَ في نفسِه قائِماً ثابِتاً، فيُطِلُّ علينا في هذا الدَّوْرِ بوَجْهِ الشّاعرِ ٱلحائرِ بٱلفِكْرِ، مثل داليّةِ الرِّثاء:

غـيـرُ مُـجـدٍ فـي مِـلَّـتـي وٱعـتـقـادي
نَـــوْحُ بـــاكٍ، ولا تَـــرَنُّمُ شـــادي (س١/٢٧٥)

وهو، تحتَ هذا ٱلإعصارِ أو ٱلأزمَةِ ٱلجائحةِ، هبَّ يطلُبُ ٱلمَعْرفةَ من جديدٍ، على غيرِ الشّكلِ ٱلّذي طلبَهُ من قبلُ. فتلكَ معرفةُ التّلقينِ، وهذهِ معرفةُ النّقدِ وٱلٱستحالةِ. وهنا نَشْهَدُ ٱلمعرّيَّ مرّةً ثالثةً يَضْطربُ في ٱلأرضِ، ومعَ النّاسِ، ولكنْ زادَتْه مُشاهداتُه يأساً وأسىً، وزادَتْه ٱستفزازاً وتقزُّزاً أنشَطَهُ إلى الثّورةِ، ومدّهُ بالنّقدِ السّاخرِ والضِّحكةِ الصّفراءِ ٱلمُؤْتَكِلَةِ.

وٱلمعرّيُّ يَقْفُلُ من رحلتِه ٱلبغداديّةِ ٱلّتي وصلتْه بكُلِّ فئةٍ، ويُطِلُّ علينا بوجهِ الشّاعرِ النّاقدِ للفكرِ ٱلٱصطلاحيّ، بٱلفكرِ ٱلٱصطلاحيّ نفسِه ٱلّذي هو أدلُّ على التّهافتِ، وهنا يبرزُ جَلالُ السُّخْرِ عندَ ٱلمعرّيّ وجمالُه، مثل:

تـمـنَّـيـتُ أنّ ٱلـخَـمْـرَ حَـلَّـتْ لـنـشـوةٍ
تُـجهِّلُني، كيفَ ٱطْمَأنَّتْ بِيَ ٱلحالُ (س٢/٦٨)

وبرُغْمِ ما هو فيه من إعصارٍ دائرٍ على ٱلفِكْرِ ٱلٱصطلاحيّ، عندَه وعندَ النّاسِ، وبرُغمِ ما تداعى بين يديهِ من صُروحِ ٱلمُصْطلحاتِ ٱلجَوْفاءِ، ظَلَّ مُؤمناً بٱلقيمةِ ٱللُّغويّةِ، وأنّها تُبطِنُ سِرّاً عميقاً. وزادَه إيماناً ما قدْ رآهُ في

رسائلِ ٱلإخوانِ ٱلّتي مضَتْ تُقَرِّرُ: «سريان ٱلقُوى وهي ٱلأصواتُ والنّغماتُ، أوّلاً في عالمِ السّماواتِ، ثُمَّ في حركاتِ ٱلهواءِ، ثُمَّ في حركاتِ النّباتِ، ثُمَّ في أجسامِ ٱلحيوانِ، ثُمَّ في عالمِ ٱلإنسانِ. (وأنّ) لكلِّ صوتٍ صفةً روحانيّةً تختَصُّ به خلافَ صوتٍ آخرَ وأنّ أصلَ ٱلحَرَكةِ هو النّفسُ. وأنّ الصَّوتَ مُنْفَعِلٌ من حركتِها وسريانِ قُواها في ٱلأجسامِ. (وأنّ) الصَّوْتَ مَفْهومٌ وغيرُ مَفْهومٍ، وٱلمَفْهومُ هو الصَّوْتُ ٱلحيوانيُّ، والصَّوْتُ ٱلحيوانيُّ على ضربَيْن: مَنْطقيٌّ، وغيرِ مَنْطقيٌّ، وٱلمَنْطِقيُّ يتحَيّزُ في ٱللُّغةِ. (وأنَّ) للأصواتِ ألواناً ومَشْموماتٍ...».

ثمّ تَمْضي الرّسائلُ فتُعلِّلُ: «لماذا كانَتِ ٱلحروفُ ثمانيةً وعشرينَ؟» بأنّها «ٱلعِدَّةُ التّامّةُ، فإنّ منازلَ ٱلقَمَرِ كذلكَ، وأعضاءُ جِسْمِ ٱلإنسانِ كذلِكَ... وأنّ ٱللُّغةَ التّامّةَ هي ٱلعربيّةُ، وهي، في ٱللُّغاتِ، مثلُ صورةِ ٱلإنسانِ في ٱلحيوانِ. وأنّ أحكَمَ ٱلكلامِ ما كانَ أبلغَ، وأتقنَ ٱلبلاغةِ ما كانَ أفصحَ، وأحسنَ ٱلفصاحةِ ما كانَ مَوْزوناً مُتَّفِقاً، وأصحَّ ٱلمَوْزونِ ما كانَ غيرَ مُنْزَحِفٍ»[٤].

فإيمانُ المعرّيّ بٱلقيمةِ ٱللُّغويّةِ وما خَلَّفَتْه ٱلرَّسائلُ في نَفْسِه، رَدَّهُ ردّاً عَنيفاً إلى طَلَبِ حلِّ ٱللُّغزِ ٱلكَوْنيِّ وٱلوجوديِّ في ٱللُّغةِ، لا سيّما أنّ ٱلقائلينَ بالتّرتيبِ ٱلكَوْنيِّ ترتيباً عَدَديّاً، مثلَ أصحابِ الرّسائلِ، يُوَحِّدونَ بينَ ٱلعَدَدِ وٱللُّغةِ[٥] من حيثُ إنّ كُلّاً منهُما يرتَدُّ إلى وَحدةٍ، قال:

فيا أَلِفَ ٱللَّفظِ لا تأمُلي
جِراكاً، فما لَكِ إلّا السُّكونُ (ل٤/٢٦٩)

(٤) راجِعْ رِسالاتِ ٱللّغة وٱلموسيقى، وٱلعَدَد، من رَسائل ٱلإخوان.
(٥) راجِعِ الرّسائل ٱلمَذْكورة ٣/١٥٠، ط ٱلقاهرة.

وعلى هذا الرَّسيلِ مَضى يَحُلُّ ٱللُّغْزَ في كُلِّ شيءٍ، في ٱلوجودِ وٱلحياةِ وٱلفِكْرِ. ويَدُلُّ على تَشَبُّعِه بعَلاقةِ ما بينَ ٱلحَرْفِ وٱلعَدَدِ قولُه:

طُرُقَ ٱلعُلى مَجْهولةٌ، فكأنّها
صُمُّ ٱلعَدائِدِ، ما لَها أجْذارُ (ل٢/٥١)

وهُنا أحسَّ بأنّه قد أدركَ، وقد أدركَ وحدَه، فٱنكفأ على نفسِه مُتَجَرِّداً فوقَ خِضَمِّ ٱلأباطيلِ مُطِلّاً من أُفُقِه الشّامخِ بوجهِ الشّاعرِ ٱلفَيْلسوفِ ٱلكاملِ:

كَلَّمْتُ بٱللَّحْنِ أهلَ اللَّحْن أُونِسُهُمْ
لأنّ عَيْبِيَ، عندَ ٱلقوم، إعرابي (ل١/١٦٧)

وكانَ أنْ أعطى فَلْسَفَتَه ٱلمُنْقَطِعَةَ النّظيرِ ٱلّتي نَعْرِضُها ٱلآنَ عَرْضاً كفهرسٍ فَقَط، ونُبَرْهِنُ عليها فيما يلي بِتَفْصيلٍ وتَطْبيقٍ:

يتَصَوّرُ ٱلمعرّيُّ ٱلكَوْنَ كُلّاً لُغويّاً، والتَّركيبَ ٱللُّغويَّ غَيْرَ نهائيٍّ، فهو كٱلأبديّةِ السَّرمديّةِ في ٱتّساعِها وٱمتدادِها وعُمْقِها:

هذي حروفُ ٱللَّفظِ سَطْرٌ واحدٌ
منها يُؤَلَّفُ للكلامِ بِحارُ (ل٢/١٥٨)

وكما يرجِعُ التّركيبُ إلى ألفاظٍ فحروفٍ فأصواتٍ فنأَماتٍ خفيّةٍ يطفَحُ بها ٱستعدادُ ٱلحيِّ طفْحاً ذاتيّاً، وٱلحَيُّ يَمْضي فيُركِّبُها إلى غيرِ نهايةٍ، وهو إذ يُرَكِّبُها يُركِّبُ فيها رَجَفاتِ ٱستعدادِ الذّاتِ وخوالجَها مثلَ رَجَفاتِ ٱلأوتارِ.

كذلكَ ٱلكَوْنُ وٱلوجودُ وٱلحياةُ، تَنْحَلُّ في سِلْسِلَةِ تباسُطِها إلى أنْ تَسْتَوِيَ في ٱللّهِ ٱستواءَ الصَّوْتِ في ذاتِ ٱلحيِّ.

وأوّلُ ٱنبثاقٍ هو رَجْفَةٌ أو فَيْضُ ٱلاستعدادِ ٱلإلهيِّ، ٱلّذي بَدَأَ نَأْمةً ثمّ

مضَتْ تتحَيّزُ شيْئاً بعدَ شيءٍ لتتركَّبَ شيْئاً بعدَ شيءٍ، حتّى تَتَعَقَّدَ وتَسْتَقِرَّ سِلْسِلَةُ مَنْظوماتِ ٱلآنبثاقِ في ٱلحياةِ وٱلأحياءِ، مِثْلَما تَتَعَقَّدُ وتَسْتَقِرُّ في ٱلكَوْنِ ٱلّذي هو قصيدةٌ ذاتُ تفاعيلَ، قال:

والنّاسُ كالأشعارِ يَنْطِقُ دَهْرُهُم

بِهِمُ، فَمُطْلَقُ مُعْشرٍ ومُقيَّدُ (ل٢/٣٥)

لتنتَظِمَ سلسلةُ منظومةِ التّفاعيلِ ٱلكونيّةِ في ٱلقافيةِ، قال:

ورُبَّ أسلافِ قومٍ شانَهُمْ خلَفٌ

والشِّعرُ يُؤتى كثيراً من قوافيه (ل٤/٣٩٨)

وٱلقافيةُ بذاتِها تحمِلُ على التقيُّدِ وفرضِ ٱلمدارِ ٱلواحدِ، قال:

دُنياكَ تُوجَدُ أيّامُ السّرورِ بها

مِثْلَ ٱلقصيدةِ لم تُذكَرْ قوافيها (ل٤/٣٨٥)

وفي ٱلمَعْقِدِ تَظْهَرُ أنواعُ ٱلفَسادِ إلّا عندَ مَنْ رُزِقَ ٱلقُدْرَةَ على ٱلْتزامِ ما لا يَلْزَمُ، ٱلّذي هو في ٱلقافيةِ تَقْييدُها بما هي في غِنىً عنه بِجَعْلِها في رَوِيَّيْنِ، وهذا ٱلآلتزامُ يتضَمّنُ التّساميَ بها إلى ما هو أكملُ.

وٱلإنسانُ هو قافيةُ ٱلحياةِ في سلسلةِ ٱلمَنْظوماتِ ٱلآنبثاقيّةِ ٱلكَوْنيّةِ، ولُزومُ ما لا يلزمُ هو التَّوحُّدُ. وكما أنّ لُزومَ ما لا يَلْزَمُ لا يُنتِجُ سِوى ٱلقليلِ في الشِّعرِ، كانَتْ قلّةُ ٱلّذينَ يَتَوَحَّدونَ ويَصْطفونَ. وعلى التَّوحُّدِ ٱلمُطْلَقِ تدورُ كُلُّ فَلسفتِهِ، وهو يرى أنّ التَّوحُّدَ دَرَجَةٌ فَوْقَ التَّوحيدِ. قال:

وأرى التَّوَحُّدَ، في حياتِك، نِعمةً

فإنِ ٱستطعْتَ بُلوغَه، فتَوحَّدِ (ل٢/٨٧)

توحَّدْ، فإنّ ٱللّهَ ربَّك وَاحِدٌ

ولا تَرْغَبَنْ في عِشْرَةِ الرُّؤَساءَ (ل١/٧١)

وهذا التّصوّرُ ٱللُّغويُّ في ٱلكَوْنِ يُنتِجُ أنّ ٱللّهَ مُنْفَصِلٌ بالذّاتِ، مُتَّصِلٌ بسَرَيانِ ٱلاستعدادِ ٱلإلهيِّ، وإليه ٱلإشارةُ في ٱلآية «إنّما قَوْلُنا لشيءٍ إذا أردْناهُ أن نقولَ لهُ كُنْ فيكون» (النحل ١٦:٤٠)، أيْ بسَرَيانِ فَعَالِيّةِ ٱلكَلِمةِ. ويُنتِجُ أيضاً عدمَ جوازِ التّناسُخِ لأنّه فَرَّعَ ٱلقَوْلَ بأنّ التَّرتيبَ ٱلوجوديَّ قائمٌ على مِثْلِ ٱلمتواليةِ ٱلعدديّةِ، فلا يَزيدُ ولا يَنقُصُ، أمّا ٱلقولُ بالتَّرتيبِ ٱللُّغويِّ فإنّه يَقْتضي أنَّ التّكَوُّنَ أو التّخلُّقَ قائمٌ على مِثْلِ ٱلمُتواليةِ ٱلهَنْدَسيّةِ ٱلّتي تَجُرّ إلى ٱلقفزِ في التّكاثرُ...

والأنبياءُ قَوْمٌ مُتَوَحِّدونَ ساروا مَسيرَ ٱلقافيةِ ٱلّتي بَلَغتْ أسْمى منازِلها في لزومِ ما لا يلزَمُ، كما حَلَّ التّوَحُّدُ أسمى منازِله في تَوَحُّدِه هو...

والشّرائعُ مناهجُ ٱلمُتَوَحِّدينَ، وهي مُتفاوتةٌ في صِفَةِ التّكامُلِ، فهاجَمَ نواحيَ النّقصِ فيها...

وٱلإنسانُ ٱلكاملُ هو ٱلمُتَوَحِّدُ لأنَّ ٱلواحديّةَ هي ٱلبَدْءُ والنّهايةُ. وٱلإنسانُ ٱلأكملُ هو ٱلمُتوحِّدُ الصَّرُورَة...

ومن هذا يظهرُ كيفَ نبتَتْ فلسفتُه على شَكْلٍ آخرَ عندَ ٱبن باجةَ، ٱلّذي ٱنحرَفَ بها عن التَّصَوُّرِ ٱللُّغويِّ إلى التَّصَوُّرِ ٱلْفَلْسَفيِّ ٱلاصطلاحيِّ في «تدبير ٱلمُتَوَحِّد»...

ومن ٱلخَطَأِ الظَّنُّ أنَّ ٱلمعرّيَّ حارَب النَّسْلَ بناءً على فلسفتِهِ، وإنّما أُخْفِقَتْ دَعوةُ التَّوحُّدِ وَشعَرَ بإخفاقِها فيئِسَ من ٱلإصلاحِ ٱلبَشَريِّ، فنادى بالتّهديمِ، نادى بخَصْبِي ٱلحَياة:

فَسَدَ ٱلأمرُ كُلُّه، فٱترُكوا ٱلإعْـ

ـرابَ، إنّ ٱلفصاحةَ ٱليومَ، لَحْنُ (ل٤/٦٦)

*

تـواصَـلَ حَبْـلُ النَّسْـلِ، مـا بـيـنَ آدمٍ
وبـيني، ولـم يُـوصَـلْ بـلامِـيَ بَـاءُ (ل١/٥٠)

*

ونَـظْـمُ أُنـاسٍ تَـنـاهـى إلـيَّ
مـن عـهـدِ آدمَ، ثُـمّ آنـقَـطَـعْ (ل٣/١٥١)

المنهج اللّغوي عند المعرّي

يُظْهِرُنا ٱلمعرّيُّ عَلى أهميّةِ ٱللّغةِ وليسَ قَصْدَ التّعبيرِ فقطْ، بل قَصْدَ التّعْليلِ وٱلإدراكِ ٱلكُلّيِّ أيضاً. وإذا كانَتْ فلسفتُه بمكانٍ بعيدٍ من الطّرافةِ، فإنّ طريقتَه إلى التّصوُّرِ ٱلفلسفيِّ تُحْسَبُ أشدَّ طرافةً وأكثرَ غرابةً وٱستهواءً.

إنّه تجاوَزَ جَميعَ الطّرائقِ وٱلمناهجِ النّظريّةِ وما إليها ـ من كُلِّ ما رتَّبَ وقَدَّرَ ٱلفكرُ ٱلبشريُّ ـ إلى ٱللّغةِ ونواميسِها وعلاقاتِ ما بينَها، ودخَلَ بها إلى ٱلمجهولِ ٱلكونيِّ وٱلغَيْبيِّ. فأدركَ، وأدركَ كثيراً، وٱطمأنَّ، وٱطمأنَّ كثيراً أيضاً، وٱتّخذَ من أوهامِ النّاسِ أُلهيَّةً تمدُّهُ بٱلعبثِ والنّشوةِ السّاخرةِ، ومَوْضوعاً للنّكايةِ في التّعريضِ، قال:

وٱلبرايا لَفْظُ الزّمانِ، ولا بُـ
ـدَّ لهُ من تغيُّرٍ وٱنقلابِ (ل١/٨٨)

وليسَ غَريباً أن يتَّجِهَ ٱلمعرّيُّ بنظرِه إلى ٱللُّغةِ، وعَصْرُه يؤمِنُ في أكبرِ إدراكِه بأنّ ٱللُّغةَ تَوْقيفٌ وليسَتِ ٱصطِلاحاً بشريّاً. وأنا لا أعْني أبداً أنّ

ٱلمعرّيَّ كانَ يؤمِنُ بهذا الرّأيِ، وإنّما أقولُ إنّه كانَ سبيلاً قريباً عندَه إلى وثبةِ الذِّهنِ وَلَفْتِه فقطْ.

هو، كما عَرَفْنا من قبلُ، لم تُحْرِزْ ثِقَتَه كُلُّ ٱلمناهجِ النّظريّةِ للفكرِ، فباتَ معَها حائراً، وحائراً يَدْعو إلى ٱلإشفاقِ. وتكوينُه ٱلعَصبيُّ زادَ في مأساةِ ٱلحَيْرَةِ عندَه، حتّى مَثَّلَ، وفي درجةٍ بعيدةٍ «ٱلرَّجُلَ المأساةَ» في الرّوحِ وٱلفِكرِ، مَثَّلَ ٱلمأساةَ الطّائفةَ بالنُّدوبِ الطّريئةِ، وٱلكُلومِ ٱلحيَّةِ. قالَ:

وكيفَ أُرَجّي من زمانٍ زيادةً؟
وقدْ حَذَفَ الأصليَّ حَذْفَ الزّوائدِ (ل٤/٢١٥)

*

سألتُكُم: لا تُكَنّوني لتكرمةٍ،
وصغّروني تصغيراً بترخيمِ (ل٤/٢١٥)

وفجأةً ٱلْتمعَ ذهنُه الجبّارُ، على ما نُقَدِّرُ، بخاطرةٍ سريعةٍ جَرّتْ وراءَها طائفةً من التّساؤلاتِ: أليسَتْ في ٱللُّغةِ ظاهِراتُ الطّبيعةِ وٱلوجودِ نفسُها، من مَصْدَريّةٍ وٱشتقاقٍ ، أيْ من أصلٍ وتوليدٍ؟ أليسَ في ٱللُّغةِ ـ وبٱلأخصِّ ٱلعربيّةُ ٱلّتي هي ٱللُّغةُ التامّةُ ـ كلُّ مظاهرِ التغيُّرِ في عالمِ ٱلكونِ وٱلفسادِ، مِثْلَ ٱلإعرابِ ٱلمُتَغَيِّرِ بٱلعواملِ؟ أليسَ في ٱللُّغةِ أشياءُ ٱلحياةِ كلُّها من تعْدِيَةٍ ولُزومٍ، أيْ سيطرةٌ سببيّةٌ وقُصورٌ ذاتيٌّ؟ أليسَ في ٱللُّغةِ إعلالٌ وتصحيحٌ وفعلٌ وٱنفعالٌ وتفاعلٌ وٱفتعالٌ، أيْ رَدُّ ٱلفعلِ؟ أليسَ في ٱللُّغةِ تَضعيفٌ وإدغامٌ وترادفٌ وٱشتراكٌ؟ أليسَ في ٱللُّغةِ جسمٌ وروحٌ كٱللَّفظِ وٱلمعنى؟ أليسَ في ٱللُّغةِ عالَمُ غيبٍ وعالَمُ شهادةٍ في ٱلمُضْمَرِ وٱلمُظْهَرِ، قالَ:

ما زالَ مُلْكُ ٱللّهِ يَظْهَرُ دائباً
إذْ آدمٌ وبَنوهُ، في ٱلإضمارِ (ل٢/٢٧٥)

أليسَ في ٱللُّغةِ نَثْرٌ ونَظْمٌ مِثْلَما في ٱلوُجودِ حلٌّ وعقدٌ؟... إذاً، ففي ٱللُّغةِ طبيعةٌ وحياةٌ ومجهولٌ، أو هي عالمٌ كاملٌ عن عالمِنا، وهي أكثرُ تعبيراً عن كُلِّ هذا، من عالمِنا ٱلمُحجَّبِ.

فلِماذا لا تكونُ ٱللُّغةُ هي ٱلجانبَ النّاطقَ عن ذلكَ ٱلجانبِ الصّامتِ، لا سيّما وهناكَ مَن لا يشُكُّ في أنّها توقيفٌ، أيْ وَحْيٌ، ومَنْ لا يشُكُّ في دَلالةِ ٱلعددِ، بينَما ٱللُّغةُ تُبطِلُه. إذاً، فٱللُّغةُ هي الطّريقُ إلى ٱلإدراكِ، وهي الطّريقُ وحدَها دونَ شكٍّ عندَه...

هذا شيءٌ لم يُصرِّحْ به أبو ٱلعلاءِ؛ ونحنُ لا ننتَظِرُ منه تَصْريحاً، وهو ٱلّذي يُبَعْثِرُ بٱلقصْدِ إشاراتِ الطُّرُقِ، آخذاً على ٱلآخَرينَ سبيلَ ٱلوُصولِ إليه. وإنّما ذلكَ شيءٌ نحنُ نستَنْتِجُه ٱستنْتاجاً من إيماءاتِه، وبمُعاناةٍ غيرِ يسيرةٍ.

وكانَ ٱلّذي يدفَعُنا إلى تبيينِه على هذه الشّاكلةِ، أسبابٌ منها:

أ ـ تعلُّقُه بٱللُّغةِ إلى حدِّ الرُّعونةِ ٱلّتي كأنّها تُشيرُ إلى ٱلغايةِ منها وٱلقَصْدِ ٱلمَسْتورِ وراءَها.

وليسَ يَسْتقيمُ هذا التّعلُّقُ وتعليلُه بٱلإدلالِ وٱلكشفِ عمّا ٱتّفقَ له من ٱستيعابِ نادِرِها وٱلإحاطةِ بغريبِها، وهو ٱلّذي نراهُ يُشيحُ ويُعرِضُ عن مُقوِّماتِها في **الأيْكِ والغصون**، على ما سيمُرُّ بكَ، كما لا يَسْتقيمُ تَفسيرُه بٱلعَبَثِ تَحْليةً وتَوْشيةً، وبالتّصنُّعِ براعةً وتفوّقاً، قال:

مَنْ يَبغِ، عِنْديَ، نَحْواً أو يُرِدْ لُغةً
فَما يُساعَفُ مِنْ هذا ولا هذي
يَكْفيكَ شَرّاً، من الدُّنيا، ومَنْقَصَةً
أنْ لا يَبينَ لكَ ٱلهادي من ٱلهاذي (ل٢/١٠٥)

ب ـ تلاعُبُه ٱلّذي يتخلّلُ ٱلقِطْعَةَ، والشّذوذُ عن ٱلموضوعِ، قال:

أَعْـيـاكَ خِـلٌّ، ولـولا قُـدْرَةٌ سَـلَـفَـتْ،
لـم يُمْكِنِ ٱلجَمْعُ بين ٱلخاءِ وٱللّامِ (ل٢١١/٤)

جـ ـ تَهَرُّبُهُ من ٱلبحثِ إبّانَ ٱستمرارِه وٱلإفاضةِ فيه، ويتعَلّلُ تارَةً بالشّكوى وتارَةً بٱلعجزِ. ففي الرّسائلِ ٱلمُتَبادَلةِ بينَه وبينَ داعي الدُّعاةِ[1] يعمِدُ إلى ٱلبحثِ على وجهٍ منطقيٍّ خالصٍ، ويُثيرُها مُشكلةً حاميةً حتّى إذا بلغَتْ درجةَ ٱشتعالِها، ٱرتدَّ يُوارِبُ ويخلِطُ موضوعاً بموضوعٍ؛ كما لو أنّه يُثيرُ ٱلقَتامَ وٱلغُبارَ الشّديدَ ليحتَجِبَ وراءَه، أو يُظهِرَ لَهَثَهُ وٱختناقَه بما يجثِمُ عليه من وقرٍ، إنّه يريدُ أن يظلَّ مُتَلَفِّعاً بٱلأستارِ، قالَ:

أنـا كـٱلـحـرفِ لـيـس يُـنـقَـطُ وٱلـ
ـلّـهُ حَسيبُ ٱلجُهّالِ، إنْ نَقَطوني
بِـتُّ كـٱلـواوِ بـيـن يـاءٍ وكَـسْـرٍ[2]،
لا يُـلامُ الـرِّجـالُ إنْ يُـسـقِـطـونـي (ل٣٤٥/٤)

*

وَجَـدْتَـنِـيَ ٱلـلُّـجَـيْنَ أوِ الـثُّـرَيّـا
وتـصـغـيـرُ الـمُـصـغَّـرِ لا يَـجـوزُ (ل٣١٩/٢)

د ـ ٱتّخاذُه أُسلوباً حُوشِيّاً شديدَ ٱلبروزِ في كُلِّ ما أنْشأ من نَثْرٍ أو نَظْمٍ، والتّكلّفُ له بقسوةٍ وتعسّفٍ، وطابعُ ٱلأسلوبِ ٱلبارزُ يُعبِّرُ دائماً عن طابعٍ بارزٍ مثلِه في ٱلفكرِ من وجهٍ، ومن وجهٍ آخر يُعَبِّرُ التّكلّفُ له

(١) أنظُرْها، ص٩ ـ ١٨، ط ٱلقاهرة.

(٢) يُشيرُ إلى ٱلقاعدةِ الصّرفيّةِ فيما كانَ واويّ ٱلفاءِ ٱلّذي يَسْقُطُ في ٱلمُضارعِ، لأنّ ٱلواوَ وقعَتْ بين عدوَّيْها ٱلياءِ وٱلكسرِ كوزن يزن... إلخ.

والآحتفالُ به عن قَصدٍ لا يتمُّ إلّا به أيضاً.

هـ ـ أسماءُ آلكتبِ آلّتي تَنْصَبُّ آنصباباً خاصّاً على آلقافيةِ وآلعروضِ، مثلَ **اللّزوميّات، الفُصول والغايات**، آلمُرادُ بآلغايات آلقوافي[٣]، **الهمز والرّدف** آلمعروف بـ **الأيك والغصون**، و **جامِع الأوزان**... إلخ. ويدُلُّ على أنّه آستعملَها لغايةٍ، مقطوعتُه:

تـخـيُّـلٌ مـن بَـنـي الـدُّنـيـا، غـدا عَـجَـبـاً
لـلـمُـفْـكِـريـنَ، وكـلُّ الـنّـاسِ مـحـسـورُ
كـــأنّ إعـــرابَ أَعـــرابٍ ثـــوَوْا زمـــنـــاً
بـالـدَّوِّ، فـينا، بـحُـكـمِ الـنّـحـوِ مـأسـورُ (ل٢/١٣٤)

و ـ كراهيَّتُهُ للنّحوِ، هذه الكراهيَّةُ آلّتي لا تتّفقُ وآعتدادَه بآللُّغة وما إليها، إذا آستقامَتْ دعوى التّكَلُّفِ عندَه بآلآعتدادِ آلمزعومِ. فقدْ هتفَ في **الأيكِ والغصونِ** بهذه آلفِقَرِ الرّائعةِ آلقارعةِ: «يا نحوُ، يا نَحوُ. حقَّ لِما كُتِبَ منك آلمحوُ. ما أشْغَلَني إذا نودِيَ بي عن أحكامِ النِّداء»[٤].

تلكَ كراهيةٌ ليسَ يستقيمُ عندَنا تعليلُها، إلّا بأنّ النّحوَ، أيِ آلإعرابَ، رمزُ آلكونِ وآلفسادِ والتّغيُّرِ الدّائمِ. وهذا لا يمنعُ أنّه كانَ يستغِلُّه وفْقَ مَفاهيمِه، قالَ:

وآلـمـرءُ كـانَ، ومـثـلَ كـانَ وجـدتُـهُ
حـالَـيْـهِ فـي آلإلـغـاءِ وآلإعـمـالِ (ل٤/١٠٨)

فقدْ طَوى في هذا آلآلتماسِ النَّحْويّ أُموراً:

١ـ كونُها فِعلاً ناقِصاً كَكَوْنِ آلإنسانِ.

(٣) راجِعْ **معجم الأدباء** لياقوت ٣/١٤٦، ط آلقاهرة.
(٤) راجِعْ **أوج التحرّي عن حيثيّة آلمعرّي** للبديعي، ط دمشق.

٢ـ الإلغاءُ أو ٱلحشوُ والزّيادةُ.

٣ـ الإعمالُ والتّغييرُ في جزءٍ من جُزْأيِ ٱلجُملةِ.

وقالَ أيضاً:

وٱلجسمُ ظَرفُ نوائبٍ، وكأنّه
ظَرْفٌ يؤخَّرُ تارةً ويُقدَّمُ (ل١٦١/٤)

وٱلآنَ ننتقِلُ إلى عملِ ٱلمنهجِ ٱللُّغويِّ عندَه على ما نُقَدِّر، ولا بِدْعَ أنْ نقولَ ٱستنتاجاً: «يرى ٱلمعرّيّ». فنحنُ في الطّبيعيّاتِ وٱلعُضويّاتِ نقولُ: سُنَّةُ الطّبيعةِ كذا وسُنَّةُ ٱلحياةِ كذا. وليسَ ٱعتمادُنا إلّا على التّجرِبةِ ٱلقاطعةِ أو ٱستمرارِها وتَكرارِها.

رأى ٱلمعرّيُّ في ٱللُّغةِ، كما قُلْنا، إعراباً وبناءً، أي زماناً ومكاناً، وحركةً وسُكوناً، أيْ وُجوداً وعَدَماً وتغيُّراً. قال:

وٱلفَتى كٱسْمِهِ، ٱلمُصرِّفِ
هذا ٱلجِسْمِ، يَلْقى التَّغْييرَ والتّقْليبا (ل١٤٣/١)

ونحنُ، بعلمِ ٱللّهِ، مِنْ مُتحرِّكٍ
يُرى ساكناً أو مِن ساكنٍ يتحرّكُ (ل٢٣٢/٣)

*

وتودِعُ النّاسَ في بعضِ الثّرى نُوَبٌ:
خَفْضٌ ورَفْعٌ، وتَحريكٌ وإسكانُ (ل٢٥٨/٤)

*

وٱلمَرءُ مثلُ ٱلحَرْفِ، بينَ سُهادِهِ
وكَراهُ، يُسْكَنُ تارةً ويُحَرّكُ (ل٢٤٠/٣)

ورأى مبتدأً وخبراً، أي حقيقةً وتشكّلاً، أو هُيولى وصورةً. ومعروفٌ أنّ ٱلخبرَ في قوّةِ الصِّفةِ وفيه ضميرٌ يعودُ على ٱلمبتدأ، وبينَهما رابطةُ إسنادٍ، وإذا صحَّ هذا فٱلوُجودُ تَشَكُّلٌ من تشكُّلاتِ ٱلحقيقةِ، وبتعبيرٍ آخرَ هو صورةُ ٱلهُيولى ٱلكُلّيةُ، ولكنّه صورةٌ غيرُ مُباشرةٍ، أي في قوّةِ الصِّفةِ، وفيه عائدٌ، أيْ معنىً أزليٌّ مُبْهَمٌ يتحَرّكُ بٱلحنينِ إليه... وبينَ ٱلحقيقةِ ٱلأولى وبينَ ٱلوُجودِ رابطةُ إسنادٍ غيرُ مُنفَكّةٍ، إذا ٱضمحلَّتْ فقدْ حقَّ ٱلفسادُ.

ورأى في ٱللُّغةِ نكرَةً ومعرفَةً، أيِ ٱنْبهاما وٱنجلاءً أو ٱنْفصالاً وٱتّصالاً. قال:

عَرَّفَتْني، حتّى شُهِرْتُ، ٱللّيالي
ثمَّ صالَتْ عليَّ بالتّفكيرِ (ل٢/٢٩٧)
وبعضُ حواصِلِ ٱلأسماءِ دلَّتْ
على تعريفِه، أَلِفٌ ولامُ (ل٤/١٥٦)

ورأى فيها فِعْلاً تامّاً وناقِصاً، أيْ حركةً فاعلةً ومنفعِلَةً في عَلاقاتٍ جدليّةٍ. ورأى فيها فِعْلاً صحيحاً ومُعْتَلّاً، أي كَوْناً وفَساداً، قالَ، وستأتي معانيها في بحثِ فلسفتِه:

أُعْلِلْتُ عِلَّةَ «قالَ»، وهيَ قديمةٌ
أعيا ٱلأطِبَّةَ كُلَّهُمْ، إبراؤُها (ل١/٦٢)

*

جسمُ ٱلفَتى مِثلُ «قَامَ» فِعْلٌ
مُذْ كانَ، ما فارقَ ٱلآعتلالا (ل٤/٤٨)

*

إذا غَـدَوْتَ عـنِ ٱلأوطـانِ مـرتَحِـلاً
فضاهِ في ٱلبَيْنِ حَذْفَ ٱلواوِ من «تَعِد» (ل٧٤/٢)

*

إذا ٱعتلَّتِ ٱلأفعالُ، جاءَتْ عَليلَةً
كحالاتِها، أسماؤُها وٱلمصادرُ (ل١١٧/٢)

*

وأَهْونْ بِهِ في راحةٍ أرْيَحِيَّةٍ
كآخِرِ ماضٍ، ليسَ من شأنِهِ الضَّمُّ (س٤٩/٢)

ورأى فيها ٱسمَ فِعلٍ، أي تجَوْهُرَ ٱلحركةِ، وإذا صحَّ هذا فٱلمعرّيُّ على ما نُقدّرُ يُوافِقُ مَنْ يقولُ بٱستحالةِ ٱلأعراضِ جواهرَ.

وبٱلجُملةِ، رأى فيها من وُجهتِها ٱلأكثرِ شُمولاً وٱستغراقاً، فعلاً وٱسمَ فعلٍ وحرفاً مشبّهاً بٱلفِعلِ، أي ما يُنتِجُ جهداً وشغلاً، وتعمَلُ عملاً آليّاً مِيكانِيّاً، (ميكانيكيّاً)، ورأى حَرفاً جاءَ لمعنىً، قالَ:

وٱلبَاءُ مِثْلُ ٱلباءِ،
يَخْفِضُ للدَّناءة أو يَجُرُّ (ل١٧١/٢)

عنَى به أنّ ٱلباءَ، (ٱلباءة: الشَّبَق الشَّهَوِيّ)، مثلَ نظيرَتِها ٱلحرفيّةِ، سبيلُهما ٱلإفضاءُ بمَدخولِهما إلى ٱلانحدارِ وٱلهُبوطِ عن ٱلمُستوى ٱلقِيمِيِّ.

وٱلمعرّيُّ على ضوءِ ٱلآسمِ ٱللُّغويِّ، وبٱلأخصِّ الضّميرِ ٱلّذي هو أعرفُ ٱلمعارفِ، ولا سيَّما ٱلمُستَتِرُ وُجوباً، يَدْرُسُ ٱلجَوْهَرَ أو الشَّيءَ بذاتِه، أي مِن حيثُ هو هو بقطعِ النّظرِ، وهو موضوعُ ٱلعِلْمِ ٱلعقليِّ:

سِرٌّ سيُعْلَنُ، وٱلحياةُ مُعارَةٌ
ولَتُقضَيَنَّ بها، دُيونُ ٱلمُعسِرِ

كـخَبيءِ «نِعْمَ وبِئْسَ» يُخْبأُ فيهما
ويكونُ ذاكَ على ٱشتراطِ مُفسِّرِ (ل٢/٢٦٤)

*

تَـزوّجْ، إنْ أردتَ، فـتـاةَ صِـدْقٍ
كمُضْمَرِ «نِعْمَ»، دامَ على الضّميرِ (ل٢/٢٥٤)

وعلى ضوءِ الصِّفةِ يدرُسُ ٱلفَصْلَ أو ٱلخاصّةَ أي ٱلعوارضَ الذّاتيّةَ، قال:

وفي ٱلأصلِ غِشٌّ، وٱلفُروعُ توابعٌ
وكيفَ وفَاءُ النَّجْلِ وٱلأبُ غادِرُ (ل٢/١١٧)

وعلى ضوءِ ٱلحذفِ وٱلإيصالِ، والتّضمينِ النّحويِّ، أي إشرابِ كلمةٍ مَعْنى كلمةٍ أُخرى لتتعدّى تعديَتَها، والتّرخيمِ، وعلى قواعدِ التّصريفِ ٱلمُتَعَلِّقةِ بٱلقلبِ ٱلمكانيِّ والتّصغيرِ وٱلإبدالِ، أو ٱلمُعاقبةِ، يدرُسُ التَّوحُّدَ ومناهجَ تصحيحِ ٱلكائنِ ٱلحيِّ في ذاتِه وفي سُلوكِه.

وعلى ضَوْءِ ٱلقَواعدِ ٱلمُتَعَلِّقةِ بٱلإعلالِ وٱلإدغامِ، والتّضعيفِ والتّكبيرِ، وٱلمُبالغةِ وتداخُلِ ٱللّغاتِ، وٱلقياسِ والشُّذوذِ وهيئةِ أبنيةِ ٱلكَلِمِ، يدرُسُ حياةَ ٱلجماعةِ أو ٱلمجتمعِ، قال:

أُمورُ سُكّانِ هذي ٱلأرضِ كُلِّهِمُ
كلَفظِهِمْ، فيهِ مَنْظومٌ ومَنْثورُ (ل٢/١٣٣)

وعلى ضوءِ قواعدِ ٱلبلاغةِ في التّشبيهِ، وٱلمجازِ بكلِّ أنواعِه، وٱلكنايةِ، والاستخدامِ، وٱلفصلِ وٱلوصْلِ، وٱلإطنابِ وٱلإيجازِ، وٱلجناسِ، يدرُسُ ٱلحياةَ فيما هي واقعٌ، وفيما هي أسْمى، قال:

تَجانَسَتِ ٱلبرايا في مَعانٍ
ولم يَجْلُبْ مَوَدَّتَها ٱلجِناسُ (ل٣/٢٨)

عُـرْبٌ وعُـجْـمٌ دائِـلـونَ، وكُـلُّـنـا
فـي الـظُّـلـمِ، أهْـلُ تَـشـابُـهٍ وجِـنـاسِ (ل٣/٦٢)

نَـطَـقَـتْ ألْـسُـنُ آلـحِـمـامِ، وبـآلإيـ
ـجـازِ جـاءَتْ، وكَـثـرةِ آلإطـنـابِ (ل١/ ١٨٧)

وعلى ضوءِ قواعدِ آلعَروضِ وآلقافيةِ يدرُسُ خَفايا آلإنسانِ وخباياه، وقدِ آهتمَّ بآلعَروضِ كَثيراً مُستكشِفاً. وَلْنَرَ كيفَ آستبدَّ بتيّارِ فكرِهِ حتّى لم يبرَحْ مُصْطَلَحَه في أكثرِ منظومِهِ ولا سيَّما **اللّزوميّاتُ**، وأورِدُ هذه الشّواهدَ كيفَما آتّفقَ، وليسَ على سبيلِ آلإحصاءِ بلْ نماذجَ. وما كانَ له أن يتعلّقَهَ هذا التَّعلُّقَ ويَكْلَفَ به هذا آلكلَفَ إلّا لغرضٍ قاصدٍ، وهو حتْماً غيرُ التّوْشِيَةِ والتّزيينِ، قالَ:

وقـد يُـخـطِـىءُ الـرّأيَ آمـرُؤٌ وهْـوَ حـازِمٌ
كـما آختَلَّ في وَزنِ آلقريضِ، عَبيدُ (ل٢/١٣)

*

إنّ الـطّـويـلَ نـجـيـبُ آلـقَـريـضِ
أخـوهُ آلـمَـديـدُ ولـم يَـنـجُـبِ (ل١/١٨٨)

وقـد طَـوَتْـني كـأنّـي ضَـرْبُ مُـنْـسَـرِحٍ
فـيـا لِـطَـيٍّ، لِـطـيٍّ غـيـرِ مُـنـتـشِـرِ (ل٢/٢٣٢)

*

مَـغـانـيـهِ مُـحـيـلاتُ آلـمـعـانـي
كـبـيـتِ الـشِّـعـرِ قُـطِّـعَ بـآلـعَـروضِ (ل٣/٩٧)

*

وداري لَكُمْ لم ينقَسِمْ وهو كاملٌ
كمشطورِ وزنٍ ليسَ بالمُتَصَرِّعِ (س٢/١٤٤)

*

وأكرَمَني، على عَيْبي، رِجالٌ
كما رُوِيَ القريضُ على الزِّحافِ (ل٣/١٨٠)

*

وأَعْمارُنا أبْياتُ شِعْرٍ، كأنَّما
أواخِرُها للمُنْشِدينَ، قَوافي (ل٣/١٧٢)

*

وآخِرُ الدَّهرِ يُلْفَى مِثلَ أَوَّلِهِ
والصَّدرُ يأتي على مِقْدارِه العَجُزُ (ل٢/٣١٨)

هذه هي عناصرُ الطّريقةِ عندَ المعرّيِّ، على ما اتّضحَ لنا، وسيمُرُّ بنا شرحُ مسائِلها في الكلامِ على فلسفتِه ليكونَ أكثرَ ارتباطاً وأصحَّ تطبيقاً واستنتاجاً، ولكي لا يُعَدَّ شيئاً مُرتَجَلاً أو افتراضاً شارداً.

وإذا صحَّ أنّ هذه هي الطّريقةُ حقّاً، فاللُّغةُ من وُجهةِ اعتبارِه هي الكُلُّ الفكريُّ في الكُلِّ الكَونيِّ، وهيَ هيَ حَجَرُ الزّاويةِ في بنايةِ الفِكْرِ، وقُطْبُ الرّحى كيفَما اتّجهَ ودار.

وعلى أنّه أخذَ بنواميسِ اللُّغةِ لفهمِ العامّةِ، تنكّرَ كثيراً لِمَنْ يتلاعبونَ بها تلاعُباً عبثيّاً مِن فُقهاءِ اللّغةِ، قال:

والنُّسْكُ، لا نُسْكَ موجودٌ فنَبْغيه
فعَدِّ عن فُقهاءِ اللّفظِ، مُرّاقِ (ل٣/٢٢٢)

وأعتَقِدُ أنّ أكبرَ مَنْ تأثَّرَ به، بعدَ أكثرَ مِن ثلاثةِ قُرونٍ، فضلُ آللّهِ آلحُروفيُّ، (٨٠٤هـ/١٤٠٢م)، مؤسِّسُ النّزعةِ آلحُروفيّةِ، وهي عقيدةٌ تقومُ على أنّ آلأصلَ في آلمعرفةِ هو آللّفظُ، وتُعبِّرُ عن آلمعاني بآلحروفِ، وتتّخذُ أُصولَها من قِيَمِ آلحُروف آلعدديّةِ ثُمّ التّصرّفِ بآلأرْقامِ.

كيف نقرأ المعرّي؟

نحنُ لم نُحسِنْ قراءةَ ٱلمعرّيِّ بعدُ، فَضلاً عن إحسانِ درسِه، وأنا لا أقولُه تواضُعاً أو تعريضاً، بلْ حقيقةً كُلَّ ٱلحقيقةِ.

فٱلمعرّيُّ، ما دُمنا نقرأُهُ في آثارِه على ضوءِ حرفيّةِ ٱلمُعْجمِ ٱلعربيِّ كما نقرأُ أيَّ أثرٍ فِكريٍّ أو أدبيٍّ، فلنْ يَزالَ عسيراً علينا فهمُه، عسيراً علينا السَّيرُ معه.

وقد أدرَك صاحبُ **شرح التَّنوير على سَقْطِ الزَّند**، هذا كُلَّهُ، من ضَرورةِ ٱلمُشاركةِ الشّاملةِ ٱلكاملةِ لأَلْوانِ ٱلمعرفةِ. كما فيه إشارةٌ بارقةٌ إلى وُجوبِ أخْذِ مُفْرداتِه على نحوٍ من ٱلاستقلالِ، بعيداً عمّا تعارَفتْهُ ٱلمعاجمُ، وإلّا غَمَضَ عليكَ فهمُه.

يُقرَّرَ هذا كُلُّه وضرورتُه حيالَ أوّلِ براعِمِه، فكيفَ يكونُ أمرُه حيالَ كُتُبِه ٱلأُخرى كـ **اللّزوميّات** وما إليها من شِعرٍ ونثرٍ.

ولِنفاذِ نَظَرِ هذا الشّارحِ، وَجَدْتُني ـ ولا محيدَ ـ مَسوقاً إلى إثباتِ بعضٍ من نصِّه: «إجتمعتْ لي أدواتُ ٱلآستقلالِ، آبتداءً من إتقانِ فنِّ

ٱلأدبِ... ثُمَّ ٱرتقيتُ إلى عِلمِ الشّرعِ، ثمّ تدرَّجْتُ إلى أجزاءِ ٱلحِكْمةِ، طبيعِيِّها وعقليِّها... فجَلَتْ صدأَ ٱلجُمودِ عن مرآةِ غَريزتي وفتّحَتْ بصيرَتي... وجَلَيْتُ بموادِّ ٱلآستبصارِ غزيراً، ومَنْ يُؤْتَ ٱلحِكْمةَ فقد أُوتيَ خيراً كثيراً... ففَطِنْتُ لمباني أبياتِه ٱلّتي هي مُودَعاتُ ٱلحِكَم»[1].

إنَّ ٱلمعرّيَّ، كَما يبدو لي، ٱستَحْيا ٱللُّغةَ وتلَبَّسَها لا لتُعَبِّرَ وفْقَ دَلالاتِها، بل وفْقَ دَلالاتِهِ نفسِه، ولا لتُشيرَ إلى ما ٱجتمَعَ فيها من وَحْيِ ٱلعُصورِ وروحِها ٱلجاثمةِ، بل إلى ما ٱجتمَعَ فيها من وَحْيِهِ ولَفَتاتِ روحِه.

فٱلمعرّيُّ له لغتُهُ ٱلخاصَّةُ، وله دلالاتُه ومفاهيمُهُ، وله نحوٌ وقواعدُ بلاغةٍ خاصّةٌ أيضاً، وعبثاً نُحاوِلُ ٱلآهتداءَ إليه وَسْطَ الدُّجْنةِ ٱللَّفظيّةِ ٱلمُحيطةِ به، ونحنُ نعتَمِدُ على ٱلمُعْجميّةِ ٱللُّغويّةِ ٱعتماداً حَرْفيّاً ساذَجاً أحياناً، وغبيّاً أحياناً أُخرى. ولكن يلزمُنا لنقرأَه أمورٌ:

أ ـ تَوَسُّعٌ لغويٌّ كبيرٌ يسمَحُ لنا بٱستيعابِ نواحيهِ ٱلخفيّةِ في لباقةِ تصرُّفِه التّركيبيِّ، ورَوَدانِه ٱلإنشائيِّ.

ب ـ تَدْقيقٌ عميقٌ في خَصائصِ ٱلمعاني أو ما نُسمّيهِ بـ «جوِّ ٱلألفاظِ» وهو شيءٌ خِلافُ ٱلمعنى. فللّفظِ معنىً، وله خيالٌ يَضْفو على ٱلمَعْنى كهالةٍ.

فإذا أخذْنا كلمةً ما، مثلَ «بَرْق»، كانَ لها معنىً في ذاتِها، وهو ٱلحادِثُ السَّحابيُّ ٱلخاصُّ، ولها خيالٌ أو هالةٌ تَطيفُ وهو ٱلآنقداحُ ٱللّامحُ ٱلمُعْترِضُ ٱلأُفقَ، والرّامحُ في حَنايا السّحابِ. وإنّ سِرَّ التّعبيرِ ٱلأدبيِّ ليسَ وراءَ هذه ٱلهالةِ أو دونَها.

(١) **شرح التنوير على سقط الزند**، ٦/١، ط مَطْبعة ٱلمعارفِ العلميّة بمِصْر.

من ٱلملحوظِ أنَّ ٱلمعنى الثّابتَ هو تبلورٌ للحادثِ الطّبيعيِّ أو ٱلحيويِّ أو ٱلمعنويِّ في ٱللّفظِ، وٱلاستعمالُ يَسْتوي به، فكيفَ نشعُرُ بالتّفاوتِ التّركيبيِّ بينَ كاتبٍ وآخَرَ؟ وما سرُّ هذا التّفاوت؟

إنّ شعورَنا بهذا التّفاوتِ حقيقيٌّ فيه، وإنّ التّفاوتَ يكادُ يبرُزُ ويتجَسّمُ أحياناً لَيُلْمَسُ، فهو حادثٌ حيٌّ لا يُخامِرُنا فيه شكٌّ، إذاً فما السِّرُّ فيه...؟

نحنُ لا نَرْتابُ في أنّه مستقِرٌّ فوقَ ٱلمعنى الثّابتِ، ومُستوٍ في تجسيمِ هذه ٱلهالاتِ وإبرازِها ناطقةً بٱللّحنِ وٱللّونِ، أو ٱلإيقاعِ والتّناسبِ، ثمّ في إحسانِ التّأليفِ بينَها تأليفاً ينشُرُ على ٱلقِطعةِ هالَتَها ٱلمُحتبكةَ من هالاتِ ٱنسجمَتْ وٱستوَتْ في ساحَةِ ٱلواحد.

ولهذا عَهِدْنا النّقّادَ[٢] يقولونَ لوْ وُضِعَ هذا ٱللّفظُ في مقامِ ٱلآخرِ لكانَ أحسنَ، برُغمِ ترادُفِ ٱللّفظيْنِ في ٱلمعنى، وليسَ هو إلّا لأنّهم مَسوقونَ بهالةِ ٱللّفظِ ٱلّتي تجمَعُ ٱلموسيقى وٱللّونَ ٱلمُؤْتلِفيْنِ في سِياقٍ ما. فٱلعبارةُ ٱلكلاميّةُ تقومُ في معاني ٱلألفاظِ، فهيَ تركيبٌ، وٱلعِبارةُ ٱلأدبيّةُ تَقومُ في هالاتِها فهي أُسلوبٌ.

ومن ٱلخيرِ أن أُحدِّدَ جوَّ ٱللّفظِ أو هالَتَه حسبَ معنايَ به، لِما له من أهمّيّةٍ في ٱلموضوعِ.

أعني بجوِّ ٱللّفظِ: ذلكَ ٱلمُركَّبَ ٱلحاصلَ من طبيعةِ ٱللّفظِ وطبيعةِ ٱلمعنى وطبيعةِ ٱلوَقْعِ ٱلحيِّ، وهي بمجموعِها مُلابَساتٌ ولوازمُ. وٱستعمالُ ٱللّفظِ في معناهُ الثّابتِ تعبيرٌ. وٱستعمالُه في ٱلمعنى الثّابتِ وخيالِه جميعاً أدبٌ. وصَرْفُ ٱللّفظِ عن معناهُ الثّابتِ إلى خيالِه فنٌّ، يشمُلُ ٱلكِنايةَ

(٢) راجع الرّسالةَ ٱلعَذراءَ لٱبنِ ٱلمُدبّر، ط دار ٱلكتب ٱلعربيّة ٱلكُبرى سنة ١٩١٣ بمِصْر، ضِمْنَ مَجموعةِ **رسائل ٱلبلغاء**.

والمجازَ وتمثيلاً ورمزيّةً، أي استعارةً مَكْنِيّةً كما كانوا يُسمّونَها.

والحقيقةُ أو المَعنى الثّابتُ، وُقوفٌ وجُمودٌ وتبلْوُرٌ، أو بتعبيرٍ آخرَ أقربَ لغايةِ المعرّيِّ: انقطاعٌ؛ والمجازُ أو خَيالُ المعنى ضَيْرورةٌ، أو بعبارةٍ أخرى: اتّصالٌ، أيْ نَقْلُ اللّفظِ من نُقطةِ الدّائرةِ إلى مُحيطِها. ولهذا نُلِحُّ في استصحابِ هذا الاعتبارِ مع آثارِ أبي العلاءِ الّذي كانَ أعمقَ من سلَكَ الكِنائيّةَ، وطَوَّعها تَطْويعاً كبيراً.

وأبرزَ ألْوانَ الألفاظِ كما ارتسَمَتْ في حِسِّ نفسِه، فكَثُرَتْ عندَه ألفاظُ الألوانِ. وقد أغرَقَ في السّطحيّةِ والوهْمِ السّاذَجِ مَنْ زعَمَ أنّ كثرةَ ألفاظِ الألوانِ عندَه كانتْ بِقَصْدِ تَحدّي المُبْصِرينَ.

جـ ـ اللّوازمُ البعيدةُ وسيمُرُّ بنا حديثُها في الفُصولِ التّاليةِ.

د ـ إطّلاعٌ واسعٌ على الأُسطورةِ، وبالأخصِّ العربيّةُ منها، فهي، أي الأسطورةُ، العبارةُ الأولى للعقلِ النّاطقِ بالفِطرةِ الخالصةِ، بالحقيقةِ غيرِ المدخولةِ.

هـ ـ تأمُّلٌ دقيقٌ في خصائصِ النّباتِ والحيوانِ الّتي مَنَّ بها دعائمَ كنائيّتِه. وهنا أُثبِتُ مُلاحظةً أطمئِنُّ إليها، وهي أنّ الجاحظَ مَلَكَ المعرّيَّ إلى أبعدِ حدٍّ، ولا سيّما في **الحيوانِ** الّذي يشرَحُ كثيراً من مُبهَماتِ المعرّيِّ، وفي رسائلِه الّتي أدارها على السّخريّةِ الحادّةِ اللّاذِعَة.

و ـ المؤثّراتُ الحيّةُ في الألفاظِ، على مُقْتَضى ما ألْمحنا إليه في فصل: «المعرّيّ يضَعُ أصولَ فلسفةٍ جديدةٍ»، (ص ٢٥)، من أنّ اللُّغةَ في حَقيقَتِها استحالاتٌ لخَلَجاتِ الحيِّ وتَبَعُّثاتِ الذّاتِ، ولذا غَنّى الإنسانُ قبلَ أن لَغا، فألفاظُها إذاً تحمِلُ نبضاتٍ حيّةً مؤثّرةً فاعلةً، وليسَتْ أبداً صُوَرَ إراداتٍ، بل هي إراداتٌ سوّارةٌ غالبةٌ.

ولعلّ هذا مصدرُ تطيُّرِه، وإذا صَحّ ما نقدِّرُ نلمِسُ ٱلفرقَ ٱلجسيمَ بين تطيُّرِهِ ٱلوشيجِ أي تطيُّرِ ٱلكائنِ بكونِه، وتَطَيُّرِ ٱبْنِ الرّوميّ ٱلْمُتَوَهِّمِ ٱلمريضِ.

ز ـ علمُ ٱلحرفِ ٱلمُعَمّى الرّوحانيّ: قد يُستغربُ منّا أن نزعُمَ مثلَ هذه ٱلأسطوريّةِ ٱلحرفيّةِ عندَ ٱلمعرّيّ ٱلمُتَحَلِّلِ من ٱلأوْهامِ وٱلحماقاتِ، ولكنْ إذا تفهَّمْنا رأيَه في ٱللُّغةِ على ما سَبَقَتْ لنا ٱلإشارَةُ إليه، وضمَمْنا إليه ما أُثِرَ من ٱعتمادِ قُدماءِ العربِ على تَحْويلِ ٱلحرفِ إلى عَددٍ وٱلعكسِ، كما فَعَلَ حُيَيُّ بْنُ أخطبَ في: «ألم، ألمص... إلخ» ليعرفَ مدّةَ دوامِ رِسالة النّبيّ(٣)... نجِدُ أنّ هذا الرّأيَ يقودُه حتْماً، وبالضّرورةِ، إلى «سِرِّ ٱلحَرفِ ذي ٱلقيمةِ ٱلعدديّةِ وٱلحسابيّةِ»(٤)، قال:

(٣) سيرة ٱبن هشام ١/٣٣٠، ٣٣١.

(٤) الّذي يَهُمّنا بيانُه منه: أنّ طبائعَ ٱلحُروفِ وأسرارَها ساريةٌ في ٱلأسماءِ ٱلإلهيّةِ، فهي ساريةٌ في ٱلأكوانِ على هذا النّظامِ. وردّوا سِرَّ التّصرُّفِ ٱلّذي في ٱلحُروفِ تارةً إلى التّناسُبِ ٱلعَدديِّ، وتارةً إلى الطّبائعِ، وآونةً إلى ٱلمزاجِ، فتنوّعَتِ ٱلحُروفُ بقانونٍ صِناعيٍّ يُسمّونَهُ التّكسيرَ إلى ناريّةٍ وهوائيّةٍ ومائيّةٍ وترابيّةٍ عَلى حَسَبِ تنوُّعِ ٱلعناصرِ؛ راجِعْ **مقدّمة ٱبن خلدون**. وٱلحُروف النّاريّةُ هي: أ، هـ، ط، م، ف، س، ذ؛ وٱلهوائيّة هي: ب، و، ي، ن، ض، ت، ظ؛ وٱلمائيّة هي: ج، ز، ك، ص، ق، ث، غ؛ والتّرابيّة هي: د، ح، ل، ع، ر، خ، ش. وقُسّمَتْ هذا التّقسيمَ لأنّها مَحمولةٌ على النُّجومِ ذاتِ ٱلخصائصِ ٱلمَذكورةِ، قالَ:

ولقد عُلِّمَ ٱلمُنجِّمُ ما يو
جب، للدّين، أن يكون صَريحا
مِن نجومٍ ناريّةٍ ونُجومٍ
ناسَبَت تُربةً وماءً وريحا (ل١/٣٠٥)

وإنّ للحرفِ جِسماً وروحاً ونَفساً وعَقْلاً وقُوّةً كلّيّةً وقُوّةً طَبيعيةً، فجِسمُه صورتُه، وروُحه ضَربُ عددِهِ في مِثْله، ونفسُهُ ضربُ عددِهِ في ثلاثةٍ، وقلبُه ضربُ عددِهِ في أربعةٍ، وعقلُهُ ضربُ جُملةِ ٱلجِسمِ والنّفسِ والقَلبِ في أربعةٍ، وقُوّتُه ٱلكلّيّةُ ضربُ عقلِهِ في أربعةٍ، وقُوّتُه الطّبيعيّةُ ضربُ قُوّتِه ٱلكُلّيّةِ في مِثْلِها؛ راجِعْ كتاب **سعود المَطالع** للأبياري، ص ١٩٧ ـ ٢٠٤، وأشار إلى هذا في قوله:

يَقولون: مَسْكُ ٱلجَفْرِ أُودِعَ حِكْمَةً
إذا كُتِبتْ أطراسُها مَلأت جَفْرا (ل٢/١٨١)

وٱللّيالي هَوازِىءٌ، راجِعاتٌ
في «أبي جادها»، وفي «هَوّازِ» (ل٣٢٨/٢)

يعني (أبجد، هوّز) إلى آخرِ الأبجديّة.

*

كَمْ غَرَّ صاحبةَ ٱلجَمالِ
مُنَجِّمٌ بِحسابِ جُمَّلْ (ل١٢١/٤)

*

ستَضْرِبُني ٱلحوادثُ في نَظيري
فتَمحَقُني، ولا أزدادُ ضِعفي (ل١٧٧/٣)

*

سَما نَفَرٌ، ضَرْبَ المِئِينَ، ولم أزَلْ
بحمدِك، مثلَ ٱلكسرِ يُضربُ في ٱلكَسْرِ (ل٢١٤/٢)

*

خَبَرَ ٱلحياةَ شُرورَها وسُرورَها
مَنْ عاشَ عِدَّةَ أوَّلِ ٱلمتقارِبِ
وافى بذلكَ أربعينَ، فما لَه
عُذرٌ، إذا أمسى قليلَ تَجارِبِ (ل١٨٢/١)

وإليكَ ممّا قَدْ يؤكِّدُ هذا التّقديرَ في أنّه أخذَ هذا ٱلمأخذَ، قولَه:

تواصَلَ حبلُ النَّسْلِ ما بينَ آدمٍ
وبيني، ولم يُوصَلْ بلامِيَ باءُ

هذا ٱلبيتُ أعجزَ الشّارحينَ؛ فمنْهم من ذهبَ إلى أنّه يَعني الشّخصَ وٱلباءَة بٱللّام وٱلباءِ، ومنهم مَن فَهِمَهُ على ضوءِ الصِّناعةِ ٱللَّفظيّةِ ٱلّتي

شاعَتْ كثيراً في عُصورِ ٱلأدبِ ٱلعبّاسيِّ ٱلمُتَأخِّرِ، فَرَأى معناه: أنّ ٱلحبلَ ٱلخاصَّ به وٱلّذي يصِلُهُ بآدمَ سقطَت باؤهُ فباتَ حَلّاً... إلخ.

أمّا أنا فأجِدُ في هذا ٱلبيتِ إيماءً إلى تعلُّقِه بعلمِ ٱلحرفِ ٱلمذكورِ وإلمامِه به وٱستخدامِه إيّاه. عرفْنا في هذا ٱلعِلم أنّ «حرفَ ٱلحاءِ تُرابيٌّ، وحرفَ ٱلباءِ هوائيٌّ وحرفَ ٱللّامِ تُرابيٌّ»، وهو بهذا يُشيرُ إلى أنّ وُجودَه ٱلفَنائيَّ التُّرابيَّ لم توصَلْ به نَسَمةٌ هوائيَّة، وٱنظُرْ إلى دقّةِ تعبيرِه بكلمةِ «حَبْل» في مجالِ ٱلحَبَل ٱلّذي يَحْوي نَسَمَةً جديدةً، ليُشيرَ به إلى أنَّ النّسلَ هواءٌ بينَ تُرابَيْنِ ونَسَمةٌ بينَ فَناءَيْن قال:

حياةٌ كجِسْرٍ بين مَوْتَيْنِ: أوّلٍ

وثانٍ، وفَقْدُ الشّخصِ، أن يُعْبَرَ ٱلجسرُ (ل٢/١١٢)

ديباجة رسالة الغُفران

أُرجِّحُ، بل أَقْطَعُ، بأنّه لا سبيلَ إلى ٱلمعرّيِّ، ما لم نتقدّمْ بينَ يديْ قراءتِهِ بهذهِ ٱلأسبابِ والسُّبلِ ٱلّتي تأخُذُ بنا إليه، إليه نفسِه.

وٱلآنَ أضَعُ بينَ يدي ٱلقُرّاءِ ديباجةَ **رِسالةِ ٱلغفران** ٱلّتي أظنُّ أنّها تقطَعُ كُلَّ ريبٍ في ٱعتمادِ ما سَبَقْنا به من هذهِ الطّريقةِ، وليسَ الطّريقةَ ٱلمُعْجَمِيّةَ السّاذَجَةَ، بل لا أبالغُ إذا قُلتُ إنّها على طريقتِنا تُعطينا مِفتاحَ لُغْزِه. وهاكَ نصَّها ٱلكاملَ:

أللّهُمَّ يَسِّرْ وأَعِنْ

قد علمَ ٱلحَبْرُ[1] ٱلّذي نُسِبَ إليه جبريلُ، وهو في

(١) الحبر: هكذا وَرَدَ بٱلحاءِ ٱلمهملةِ في النّسخةِ ٱلّتي حقّقَها الشّيخ إبراهيم ٱليازجيّ لمَطْبعة هندية بٱلقاهرة، وأيضاً وَرَدَتْ بٱلحاءِ في كتاب **أوج التّحرّي** للبديعيّ. وهو تَصْحيفٌ صَوابهُ: «ٱلجبر» بٱلجيم، وهو في العربيّةِ وبعضِ السّاميّاتِ يَعْني الرَّجُل، ويقطَعُ كُلّ ريب أو شائبَتهُ قولُ ٱلمَعرّيّ نفسِه في **ٱللزوميّات**:

مَـن جَـبـرئـيـلُ؟ إذا تُـخـوِّفُـهـم
لا إيـلُ، عـنـدَهـم، ولا جَـبـرُ (ل٢/١٦٩)

آلخَيْراتِ سبيلٌ، أنّ في مسكني حَماطَةً[٢] ما كانَتْ قَطُّ أَفانِيَةً[٣]، ولا النّاكِزَةُ[٤] بها غانِيَةٌ، تُثمِرُ من مودّةِ مولايَ الشّيخِ ـ كبَتَ آللّهُ عَدُوَّه، وأدامَ رَواحَه إلى آلفَضْلِ وغُدُوَّه ـ ما لو حمَلَتْهُ آلعادِيَةُ[٥] من الشّجرِ لَدَنَتْ إلى آلأَرْضِ غُصونُها، وأُزيلَ[٦] من تلكَ الثَّمرةِ مَصونُها.

وآلحَماطةُ ضَرْبٌ من الشّجرِ، يُقالُ لها إذا كانَتْ رَطْبةً: أفانِيَة، فإذا يَبِسَتْ فهي حَماطةٌ، قال الشّاعرُ:

إذا أُمُّ الوُلَيِّدِ لم تُطِعْني
حَنَوْتُ لها يدي بعَصا حَماطِ
وقُلتُ لها: عليكِ بني أُقَيْشٍ
فإنَّك غيرُ مُعجبةِ الشَّطاطِ

وتوصَفُ آلحَماطةُ بإلْفِ آلحَيّاتِ لها، قال:

أُتيحَ لها، وكانَ أخا عِيالٍ
شُجاعٌ في آلحَماطةِ مُستكِنُّ
وإنّ آلحَماطةَ آلّتي في مَقَرّي لتَجِدُ من الشّوقِ

(٢) الحَماطَةُ هي ذاتُ معانٍ آستطردَ آلمعرّيّ بذكرِ بعضِها منها: شجرةٌ اضطربَ آللُّغويّونَ في تَعْيينها، وقَطَع آبن سِيدَه بأنّها التّينةُ آلجبليّةُ، ومنها: حبّةُ آلقلب.

(٣) أفانية: رَطبة لم تَيبس، أو فاسدَة، وأيضاً: الرّطب من شَجَرِ آلحَماط.

(٤) الناكزة: آللّاسبة، الطاعنة آلواخِزَة؛ غانية: حالية بأسْبابِ اللّسب والوخز، وأخطأ من فَهِمَها بمعنى آلمُقيمة.

(٥) العادية: آلقَديمة، وأصلُها النّسبة إلى قبيلةِ عادٍ آلبائدةِ، فعمّتْ لتدُلّ عَلى كلِّ قديمٍ داهرٍ، ولذا أطلقَ آلمُحدثونَ آليومَ على عِلم آلآثارِ، (الأركيولوجي)، علم آلعاديات.

(٦) أزيل، أذيل: هكذا في نُسخٍ مختلفةٍ، وهُما من حيثُ الدّلالةُ مُتقاربانِ، فذاتُ الزّاي بالتّطقِ من آلمزيدِ تَعْني التّنحيةَ، وذاتُ الذّالِ تَعْني آلآبتذالَ وسُهولَة التّناولِ، وأرى أنّها بالزّاي هي الأقومُ.

حَماطةً، ليسَتْ بالمُصادفةِ إماطةً. والحماطةُ حُرقةُ القلبِ، قال الشّاعر:

وهَمٍّ تُملأُ الأحشاءُ منه

... ...»[٧]

فأمّا الحَماطةُ المَبدوءُ بها فهيَ حبّةُ القلبِ، قالَ الشّاعرُ:

رمَتْ حَماطةَ قلبٍ غيرِ مُنصرِفٍ
عنها، بأسْهُمِ لَحْظٍ لم تكُن غَرَبا

*

وإنّ في طِمْريّ[٨] لَحَضْباً[٩] وُكِلَ بأَذاتي، لو نطَق لذَكَرَ شَذاتي[١٠] ـ ما هو بساكنٍ في الشِّقابِ[١١] ولا بمُتشرّفٍ على النِّقابِ[١٢]، ما ظهرَ في شتاءٍ ولا صيفٍ، ولا مَرَّ بجبلٍ ولا خَيْفٍ[١٣] ـ يُضْمِرُ من محبَّةِ مولايَ الشّيخِ الجليلِ، ثبّتَ اللّهُ أركانَ العِلمِ بحياتِه، ما لا تضمرُهُ للولدِ أُمٌّ، أكانَ سُمُّها يُذَكَّرُ أَمْ فُقِدَ عندَها

(٧) هكذا وَرَدَ في النُّسخ المَحفوظةِ: ساقط العَجُز الّذي هو محلُّ الشّاهد.

(٨) الطِّمر: الثّوبُ الخَلَقُ البالي الرّثّ.

(٩) الحَضب: هو ذو معانٍ استطردَ المعرّيُّ بذكرِ بعضِها منها: الحيّة أو ذَكَرُه الضّخمُ إلخ، أنظر أمّهات المعاجم.

(١٠) الشّذاة: ذاتُ معانٍ منها الشّرّ، الشِّدّةُ أو بقيّتُها، واسم ذُبابِ الدّوابِّ الّذي يَقَعُ عليها فيؤذيها، إلخ.

(١١) الشّقاب: جمع شَقْب وهو مَهواة أو صَدْعٌ بين جَبَلَيْن.

(١٢) النّقاب: جمع نقب وهو مَسلكٌ ضيّقٌ في الجَبَل.

(١٣) الخيف: المُنحَدَر المختلِفُ ألوانِ الحَصى.

السُّمُّ. وليسَ هذا ٱلحَضْبُ مُجانِساً للّذي عَناهُ الرّاجزُ في قوله:(١٤)

وقدْ تَطوَّيتُ ٱنطواءَ ٱلحَضْبِ

... ...»

وقد عُلِمَ ـ أَدامَ ٱللّهُ جمَالَ ٱلبراعةِ بسلامتِه ـ أنّ ٱلحَضْبَ ضَرْبٌ من ٱلحَيّاتِ، وأنّه يُقالُ لحَبّة ٱلقلبِ حَضْبٌ.

*

وإنّ في منزلي لأَسْودَ ـ هو أعزُّ عليَّ من عنترةَ(١٥) على زَبيبَةَ، وأكرمُ عِندي من السُّلَيْكِ(١٦) عندَ السُّلَكَةِ، وأَحقُّ بإيثاري من خُفافِ السُّلَميّ(١٧) بخَبايا نَدْبَةَ ـ وهو أبداً مَحجوبٌ، لا تُجابُ عنه ٱلأغطيةُ ولا يجوبُ، لو قَدَرَ لَسافَرَ إلى أنْ يَلقاه، ولمْ يَحِدْ عن ذلكَ لِشَقاءٍ يَشْقاه. وإنّه إذْ يُذكَرُ، لَيُؤَنَّثُ في ٱلمنطق ويُذكَّرُ، وما يُعلَم أنّه حقيقيُّ التّذكيرِ، ولا تَأنيثُهُ ٱلمعتمَدُ بنَكيرٍ. لا أفتأُ دائباً فما رَضِيَ، على أنّه لا مَدْفَعَ لما قُضِيَ.

(١٤) الراجزُ هو رؤبةُ بْنُ العَجّاجِ، وكاملُ ٱلبيت:

وقدْ تَطَوَّيْتُ ٱنطواءَ ٱلحَضْبِ
بينَ قَتادٍ ردهةٍ، وشَقْبِ

(١٥) عنترة ٱلعبسيّ: الشّاعرُ ٱلفارسُ ٱلمسوَدُّ ٱللّون؛ زبيبة: ٱسمُ أمّه وهي سوداء ٱللّون.

(١٦) السّليك السّعديّ: شاعرٌ من الأعرابِ؛ السُّلَكَة: ٱسمُ أمّه وكانَتْ فاحمةَ ٱللّون.

(١٧) خفاف السّلميّ: شاعرٌ من الأعرابِ؛ ندبة: ٱسمُ أمّه وكانَتْ حالكةَ ٱللّونِ.

أُعظِمُهُ أكثرَ من إعظامِ لَخْمِ ٱلأَسودَ بْنَ ٱلمنذرِ[١٨]، وكِندَةَ ٱلأسودَ بْنَ مَعَد يكرب[١٩]، وبني نهشلِ بنِ دارمٍ ٱلأسودَ بْنَ يعفُرَ[٢٠] ذا ٱلمقالِ ٱلمُطْرِبِ. ولا يَبْرَحُ مُولَعاً بذكرِه كإيلاعِ سُحَيْمٍ بعُمَيْرةَ[٢١] في مَحضَرِه ومَبداه، ونصيبٍ[٢٢] مولى أُمَيَّةَ بسُعْدَاه.

وقد كانَ مِثلُه معَ ٱلأسودِ بْنِ زمعةَ[٢٣]، وٱلأسودِ بْنِ عبدِ يَغوث[٢٤]، وٱلأسْوَدَين[٢٥] ٱللّذين ذكَرَهُما ٱليشكريُّ في قولِه:

فهداهُم بالأسوَديْنِ وأَمْرُ ٱللّهِ بَلْغٌ يَشقَى به ٱلأشقياءُ.

ومعَ أَسْوَدانَ ٱلّذي هو نَبهانُ بنُ عمرو بنِ ٱلغوثِ بنِ طَيِّىءٍ، ومعَ أبي الأسودِ ٱلّذي ذكَرَهُ ٱمرؤُ القيسِ في قولِه:

(١٨) الأسود ٱللّخميّ: من ملوك ٱلحِيرَة.

(١٩) الأسود ٱلكِنديّ: من أشرافِ كِندة.

(٢٠) الأسود النّهشليّ: شاعرٌ جاهليٌّ متقدِّمٌ، مقلٌّ لكنّه مُجيدٌ ولا سيَّما في مطوّلتِه الدّاليّة.

(٢١) سُحيم: عبدٌ حبشيٌّ كانَ حبشيّاً؛ عُميرة: حبيبتُه ٱلّتي شَبَّبَ بها كَثيراً.

(٢٢) نُصيب بن رباح: شاعرٌ أمويٌّ أسودُ ٱللّون؛ سعدى: ٱسمُ ٱلّتي ٱشتُهر بحُبّها.

(٢٣) الأسودُ بن زمعة: قرشيٌّ قُتِلَ بَنوه يومَ بدرٍ مع ٱلمُشركينَ، فأسيَ كَثيراً وأراد بُكاءَهم ولكنّ زُعماءَ قريشٍ حَرّموا ٱلبُكاءَ، فتفجَّعَ وكَرَبَهُ ٱلخَطْبُ وٱلْتاعَ تَحرُّقاً لبُكائهم.

(٢٤) الأسودُ بن عبدِ يَغوث: يُظَنُّ لاَضطرابِ الرّواياتِ أنّه مع سابقه شخصٌ واحدٌ، والتّصحيف جَرَّ إلى عَدِّهما شخصَيْنِ.

(٢٥) إختلَفَ شُرّاحُ ٱلمُعلّقاتِ فيهما وفي مَعْناهما، وفي الرّوايةِ أيضاً فتارةً: فغزاهُم، وتارةً: تَشْقى به.

وذلـكَ مـن خـبـرٍ جـاءَنـي
ونُـبِّـئْـتُـهُ عـن أبـي ٱلأسـودِ[٢٦]

وما فارقَهُ أبو ٱلأسودِ الدُّؤَليُّ[٢٧] في عمرِه طَرْفةَ عَينٍ، في حالِ الرّاحةِ ولا ٱلأَيْنِ. وقارَنَ سُوَيدَ بْنَ أبي كاهلٍ[٢٨]، يرُدُّ به على ٱلمناهلِ. وحَالفَ سُويدَ بنَ الصّامتِ[٢٩]، ما بينَ ٱلمُبْتَهِجِ والشّامتِ. وساعَفَ سُويدَ ٱبْنَ صُمَيع[٣٠]، في أيّام الرّتَبِ[٣١] والرَّيعِ، وسويدُ هذا ٱلّذي يقولُ:

إذا طَلَبوا منّي ٱليَمينَ مَنَحْتُهمُ
يَميناً كَبُرْدِ ٱلأَتحَمِيِّ ٱلمُمَزَّقِ[٣٢]

وإنْ أحلَفوني بالطّلاقِ، أَتَيْتُها
على خيرِ ما كُنّا، ولم نَتَفَرَّقِ

وإن أحلَفوني بٱلعَتَاقِ، فقدْ دَرى
عُبَيْدٌ غُلامي، أنّه غيرُ مُعْتَقِ

(٢٦) أبو ٱلأسْوَد: هو ٱلّذي نَقَلَ إلى آمرىء ٱلقيس نَبأَ مصرع أبيه.
(٢٧) أبو ٱلأسودِ الدُّؤليّ: ظالمُ بنُ عَمرٍو واضعُ عِلمِ النّحوِ في أشْهَرِ ٱلأقوال.
(٢٨) سُوَيد بْن أبي كاهِلٍ: شاعرٌ متقدّمٌ من بَني يَشْكر.
(٢٩) سُوَيد بْن الصّامت: شاعرٌ من الأوسِ قتلَه ٱلخَزْرَجُ حاجّاً أو معتمِراً، وكان مقدَّماً في الرّأي وٱلكَلمة.
(٣٠) سويدُ بن صميع ٱلمرثديّ: شاعرٌ من بَني ٱلحارِث.
(٣١) الرّتب: ضِيقُ ٱلعَيْشِ وشِدّتُه.
(٣٢) الأتحميّ: هو هنا نِسبةٌ إلى ٱلأتحم: ٱلأدهمُ ٱلمِشواد، وليس كما توهّموا أنه ٱلبُردُ ٱلمُخطَّطُ بالصُّفرةِ، ولو أرادَهُ الشّاعرُ لَحَذَفَ أداةَ التّعريفِ وقالَ: كبُرْدِ أتْحَمِيٍّ ممزَّقِ.

وكان يَأْلَفُ فِراشَ سَوْدَة بنتِ زمعةَ بنِ قيسٍ[٣٣] آمرأةِ النَّبيِّ صلّى آللّهُ عليهِ وسلّم، ويعرِفُ مكانَه الرّسولُ، ولا يَنحرِفُ عنه السُّولُ[٣٤]. ودخلَ آلجَدَثَ مع سَوادةَ آبْنِ عديّ[٣٥]، وما ذلك بزَوْلٍ[٣٦] بَدِيّ.

وحَضَرَ في نادٍ حضَرهُ آلأسودانِ آللّذانِ هما آلهَنَمُ[٣٧] وآلماءُ، وآلحَرَّةُ آلغابرةُ والظَّلماءُ. وإنّه ليَنْفِرُ عن آلأَبيضينِ[٣٨]، إذا كانا في الرَّهَجِ[٣٩] مُعَرَّضينِ، آلأبيضانِ آللّذانِ ينفِرُ منهُما: سيفانِ أو سيفٌ وسِنانٌ. ويَصبِرُ عليهِما إذا وجدَهما، قالَ الرّاجزُ:

الأَبيضانِ أَبْردا عِظامي

الماءُ وآلفَتُّ بِلا إدامِ[٤٠]

ويرتاحُ إليهما في قولِ آلآخَر:

(٣٣) سودة بنت زَمعة: قرشيّةٌ عامريّةٌ. أُولى زوجاتِ النّبيّ بعدَ وفاةِ السّيّدةِ خَديجةَ.

(٣٤) السّول: مُخَفَّفُ السُّؤل بمَعْنى المتمنّى المُشْتَهى.

(٣٥) سوادة بن عديّ: إبن زيدٍ آلعباديّ، إليه يُنْسَبُ عندَ بعضِ الرُّواة قولُ:

لا أرى آلمَوْتَ، يسبِقُ آلموتَ شيءٌ

نَغّصَ آلموتُ ذا آلغِنى وآلفَقيرا

(٣٦) زول: عَجَب، شَخْص.

(٣٧) الهنم: التّمر.

(٣٨) الأَبْيَضان: عَرَضَ لذِكْرِهما لأنّ الضِّدّ أقربُ خُطوراً في آلبال.

(٣٩) الرّهَجَ: آلغُبار وهو هنا كِنايةٌ عن آلحَرْب.

(٤٠) الفَتّ: يُروى أيضاً بالثاء أي آلفثّ وهما مُترادِفان على معنىً واحدٍ.

ولكنّه يَمْضي ليَ ٱلحَوْلُ كُلُّه
وما ليَ إلّا الأَبيضينِ شَرابُ[٤١]

فأمّا ٱلأَبيضانِ ٱللّذانِ هما شحمٌ وشبابٌ، فإنّما تَفرَحُ بهما الرَّبابُ[٤٢]، وقد يُبتَهجُ بهما عندَ غَيْري، فأمّا أنا فَيَئِسا من خَيري.

وكذلك ٱلأحامرةُ، وٱلأَحمرانِ[٤٣]، فإنّه يعجَبُ لهما أسودُ رانِ[٤٤]، فيتبَعُه حَليفُ سِتْرٍ، فأنزَلَ به حادثُ هِتْرٍ[٤٥]...

الديباجة على طريقتهم

المعنى ٱللُّغويُّ الظّاهرُ في هذه ٱلقطعةِ لا ٱئتلافَ فيه ولا ٱرتباطَ، ممّا تقرُبُ معه أن تكونَ مثلَ خواطرِ ممرورٍ مُمَخْرِقٍ، وٱسمَعْه كيفَ يقولُ:

عَلِمَ ٱلجبرُ ـ الّذي نُسِبَ إليه ما لا نَدْري ما هو هنا، ويُسمّيهِ جبريلَ ـ أنّ في منزلي تينةً أو شجرةً جبليّةً تُشبهُها، ما كانتْ قطُّ رطبةً ولا النّاهشةُ بها مُستغنيةً، تُثْمِر من موَدّةِ الشيخِ إثماراً لو حَمَلَتْ مثلَه الشّجرةُ

(٤١) ٱلأبيضيْنِ: مِن ٱلمُثنّيات ذَواتِ الدّلالاتِ ٱلمُختلفاتِ، وٱلمَقْصودُ هنا: ٱلماءُ والرّطبُ، وٱلبيتُ لهُذيلِ بنِ عَبدِ ٱللّهِ ٱلأشجعيّ.

(٤٢) الرّباب: تعني هنا الشابّة لأوّل عَهْدِها وعُنْفُوانها.

(٤٣) الأحمران: ٱللّحم وٱلخمر.

(٤٤) أسود ران: مُركّبٌ إضافيٌّ من مَوْصوفٍ وما هو في قُوّةِ الصِّفةِ، وتَحليلُ ٱلمُركّبِ ٱلمذكورِ: أسودُ أي حبّةُ ٱلقلبِ وجوهرُه، وران: مُرادفٌ للرّين وهو ما يتغشّى ٱلفُؤادَ من دَنَسِ نزوةٍ وصدأ طبعٍ، وٱلمعنى يعجبُ لهما قلبُ دَنسٍ، وأخطأَ شَنيعاً من تَوَهُّمَ أن ٱلأسودَ هُنا يَعْني سَوادَ ٱلحَدقةِ، وران بمَعْنى الرّاني النّاظِرِ، إذ لا مَعْنى له في هذا ٱلمَقام.

(٤٥) الهتر: بكَسْرِ الأوّلِ الدّاهيةُ، وبالضّمّ ذَهابُ ٱلعقلِ من مَرضٍ أو شَيخوخَة.

ٱلعادِيةُ ـ نسبةً إلى ٱلعادةِ أو إلى عادٍ ٱلقبيلةِ الدَّهريّةِ ـ لأُثقلَتْ وتراخَتْ غُصونُها إلى ٱلأرضِ.

وهُنا يستَطرِدُ فيشرَحُ «ٱلحَماطَةَ» بأنّها ضرْبٌ من الشّجرِ وأنّ ٱلحيّاتِ تألَفُها، وينقطعُ به ٱلاستطرادُ ليعودَ فيقولَ: إنّ ٱلّتي في منزِله تَجِدُ من الشّوقِ حُرْقةً لا تُماطُ، كما يَسْتَطْرِدُ أيضاً فيشرَحُ ٱلحَماطةَ بأنّها حُرقةُ ٱلقلبِ مرّةً وحبّةُ ٱلقلبِ مرّةً أُخرى.

وما هو حتّى ينتقِلَ قائلاً: إنّ بينَ ثوبيهِ ٱلخَلِقَينِ حَضْباً، أيْ حيّةً، وُكِلَ بأذاتهِ ولو نطَقَ لذَكَرَ شُرورَه ومَعايبَه، وحَيَّتُه لم تسكُنْ أبداً في صُدوعِ ٱلجبالِ، ولم تُشرِفْ من النُّقوب، ولم تَظهَرْ في شِتاءٍ ولا صيفٍ وما مَرَّت في جبلٍ ولا خِيفٍ وسفْحٍ. وحَضْبُه يُضمِرُ من محبّةِ الشّيخِ ما لا تضمِرُه أُمٌّ لولدِها أكانَ عندَها سُمٌّ يُذكَرُ أمْ فُقِدَ سُمُّها، وليسَ حَضْبُه من جنسِ الحيّاتِ. فقد عَلِم الشَّيخُ أنّ ٱلحَضْبَ يُطلَقُ على ضربٍ من ٱلحيّاتِ تارةً، وتارةً على حبّةِ ٱلقلب.

وينتَقِلُ مرّةً ثالثةً فيقولُ: إنّ في منزِله أسوْدَ أيْ أُفْعوانَ، هو عزيزٌ عليه جدّاً وهو محجوبٌ أبداً لا تُكْشَفُ عنه ٱلأغطيةُ وٱلأستارُ. ولو قَدرَ لسافَرَ إلى لقاءِ الشّيخِ ولم يُقعِدْه شَقاءُ النّصَبِ وإرهاقُ الأَيْنِ والتّعبِ.

وٱلمعرّيُّ لا يفتأُ جاهِداً فيما يرضاهُ، ولا دافِعَ لِما قَدْ قُضِيَ وقُدِرَ عليه، وهو أيضاً يُعظّمُهُ إعظاماً كبيراً، على أنّ أُفعُوانَه مولَعٌ بذِكْرِ الشّيخِ وُلوعَ ٱلهُيامِ.

ومثلُ هذا ٱلأفعوانِ كانَ مع ٱلأسودِ بنِ زمعةَ، وأبي ٱلأسودِ الدّؤليّ، وكانَ يألَفُ فِراشَ سودةَ بنتِ زمعةَ زوجِ النّبيِّ ويعرِفُ الرّسولُ مكانَه ولم تنحَرِفْ أُمنيّةُ سودةَ عنهُ بل كانَ أقصى مُشتهاها.

وهذا ٱلأُفعوانُ يحضَرُ مع ٱلأسودينِ أي التَّمرِ وٱلماءِ، ومعَ ٱلأسودينِ أيْ موضعِ ٱلحَرَّةِ وٱلظّلماءِ. وينفُرُ عن ٱلأبيضينِ أي السَّيفِ وٱلرُّمحِ إذا أُصْلِتا في ٱلحربِ، ويصبِرُ على ٱلأبيضينِ أي ٱلماءِ وٱلفَتِّ، ويرتاحُ إلى ٱلأبيضينِ أي التّمرِ وٱلماءِ. وأمّا ٱلأبيضانِ، أي الشّحمُ والشّبابُ، فتفرَحُ بهما ٱلغَزِلَة من النِّساءِ، ويبتهجُ بهما غيرُه من ذَوي التّصابي.

وأمّا ٱلأحامِرةُ وٱلأحمرانِ، أي ٱللّحمُ وٱلخمرُ، فإنّما يعجَبُ لهما أسودُ ران، أيْ مَنْ صدِيءَ قلبُه ودنِسَ طبعُه، ويتبَعُه ذو هَوىً غيرُ مُجاهِرٍ، لم تنزِلْ بساحتِه ٱلأقدارُ، ولم تَغْزُهُ غازيةُ ٱلقَضاء...

هي قطعةٌ تَبْدو في حرفيّةِ ٱلمُعْجَمِ طائفةَ خواطرَ مريضةٍ من مُحَمَّقٍ، ووحدَتُها هذا ٱلمُشتركُ ٱللّفظيُّ ٱلّذي، بتداعيه، تَتَداعى ٱلمعاني ٱلمُتَنافرةُ وٱلّتي تظَلُّ متنافرةً أيضاً. وإلّا فما هو جبريلُ هُنا؟ وما هي تلكَ ٱلحَماطَةُ وذلكَ ٱلحضْبُ وذيّاك ٱلأسْوَدُ ٱلعزيزُ عليه ٱلعظيمُ عندَه؟

إذاً فحرفيّةُ ٱلمُعْجَمِ لا تضمَنُ لنا سبيلَ ٱلوُصولِ إليه أبداً، بلْ على ٱلعكسِ تُضِلُّنا وتُقدِّمُ لنا منه رجلاً مَأْفوناً تمدُّهُ الرّعونةُ ٱلحُوشِيّةُ ٱللُّغويّةُ بخواطرَ شاردةٍ حمقاءَ ليسَ فيها شائبةُ ٱتّساقٍ. وإنّما سبيلُنا إليه ليسَ شيئاً وراءَ ما ألمحْنا به ودَلَلْنا عليه من مَنهجٍ...

الديباجة على طريقتنا

ولْنأخُذِ ٱلقطعةَ على طَريقتِنا، لِنرى كيفَ تشتمِلُ على كُنْهِه وتُعرِّفُنا بحقيقتِه ٱلخافيةِ ٱلّتي تقلّبَتْ في ثلاثِ مراحلَ:

١) مرحلةِ كونِه مِثْلَ ٱلحَماطةِ،

٢) مرحلةِ كونِه مِثْلَ ٱلحَضْبِ،

٣) مرحلةِ كونِه مِثْلَ ٱلأسْوَدِ.

ولكنْ، قبلَ ٱلأخذِ بتحليلِها نُنَبِّهُ على جملةِ ملاحظاتٍ:

أوّلاً ـ الكنائيّةُ ٱلّتي أشرْنا إليها.

ثانياً ـ التّلاعُبُ ٱلمُتَعَمَّدُ ٱلمَقْصودُ، ألسْتَ تلمِسُ هذا التّلاعُبَ قصْدَ ٱلإغفالِ وٱلعَبَثِ السّاخرِ في قولِهِ: «أعزّ عليَّ من عنترةَ على زبيبةَ» إلى كَثيرٍ كَثيرٍ منها.

ثالثاً ـ مقامُ ٱلمُشترَكِ الثّابتِ في أُسلوبِه، ونَرى ضَروريّاً التّلميحَ هنا إلى مَعنى ٱلمُشْتَرَكِ ومكانِه في ٱلمعرفةِ عندَه على ما نُقَدِّر.

المُشترَكُ ٱللّفظيُّ مثلُ «حَماطَة»، «حَضْب»، هو مركزُ معانٍ شتّى أو ٱنبثاقاتِ شتّى، وإلْفُ حيواتٍ مُختلفاتٍ وَيَنْبوعٌ تَتَشَعَّعُ وتتوزّعُ منهُ روافدُ تذهَبُ هُنا وهُناك. وٱلمُشْتَرَكُ في ٱللُّغةِ مثلُ ٱلإنسانِ في ٱلأحياءِ، أي مُعَقّدٌ تَعقُّدَ ٱلإنسانِ بما فيه من نَزَعاتٍ إذا ٱلتَفَّتْ وٱلتَوَتْ على بعضِها حقّتِ ٱلمُعْضِلةُ، مثلَما ينعقِدُ ٱلمُشْتَرَكُ إذا لم تُضَفْ إليه ٱلقرينةُ، قال:

أَسْنَيْتُ مِن مَرِّ السِّنينَ ولَمْ أُرِدْ
أَسنَيْتُ من ضوءِ السَّنا ٱلبَهّارِ (ل٢/٢٧٣)

وفَوائدُ ٱلأسفارِ جمعُ السَّفْر في الدُّنـ
ـيا تَفوقُ فوائدَ ٱلأسفارِ (ل٢/٢٨١)

وٱلمُشْتَرَكُ ٱللَّفظيُّ من وجهٍ آخرَ سُلَّمُ التّأمُّلِ التّجريديِّ، وسبيلُ التّداعي ٱللَّفظيِّ وٱلمعنويِّ، من جهةِ أنّه يُشبِه كُوًى تُطِلُّ على عوالِمَ معنويّةٍ شتّى.

رابعاً ـ الدّقّةُ في خصائصِ النّباتِ وٱلحيوانِ وٱلأشخاصِ التّاريخيّينَ، هذه ٱلخصائصِ ٱلّتي يتّخِذُ ٱلمعرّيُّ منها مادّةً للكِناية.

خامساً ـ وحدةُ ٱلقِطْعةِ ٱلقائمةُ في ٱلأساوِدَةِ وألوانِ ٱلألفاظِ ٱلمُفعَمَةِ بٱلسّوادِ ٱلمُتّشِحةِ بٱلأرْزاءِ...

وبُمصاحبةِ هذه ٱلمُلاحظاتِ، ننتقِلُ إلى درسِ ٱلقِطْعةِ وتَحليلِ مراميها ومقاصِدِها، ونبدأُ، قبلَ كلِّ شيءٍ، بِشَرْحِ ٱلمُفْرَداتِ الرّامزةِ:

□ **جبْر**: له في ٱللُّغةِ وجوهٌ من ٱلمعاني، بينَ ٱلمَصْدريّةِ وٱلوَصْفيّةِ وٱلٱسميّةِ، منها: ٱلقهرُ، السّيطرةُ ٱلمُستبدَّةُ، إصلاحُ ما ٱنكَسَرَ، الشُّجاعُ، ٱلمَلِكُ، الرَّجُلُ، ٱلغُلام... إلخ. وٱلمقصودُ هنا: الرَّجُلُ ٱلغُلامُ، وٱختارَها ٱلمعرّيُّ لمراسِلِه قاصِداً، لتضمُّنِها مَعْنى ٱلمُتَسَلِّط السّاذج.

□ **جبريل**: معناهُ الظّاهرُ: الرَّجُلُ الرّبّانيُّ أو ٱلإلهيُّ، فإنّ «إيل» في السّاميّاتِ عامّةً، وفي ٱلعربيّةِ، ولكن بلفظ «إلّ»، تَعْني ٱللّه، ويُضيفُها أربابُ ٱلإشراقيّاتِ[٤٦] لإفادةِ هذا ٱلمعنى، وإذا قُرِنَتْ إلى ما هو بشريٌّ كانَتْ كنايةً عن ٱلمُتَحكِّمِ السّادرِ مع هواهُ فيما هو إلهيّ.

وٱنظُرْ كيفَ هو تَمثيلٌ لحَقيقةِ عليِّ بْنِ منصورٍ ٱلّذي كان يتصرَّفُ بٱلمغفرةِ على هواهُ في رسالتِه إلى ٱلمعرّيّ، وعلى هذه النفسيّةِ أجرى أبو ٱلعلاءِ **رسالةَ الغفران**، فهي إذاً، مَلْهاةٌ إلهيّةٌ على ما يُفكِّر ويتَخيَّلُ ٱلأغرارُ.

□ **مسكني**: من السّكَن أو السُّكون، وٱلمقصودُ الثّاني على ما سيتبيّنُ لنا من فهْمِه ٱلخاصِّ للسُّكونِ ٱلّذي هو عدمُ ٱلحركةِ نُطقاً، وفي ٱلوقتِ نفسِهِ حالٌ إعرابيّةٌ مُعبِّرةٌ دالّةٌ، فهو، بهذا ٱلاعتبارِ عَدَمٌ حَيٌّ إذا صَحَّ هذا التّعبيرُ. فٱلمَسْكِنُ هنا مَكانُ ٱلحياةِ ٱلعديمةِ ٱلّتي لا علائِقَ لها بٱلبهيميّاتِ وٱلأهواءِ والنَّزواتِ.

(٤٦) راجِعْ كتاب **سعود المطالع** للأيّاري، سبقَ ٱلٱستشهاد.

□ **حَماطة**: هي في ٱللُّغةِ ذاتُ معانٍ مُتَعَدّدةٍ عَرَضَ لها ٱلمعرّيُّ، ولكنّها هنا فيما أُرجِّحُ تعني ٱلتّينةَ الجبليّةَ[٤٧] ـ على ما قطَعَ به بعضُ ٱللُّغويّينَ، ولثمرِها ألوانٌ، وأُقدِّرُ أنّ ٱلمعرّيَّ ٱختارَ لونَ السّوادِ لأنّه رابطةُ ٱلقِطْعَةِ ـ لاحِظْ ما فيها من ٱنقطاعٍ وٱعتزالٍ وتوحُّدٍ في رابيةٍ، حتّى لكأنّها تَصِفُه تماماً ممّا يَحْمِلُني على تقديرِ أنّها ترمُزُ إليه ذَاتِه.

□ **الحَيّات**: أرسَلَها كنايةً عن ٱلغرائزِ والطّبائعِ ٱلقابعةِ في ذاتِ نفسِه.

□ **مَقَرّي**: من ٱلٱستقرارِ في ٱلمكانِ أو في قرارةِ النّفسِ أو ٱلقرارِ النّغميِّ، ونظنُّهُ من هذا ٱلأخيرِ، أيْ مكانِ ٱللَّحنِ ٱلهامسِ ٱلمُتَفاني ذي ٱلأصداءِ ٱلمُتماديةِ في ٱلأعماقِ.

□ **طِمْرِيّ**: الطِّمْرُ في ٱللُّغةِ الثّوبُ ٱلخَلَقُ، ولكنّ ٱلمُلاحظَ فيه هنا مَعنى ٱلخَبْءِ وٱلاعتزالِ، وهو كنايةٌ عن ٱلمَحْبَسَيْنِ.

□ **الشّيخ**: في ٱللُّغةِ من بَلَغَ ٱلأربعينَ، وٱلمُرادُ هنا الشّائخُ ٱلفِكْر.

□ **حَضْب**: في ٱللُّغة بمعاني ذَكَرِ ٱلحيّةِ الضّخمِ، وحبّةِ ٱلقلبِ، وصوتِ وَتَرِ ٱلقَوْسِ، ولكنّ ٱلمُلاحظَ هنا حَضْبُ النّارِ أي إيقادُها، كنايةً عن أُوارِ الرّيبِ ٱلمُسْتَعِرِ.

□ **يذّكر**: في ٱللُّغةِ من التّذكُّرِ، وٱلمُلاحَظُ هنا الذِّكْر لعبةٌ للزُّنجِ وٱلحَبَشِ، ويشهَدُ لما نُقدِّرُ قولُه:

(٤٧) اللّغويّون ٱختَلَفوا كَثيراً في مَعْناها النّباتيّ عَلى التّعيينِ، ولذا مِلْتُ إلى ما ذَهَبَ إليه ٱبنُ سِيدَه والزّمخشريّ ومثلُهما لٱعتبارَيْن: أ) التّحديدُ عندَهما تَعْييناً؛ ب) أنّ التّينَ يرمُزُ عندَ ٱلباطنيّينَ إلى الدّينِ، لأنّ التّاء تُساوي في حِسابِ ٱلجُمَّل أربعمائة، ومَعروفٌ عندَهم أنّ حُروفَ ٱلعشراتِ وٱلمئاتِ تُردُّ إلى حُروفِ الآحادِ فتُساوي حَرْفَ الدّال.

نَـهـارٌ كَـذي ٱلـلُـبِّ ٱلـعـديـمِ، ولـيـلـةٌ
كإحدى بناتِ الزُّنْجِ، يلعَبْنَ بالذِّكرِ (ل٢/٢١٦)

□ **سُمّها**: السُّمُّ في ٱللُّغةِ بمعاني الثَّقْبِ، وٱلمادّةِ ٱلمُميتةِ وكُلِّ شيءٍ كٱلوَدَعِ يخرُجُ من ٱلبحرِ، وٱلمقصودُ هنا ٱلوَدَعُ، وكأنّه يقولُ: أكانَتْ أمُّ ٱلولدِ هذه حاليةً بٱلوَدَعِ ٱللّاعبِ في جِيْدِها أمْ عاطلةً منه. وتأمّلْ تعبيرَه بكلمةِ: يَذّكر ٱلمُشتبه بٱلآذدكار، وهو سخرٌ بالغٌ.

□ **الأسْوَد**: في ٱللُّغة حبّةُ ٱلقلبِ، وٱلأُفعوانُ وهو يَحْقِدُ[٤٨] ويصبِرُ على الطّعامِ والشّرابِ طويلاً، وينجَحِرُ إلّا قليلاً وهو يسلُخُ جِلْدَه كلَّ عامٍ. وٱلمعنى ٱلمقصودُ هنا ٱلعزلةُ الزّاهدةُ أو ٱلمُلتاعةُ أو التّوحُّدُ ٱلمُتَوَجِّعُ بأوهامِ النّاسِ ومُغْرَياتِهم، قال:

طَـفَـوْنـا وَنـرْسـو ٱلآنَ، لا سُـرَّ أسْـوَدي
بمُلْكِ ٱلبرايا، ما ٱلعراقُ وما النَّرسُ (ل٣/٨)

ويرمُزُ به أنّ التَّسوُّدَ، أي تَجَوْهُرَ ٱلبشريِّ بٱلعقلِ ٱلكُلِّيِّ، يبدأُ بٱلجُحودِ ٱلمُطْلقِ لكُلِّ ما يُعَدُّ واقعاً فِكرِيّاً.

□ **الأسود بن عبد يغوث**: قُرَشِيٌّ كانَ له ثلاثةُ بنينَ كلُّهم قدْ قُتِلَ يومَ بدرٍ، فلمّا ناحَتْ قُرَيْشٌ على قَتْلاها حَرَّمَ ٱلعُقَلاءُ ٱلبُكاءَ لِئلّا يَشْمَتَ بهمُ ٱلأنصارُ، وكانَ ٱلأسْوَدُ يُحِبُّ بَنيهِ ويَتَحَرَّقُ للبكاءِ عليهم فَكَظَمَ ٱلحُزْنَ وٱعتزلَ النّاسَ وعَمِيَ[٤٩]. وٱلمعرّيُّ يقولُ إنّ مِثْلَ أسوَدِه كانَ مع ٱلأسْوَدِ ٱلقُرَشيّ، أي ٱلعُزلة الزّاهدة ٱلمُلتاعة.

□ **أبو الأسود الدّؤلي**: إنطوى الدّؤليُّ على حُزْنٍ خانقٍ بفَقْدِ عليِّ بْنِ

(٤٨) **الحيوان** للجاحظ ٤/٧١.
(٤٩) **شرح ديوان ٱلحماسة** لأبي تمّام ١/٣٦١.

أبي طالبٍ، وبما ترادَفَ عليه من أرْزاءٍ، ولقد بلَغَ من حُبِّه لعليٍّ أنّه كانَ يَحْصِبُ بالحصى في عَقْرِ دارِه من جيرتِه، فكتَمَ موجِدَةً حارقةً باعَدَتْ بينَه وبينَ النّاس.

□ **سودة بنت زمعة:** كانَتْ زَوْجاً للنَّبيِّ وقالتْ له يوماً: ما لي بالأزواجِ إرْبٌ وإنّما أودُّ أنْ أُبعَثَ يومَ القيامةِ وأنا زَوْجُ النّبيِّ، وتنازلَتْ عن لَيْلَتِها لسِواها. والمعرّيُّ يقولُ كانَ عندَ سَوْدَةَ مثلُ هذا الأسودِ أي تَوَحُّدٌ أو زُهدٌ كاظمٌ مُتَبَتِّلٌ ولكنّه مُطْمَئِنٌّ كأُمنيّةٍ، وانظُرْ إلى دِقّةِ المعرّيِّ حينَ أقحَم كَلِمَةَ الفِراش تعييناً لهذا القَصْد.

□ **سويد بن الصامت:** كانَ قد أدانَ دَيْناً فطُولِبَ فاستغاثَ بقومِه فقَصَروا عنه(٥٠)، فقال:

وأصبَحْتُ قَدْ أنكَرْتُ قَوْمي كأنّني

جَنيْتُ لهم بالدَّيْنِ إحدى الفضائِحِ

□ **أَسودُ رانٍ:** مُرَكَّبٌ إضافيٌّ سَبَقَ بَحْثُه، والمقصودُ به: قَلْبُ دَنَسٍ. لاحقاً به المعرّيّ ومُوريأً إلى مِثْلِ الأسودِ العَنسِيِّ الّذي تنبَّأ. فقدْ كانَ يُقدّمُ لأتباعِه كثيرَ الأحمرينِ أي الخَمْرِ واللَّحْمِ...

وبعدُ فالمعرّيُّ في هذه الدّيباجةِ يقولُ راسماً حقيقتَه واستحالاتِها وخُطوطَ حياتِه النَّفسيّةِ والفِكريّةِ والمعاشيّةِ، كاشفاً عن «حيثيّتِه» على حدِّ تعبيرِ البديعيّ:

قد عَلِمَ الجبرُ (الرّجلُ الغُلام) المُتعسّفُ بما هو إلهيٌّ (فقدْ رأينا في رسالتِه إلى المعرّي، كيفَ حَكَمَ على مَن شاءَ بما شاءَ، وحَشَرَ هؤلاءِ

(٥٠) راجِع **الإصابة** للعسقلاني، حرف السين.

في ٱلجنّةِ وأولاءِ في النّارِ)، أنّ في مسكني ـ حيثُ يموجُ «ٱلعَدَمُ الحيُّ»، بتعبيرِ ٱلمعرّيّ نفسِه، في صُلْبِ **رسالة الغفران**:[٥١] قد كِدْتُ أُلْحَقُ برهطِ ٱلعَدَمِ، من غَيْرِ ٱلأسَفِ ولا النّدمِ[٥٢] ـ حَماطةً، أيْ تينةً جبليّةً سوداءَ، أَلِفَتِ ٱلآنقطاعَ والتّفرُّدَ بمَحَلِّها، ولم تكُنْ أبداً لَدْنةً رخوةً تَتْرَعُ بٱلفسادِ، ولم تَغْنَ بها ٱلكلمةُ النّاهشةُ أي ٱلمائنةُ ٱلكاذبةُ، (يُرسِلُ هذه التّينةَ كنايةً عن سريرتِه نفسِه، والسّوادُ فيها كنايةٌ عن لونِ عُزْلَتِه ٱلكفيفةِ ٱلّتي يمرَحُ فيها الدُّجى من أقطارِهِ، وأرسَلَ فقرةَ «ولا النّاكزة بها غانية» كنايةً عن عدمِ ٱلكذِبِ وأنّه لا يقولُ إلّا الصِّدق).

وهذه ٱلحَماطة تُثمِرُ ـ يقولُها هُزءاً وتغطيةً ـ من مَوَدَّةِ مولايَ، ما لو حمَلَتْهُ شجرةٌ عاديّةٌ من النّباتِ أو قديمةٌ دهريّةٌ، لَدَنَتْ غصونُها إلى ٱلأرضِ، حتّى لتُتَناوَلُ مِن أعلى ٱلغُصونِ الثّمرةُ النّادَّةُ ٱلمصونَةُ بما هي مُسْتَعْلِيةٌ، (وهو يُرسِل ٱلعاديَّةَ من الشّجرِ كنايةً عن ٱلأحياءِ ٱلآخَرينَ ٱلّذين يَحْيَوْنَ في موجِبِ ٱلعادةِ لا الضّرورةِ... وتأمّلْ دِقّةَ تعبيرِه في جُملةِ الدُّعاءِ ٱلّتي لم يَسْتَعْمِلْ فيها إلّا كلماتِ ٱلأضدادِ أو ٱلملاحنِ، فهو يُعبِّرُ بمولايَ ٱلّذي يَرِدُ بِمَعنى السَّيِّدِ وٱلعبْدِ، والشّيخِ بمعنى ذي ٱلفضلِ وٱلخَرَفِ، وٱلجليلِ بمعنى ٱلعظيمِ وٱلحقيرِ، وٱلفضلِ بمعنى ٱلفضيلةِ وٱلفُضْلَة).

ويستَطرِدُ فيشرَحُ ٱلحَماطةَ على ما تعوّدَ من ٱلقَصْدِ إلى التّعميةِ

(٥١) **رسالة الغفران**، ص ٣٩٥.

(٥٢) مثلُه في **اللّزوميات**:

ألم ترَ أنّني حَيٌّ كَمَيْتٍ
أُداري ٱلوَقْتَ أو مَيْتٌ كحَيٍّ (ل٤/٤٢٤)

والتّضليلِ، ويَزيدُنا بذكْرِ أنّ ٱلحَماطةَ تأْلَفُها ٱلحَيّاتُ، وينقطِعُ به ٱلاستطرادُ فيرجِعُ إلى حديثِ ٱلمَوَدّةِ ظاهرياً، مُستَخدِماً ٱلمُشْتَرَكَ ٱللّفظيَّ ٱلّذي هو كَلِمَةُ حَماطة مِثْلَ وَحْدَةٍ تربُطُ جوانبَ ٱلحَديثِ، ومِثْلَ كُوَّةٍ يَنْظُرُ ويُعاوِدُ النَّظرَ من خلالِها، للتّصرُّفِ والتّقلُّبِ في مذاهِبِ خواطِرِه.

وإنّ ٱلحَماطةَ، أي حَبَّةَ ٱلقَلْبِ ٱلّتي في مَقَرّي، لَتَجِدُ من الشّوقِ إلى ٱلمَعْرفةِ، حَمَاطةً أيْ حُرْقَةَ قلبٍ تبدأُ بالرّغبةِ ٱلمُلِحَّةِ وتَتَقَلَّبُ في ٱلحَيْرةِ، فهي ليسَتْ بٱلمُصَادفَةِ إماطةً (وهو يستَغِلُّ فِقْرةَ أنّ ٱلحَماطةَ تأْلَفُها ٱلحَيّاتُ ليُقحِمَنا في خيالٍ، كُلُّهُ أفاعٍ على ٱختلافِها ويستخدِمُها في رمزيّتِه)... وهذه مَرْحَلةُ كَوْنِه كٱلحَماطةِ أي مرحلةِ ٱلعُزلةِ ٱلمُنْقَطعَةِ.

وإنّ في مَحْبَسي لحَضْباً أي أُواراً مُستَعراً من الرَّيبِ، وُكِلَ بأَذاتي وتَعْذيبي لو نطَقَ لذَكَرَ شذاتي وشِرّتي، أي ما أنا غارقٌ فيه من بالياتِ ٱلأحقابِ ٱلفكريّةِ، وهذا ٱلحَضْبُ ما هو بساكنٍ في صُدوعِ ٱلجبالِ ولا بمُشرفٍ من الثّقوبِ، وما ظهرَ في شِتاءٍ ولا صيفٍ، وما مرّ بجَبَلٍ ولا سَفْحٍ، (وهو بهذا يَرْشَحُ ويُقوّي ٱلمعنى ٱلكِنائيَّ في التّوريَةِ، ويعودُ فيسخَرُ بعليِّ بنِ منصورٍ مُتظاهراً بحديثِ ٱلمودّة).

وهذا ٱلحَضْبُ يُضْمِرُ من محبّةِ مولايَ الشّيخِ، ما لا تُضْمِرُه أُمٌّ مُستولَدَةٌ، أكانت حاليَةً بعُقودِ ٱلوَدَعِ ٱللّاعبِ على صَدْرِها لعبةَ الزّنجِ، أمْ غير حاليَةٍ، (تأمّلْ عُمْقَ هذا السُّخْرِ وطرافتَه)، ويستَطْرِدُ فيشرَحُ ٱلحَضْبَ مُتلاعِباً مُعَمّياً... وهذه مَرْحَلةُ كَوْنِه كٱلحَضْبِ، أي مَرْحَلةُ الشّكِّ ٱلحادِّ ٱلمُستَعرِ بٱلأُوارِ ولسانِ ٱللّهبِ.

وإنّ في منزلي، أي في مَنْزِلَةِ ما أنا فيه، لأَسْوَدَ، أي زهادةً مُتَوَجِّعَةً صابرةً وحاقدةً جاحدةً لأشياءِ النّاسِ، هي أعزُّ عندي من عنترةَ ٱلأسودِ

على أُمِّه السّوداءِ، وهو أبداً مَحْجوبٌ مَخبوءٌ، ولا أسمَحُ لنفسي بكشْفِ ٱلأغطيةِ عنه وٱلأستارِ؛ (تأمّلْ تعبيرَه بٱلأغطيةِ ٱلّتي يُلِحُّ بها. وهي تَشْمُلُ أغطيةَ ٱلألفاظِ ٱلاستعاريّةِ والرّمزيّةِ وكلِّ ما هو سبيلٌ إلى التّعميةِ وٱلإخفاءِ. ويستَطْرِدُ السُّخْرَ بصاحبِه عليِّ بنِ منصورٍ مُسْتَعيداً حديثَ ٱلمودّة). ولو قَدِرَ أسْوَدي لسافَر إلى أن يَتَلقّاهُ من بَعيدٍ، ولم يقعُدْ لشقاءٍ يشقاهُ.

وهذا ٱلأسْوَدُ لا يبرَحُ مُولَعاً بذكرِ الشّيخِ ٱلجليلِ إلى حدِّ ٱلهُيامِ، مثلَ إيلاعِ نُصَيْبٍ، الشّاعرِ ٱلأُمويِّ ٱلأسودِ، بسَعْداهُ السّوداءِ (ويعودُ فَيَرْشَحُ ٱلمعنى ٱلكنائيُّ في ٱلأسودِ بخصائصِ ٱلأشخاصِ التّاريخيينَ ٱلمُتَحَلّينَ بالسّوادِ لوناً، أو ٱلمَعروفينَ به آسماً).

وقد كانَتْ مثلُ هذه الزّهادةِ المُتَوَجِّعةِ مع ٱلأسودِ بنِ عبدِ يغوثَ، وفلانٍ وفلانٍ مِمّنْ مَسّتْهم زَهادةٌ من هذا النّوع.

وهو إذ يذكُرُ سُوَيْدَ بنَ صميعٍ يستطردُ فيذكُرُ قاصداً أبياتاً له. ولقدْ تبدو في النّظرِ ٱلعفويِّ أنّها مُقْحَمَةٌ إقحاماً بمناسبةِ ذِكْرِه، وٱلواقعُ أنّها تُمثِّلُ منهجَه دائماً. فٱلمعرّيُّ، مِثْلَ سُوَيْدٍ هذا، قد يُعطي ٱليمينَ على تَرْكِ منزلتِه الزّاهدةِ ٱلجاحدةِ ولكنّها يَمينٌ مُمَزَّقةٌ. وقد يَحْلِفُ بالطّلاقِ وٱلعَتاقِ إذا ٱضطُهِد أو ٱضطُرَّ كَرْهاً إلى تَرْكِها، ولكنّ ٱلمرأةَ لم تُطلَّقْ، وٱلعَبْدَ لمْ يُعْتَقْ على مَعْنى أنّه يَحْلِفُ بشيءٍ ويُريدُ شيئاً آخر، ويتكلّمُ بشيءٍ ويُريدُ غيرَه، وكذلك هو في **رسالةِ الغفرانِ** وكُلِّ ما يَصْدُرُ عنه في نثيرٍ ونظيمٍ؛ (ويعود فَيَصِلُ حديثَ الزّهادةِ بما يَرْشَحُ ٱلمعنى ٱلكنائيَّ في ٱلأسودِ بخصائصِ الطُّعوم).

وحَضَرَ هذا ٱلأسودُ في وليمةٍ حضَرها ٱلأسودانِ ٱللّذانِ هما التّمرُ وٱلماءُ، وعلى مُنْبَسَطِ «حَرَّةٍ» أديمٍ تراكَمَتْ فيه ٱلحَصَواتُ السّودُ وفي

جَوِّهِ تـمدّدَتِ الظَّلماءُ. (ونحنُ نعرِفُ أنّ الضِّدَّ أقربُ خُطوراً بآلبالِ وآتّصالاً بآلمعنى حتّى ليُعَرَّفُ به في آللّغةِ)، وإنّه، أي الزَّهِدَ آلمُتَوَحِّدَ، لينفُرُ عن آلأبيضينِ، السَّيْفَيْنِ، أو السّيفِ والرّمحِ، إذا كانا في آلمُعْتَرَكِ مُعَرَّضينِ مَشْهورَيْنِ، ويصبِرُ على آلأبيضينِ، آلماءِ وآلفتِّ بلا إدامٍ، ويرتاحُ إلى آلأبيضينِ، آلماءِ والرّطبِ.

وأمّا آلأبيضانِ آللّذانِ هما شَحْمٌ وشَبابٌ فإنّما تفرَحُ بهما آلمُتَصابياتُ آلغَزِلاتُ، ويبتهجُ بِهما غَيْري، أمّا أنا الزّاهدُ آلمُتَوَحِّدُ فقدْ يَئِسا من خَيْري.

وكذلك آلأحامرةُ، أي التّائقونَ إلى النّفائسِ من آلمتاعِ والطّيبِ، وآلأحمرانِ، أي آللّحمُ وآلخَمْرُ، فإنّما يَعْجَبُ ويهشُّ لهما مَنْ رانَ قَلبُه ودَنُسَ طبعُه كآلأسودِ آلعَنسِيِّ آلمُتنبِّيءِ، ويتبَعُه في إعجابه مُتَحَوِّبٌ غَيْرُ مُجاهرٍ لم تَهُزَّه الدّواهي وتُزَلْزِلْه آلعوادي. وهذه مَرْحَلَةُ كونِه كآلأسودِ، أيْ مَرْحَلَةُ آلمُتَوَحِّدِ آلكاملِ التّوحُّدِ في فِكْرِه ومَسْلَكِه ومَطْعَمِهِ...

*

هذه هي آلقطعةُ في مَعْناها على طريقتِنا، ونحنُ لا نَرْتابُ في صِدْقِ الطّريقةِ، وإنْ كانَ من شيءٍ فإنّما يَرْجِعُ إلى نَقْصٍ في جُهْدِ الدّرس وجُهْدِ التَّتَبُّع.

وآلآنَ ينبغي أن نُسجِّلَ بعضَ تعليقاتٍ على آلقِطْعَةِ تُثبتُ ما قد ذهْبنا إليه، فإنّنا نُلاحظُ:

أولاً ـ رابطةُ السّوادِ تَغْشى آلقطعةَ كُلَّها بآللَّفظِ أو بآلخصائصِ، في طائفةِ النّباتِ وآلحيوانِ وآلإنسانِ والطُّعومِ آلّتي حَشَدَها. وهذا ما سَبَقَ وأسمَيْناهُ بِهالةِ آللَّفظِ وهالةِ آلقِطعةِ آلأدبيّةِ، آلمُحْتَبِكةِ من هالاتٍ آئتلَفَتْ

وٱمتزَجَتْ في بَساطةِ ٱلواحدِ، حتّى لَتَبدو مثلَ قطعةِ فُسَيْفساءَ رُصِّعَتْ بفُصوصِ السّوادِ وترقرقَتْ فيها مائيّتُهُ.

وٱلمعرّيُّ ٱشتقَّ السّوادَ من لَوْنِ عُزْلَتِه ٱلحالكةِ بِفَقْدِ حاسّةِ ٱلبَصَرِ من وَجْهِه، ومن وَجْهٍ آخَرَ أنّ الدُّجى، رَمْزَ ٱلعَدَمِ ٱلحَيِّ، مِثْلُ السّكونِ، رَمْزِ ٱلعَدَمِ ٱلإعرابيِّ لَفْظاً، وهو علامةُ إعرابٍ في ٱلوَقْتِ نفسِه. وٱلجُحودُ ذاتُه عدمٌ حَيٌّ، وٱلصِّفْرُ في ٱلحِسابِ عَدَمٌ حيٌّ، أي ٱللّاعددُ، ولكنّه رَمْزُ ٱلعَدَديّةِ ما شئتَ منها في مكانِه وخانَتِه.

وسَنَرى بعدُ، أنّ فَلْسَفَتَه كُلَّها تدورُ على ٱلعَدَمِ ٱلحيِّ أو السّكونِ ٱلإعرابيِّ ٱلّذي هو عَدَمُ ٱلحَرَكةِ نُطقاً، ولكنّه أيضاً علامةٌ حيّةٌ دالّةٌ، وخاصّيّتُها في ٱلفِعْلِ ٱلمُضارِعِ معَ ٱلجازمِ أنّها تنزِعُ منه مَعْنى ٱلحالِ وٱلمُسْتَقْبَلِ، وَتردُّهُ إلى ٱلماضي، فهو لذلك يَطْلُبُ هذا التَّوَحُّدَ وهذا السُّكونَ ٱلّذي يَرُدُّهُ إلى ٱلعَدَمِ ٱلحيِّ ٱلأوَّلِ، وسَيَمُرُّ بنا أيضاً أن ٱلمعرّيَّ لا يقولُ أبداً بٱلعَدَمِ ٱلمَحْضِ، قال:

وما زالَ حُوتي، راصِدي، وهو آخِذِي
فما لِمَتابي ليس يَغسِلُ حُوَّتي (ل١/٢٣٠)

يُشيرُ به إلى مِثلِ حوت يونس، (يونان)، ولكنْ بالشّكلِ ٱلقُرآنيّ «وذا النّونِ إذْ ذَهَبَ مُغاضِباً، فظَنَّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عليْهِ، فَنادى في الظُّلُماتِ، أَنْ لا إلهَ إلّا أنتَ سُبحانَكَ إنّي كُنْتُ من الظّالمينَ، فٱستَجَبْنا له، ونَجَّيْناهُ من ٱلغَمِّ، وكذلكَ نُنْجي ٱلمؤمنين» (الأنبياء ٢١: ٢٨٧).

فهو في مُعَتَزَلِه، كجوفِ حوتٍ تَغْشاه غاشِيَةُ السّوادِ والظُّلمةِ، وٱستطاعَ أن يُضَمِّنَه، ببراعةٍ، لونَ قَدَرِه الرّاصدِ. وأنّ ٱلإنابةَ مَحَتْه عنْ يُونُسَ ٱلمُتَأَلِّهِ، وهُنا يستصرخُ بأسىً مُلتاعٍ مُتَفَجِّعٍ، كيفَ لم تُنَقِّ توبتُه

حُوَّتَه، أي سَوادَ أدْرانِه، كما تَنَقّى ذو النّون؟ وٱلمقصودُ بالشّاهد لونُ السّوادِ، حتّى ٱختارَ لزلّاتِه لوناً فجعَله حُوَّةً، أي سَواداً.

وتأمّلْ جيِّداً صِدْقَ ما تَقَدّمْنا به من أنّ ألفاظَ ٱلألوانِ تَكْثُر عِنْدَه عِنْدَ ٱجتهادِه بإبرازِ ألْوانِ ٱلألفاظِ(٥٣).

وتأمّلْ إلى جانبِ شُيوعِ لونِ السّوادِ في ٱلقِطْعَةِ، شُيوعَ خَيالِ ٱلحيّاتِ ٱلّذي عَبّر عنه في **اللّزوميّات**:

وأيّـامُـنـا مِـثْـلُ ٱلأُيـومِ، وإنّمـا
سَعى ليَ، من ساعاتِهنَّ سَعَالِ (ل٤/٧٧)

وتأمّلْ أيضاً تلطُّفَه ٱلعَفويَّ في ٱستعمالِ ٱلجناسِ في «سعى لي، سَعَالِ».

وتأمّلْ أيضاً مقامَ ٱلمُشْتَرَكِ في وَحْدَةِ ٱلقِطْعَةِ وفي تَنْويعِ النّظرِ ٱلمُغري بٱستيعابِ ٱلمَعْرِفةِ وَوَحْدَتِها كما نَرى في: حَماطَة، حَضْبَ، ٱلأسْوَد. هذا ٱلمُشْتَرَكُ كانَ سبيلاً إلى التّنويعِ وٱلاستيعابِ وربْطِ ٱللّفتاتِ الذِّهنيّة.

ثانياً ـ ٱستخدامُ ٱلخَصائصِ كلِّها كنائيّاً وإتقانُ تنزيلِها في أماكِنها ومَحالِّها.

ثالثاً ـ لاحِظْ حَمْلَتَه ٱلحادّةَ على ٱلأحامِرَةِ، ومنْ مَلاحِنِها إلى جانبِ مَعْناها: كُلُّ ما ليسوا بعربٍ، أي الشّعوبيّينَ والشّعوبيّةَ، وٱرتفاعُهُ بٱلأساودةِ ومن ملاحنِها: كلُّ ما هو عربيٌّ صليبةً.

ولا أستبعدُ أنّ ٱلمعرّيَّ ٱستيقظَ فيه شعورٌ عربيٌّ نقيٌّ وخالَطُه في تمجيدِ، وفي شكلِ ٱرتدادٍ إلى الطّبيعةِ ٱلعربيّةِ وٱلفِكْرِ ٱلعربيِّ وٱستيحائهما

(٥٣) يحسنُ أن نُنبّهَ إلى أنّنا لا نُفرّقُ في منهجِنا ٱللُّغويّ بين ٱلألفاظِ وٱلمَعاني بل هما كلٌّ موَحّدٌ.

للإصلاحِ، وطَبَعَ روحَهما ضدَّ كلِّ روحٍ أُخرى، قال:

وألْقَيْتُ الفَصاحةَ من لساني
مُسَلَّمةً إلى العَرَب اللُّبابِ (ل١/١٧٥)

رابعاً ـ آستحياءُ الأسطورةِ آستحياءً مُدْهِشاً، فهو يَذْكُرُ التّينةَ وأنّ الحيّةَ تألَفُها، ويستخدِمُ الحيَّةَ وأصنافَها، إشارةً إلى الآستحالاتِ الّتي تعرِضُ للمتوحِّدِ، واحدةً إثرَ أُخرى.

وسنرى في الفصلِ التّالي، «فرضيّات حولَ **رسالة الغفران**»، أيّةَ أُسطورةٍ هي، وأيّةَ عقيدةٍ يُبطِنُ، وكيفَ هي مراحلُ آستحالةِ الذّاتِ في التوحُّد.

فرضيّات حول رسالة الغُفران

نَخُصُّ **رسالةَ الغفرانِ** بآهتِمامنا ونَعْقُدُ لها فَصْلاً دونَ سائرِ كُتبِه، لأنّها تَمُدُّنا بأهمِّ جانِبٍ من جَوانبِ فلسفةِ ٱلمعرّيّ، كما أنّها تُقدّمُه لنا أيْضاً وقدْ مَرَّ في كُلِّ أدوارِ ٱستحالتِه، وٱستقرَّ حيثُ ٱنتهى به نشاطُه ٱلآستعداديُّ ٱلمُتفتّحُ؛ أضِفْ إلى هذا وذاك أنّها أعمقُ ٱلافْتناناتِ، وأجملُ ما أعطَتِ الرّمزيّةُ في مُخْتَلِفِ عُصورِها.

ونحنُ ٱلآنَ لا نطمَعُ بدرسِها منَ النّاحيةِ ٱلفنّيّةِ ٱلمَلْهَويّةِ، فإنّه مطلبٌ يَقْتضينا إفرادَه بالتّأليفِ. وإنّما نُعْنى بدَرْسِ ما يتّصِلُ بها من قُربٍ، بسبيلِ إعطاءِ صورةٍ واضحةٍ عن آخِرِ أدوارِ ٱستحالتِه ٱلفكريّةِ والنّفسيّةِ ٱلّذي عقَدْنا هذا ٱلكِتابَ عليه.

نَوّهْنا في ٱلفصلِ السّابقِ بٱستحْياءِ ٱلمعرّيّ للأُسطورةِ ٱستحياءً مُدْهشاً، وقد رَأيْنا في ديباجةِ **رسالة ٱلغفران** تينةً وحيّاتٍ متنوّعةَ ٱلأصنافِ، ورَأيْنا أسْوَدَ يعيشُ مع النّاسِ ويُجاوِرُهم مُكاشِفينَ له ومُكاشِفاً لهم، فما هو هذا كلُّه؟

رمزيّة أسطورة الحيّة

نتقدّمُ فنجِدُ عندَ ٱلجاحظِ في **ٱلحيوان**، في أثناءِ كَلامِه عن ٱلحَيّاتِ وأنواعِها، ٱستطراداً طَويلاً يُديرُه على بحثٍ كَلاميٍّ لاهوتيٍّ؛ فيذكُرُ: ٱلحوّائيينَ ورُقاهم، وكيفَ يُخالِطُ ٱلبُسطاءَ السّاذجينَ ٱعتقادٌ بها، ويتعرّضُ إلى عَقيدةٍ كانَ يعتنقُها بشّارُ بنُ بُرْدٍ، وتلميذُه سليمانُ بنُ الوليدِ الأعمى أخو[١] مسلمِ بنِ الوليدِ الشّاعرِ ٱلعبّاسيِّ ٱلمعروفِ بصريعِ الغواني. ومن ٱلخيرِ أنْ نقتَطِفَ من ٱلجاحظِ ما نَحنُ بحاجةٍ إليه.

إنّ ٱلبَدَنَ هيكلٌ للحَيّةِ، وكانَ يَدينُ به بشّارٌ ولقّنهُ لسليمانَ بنِ ٱلوليدِ ٱلأعمى ٱلّذي يقولُ:

إنّ ذا ٱلـعِـلْـمَ مُـعـتَـبَـرٌ
لِطَلوبِ ٱلعِلْمِ مُقتَبِسهْ[٢]
هيكَلٌ للرّوحِ يُنطِقُه
عِرْقُهُ والصَّوْتُ من نَفَسِهْ
لا تَعِظْ إلّا ٱللّبيبَ فما
يَعتدلُ الضّلْعُ على قَوسِهْ[٣]
رُبَّ مَغروسٍ يُعاشُ به
فَقَدَتْهُ كَفُّ مُغْتَرِسِهْ[٤]
وكذاكَ الدَّهرُ مَأتَمُهُ
أقربُ ٱلأشياءِ من عُرُسِهْ

(١) هكذا وَرَدَ في **الحيوان** أنّه أخوه، وفي **معجم الأدباء** لياقوت أنّه ٱبنُهُ ١١/٢٥٥، ط القاهرة.
(٢) روايةُ ياقوت: إنّ في ذا ٱلجِسْمِ مُعْتبراً لمُريدِ ٱلعلمِ مُلتمِسِه.
(٣) أسْقَطَ ياقوتُ هذا ٱلبَيْتَ.
(٤) روايةُ ياقوت: عدمَتْهُ كفّ.

قال عديُّ بنُ زيدٍ ٱلعباديٌّ يذكُرُ شأنَ آدمَ ومَعْصِيَتَه، وكيفَ ٱستغوَتْه ٱلحيّةُ، وأنّ ٱلحَيّةَ كانَتْ في صُورةِ جَمَلٍ فمسخَها ٱللّهُ عُقوبَةً لها:

«قَـضـى لـسـتَّـةِ أيـامٍ، خـلـيـقَـتَـه
وكـانَ آخِـرَهـا، أنْ صَـوَّرَ الـرَّجُـلا
فكـانَتِ ٱلـحـيّةُ الـرَّقـشـاءُ إذ خُـلِـقـتْ،
كما تَرى، ناقَةً في ٱلـخَـلْقِ أو جَمَلا
فـلاطَـهـا ٱلـلّـهُ إذ أغْـوَتْ خَـلـيـفَـتَـهُ
طولَ ٱللّيالي، ولـم يجعَلْ لها أجَلا
تَـمْشي على بَطْنِها في الدّهرِ ما عَمَرتْ
والتُّـرْبَ تـأكُـلُـه، حـزنـاً وإنْ سَـهُـلا

وأنّ ٱلحَيّةَ عُوقِبتَ بنَقْصِ جناحِها، وَقَطْعِ أرجُلِها، وٱلـمَشْيِ على بطنِها، وبإعراءِ جِلْدِها حتّى لِيُقالُ: أعرى من حَيّةٍ، وبِشَقِّ لِسانِها، ولذلك كُلَّما خافَتِ ٱلقَتْلَ أخرجَتْ للنّاسِ لسانَها لتُرِيَهم مَوْضِعَ ٱلعُقوبةِ، وبما أُلْقِيَ عليها من عَداوةِ النّاسِ، وبمَخافةِ النّاس.

وأنّ ٱلحَيّةَ كانتْ تَسْمَعُ وتنطِقُ، وأنّ الصُّخورَ كانَتْ رَطْبَةً ليّنةً، وأنّ كُلَّ شيءٍ كانَ يَعْرِفُ ويَنْطِقُ... وأنّ ٱلأشجارَ والنّخيلَ لم تكنْ شائكةً وشاكَتْ يومَ عُصِيَ ٱللّه. وأنّ آدمَ وحوّاءَ ٱتّخذا من ورقِ التّين أثواباً. وأنَّ ٱلحَيّةَ تَسْلُخُ أثوابَها، وأنّ «الدُّعْموصَ» يَنْسَلِخُ فيصيرُ إمّا بَعوضَةً وإمّا فراشةً... إلخ»(٥).

هذه نتَفٌ سريعةٌ مِمّا ٱحتفلَ بِتبْيانِه ٱلجاحظُ، ونحنُ نُثْبِتُها هنا، مِثْلَ

(٥) راجِعِ **الحيوان** للجاحظ ٦٤/٤ ـ ٧٥، ط ٱلمطْبعة ٱلحميديّة ٱلمِصريّة، ٱلقاهرة.

نِقاطٍ بارزةٍ تُعينُ على فهْمِ ٱلغرضِ ٱلمَقْصودِ، ٱلّذي نُديرُ ٱلبحثَ عليه.

وهذه ٱلقِصّةُ نعرِفها في ٱلأساطيرِ ببَسطٍ كبيرٍ وسَذاجةٍ، ولكنَّ الشّيءَ ٱلمُدْهشَ من أمْرِها، أنَّ مأساةَ ٱلحَيّةِ هي بنفسِها مأساةُ ٱلمعرّيّ من كُلِّ ٱلوُجوه.

أَما ٱلمعرّيُّ مُنْجَحِرٌ مِثْلَما هي مُنْجَحِرةٌ؟ أما هو زاهدٌ عَرِيٌّ مثلَما هي معتزلةٌ عريّةٌ؟ أمَا هو يَتَعَلَّلُ بٱلجَهْلِ ونقْصِ ٱلمَعْرِفةِ وبأنّه مرزّأٌ بٱلأقدارِ؟ أَما أُلقِيَتْ عليهِ ٱلعداوةُ كَما يَتَخَيَّلُ ويُصَرِّحُ به في غَيرِ ما مَوْضعٍ من **رسالة الغفران واللُّزوميّات**، مثلَما أُلقِيَتْ عليها ٱلعداوةُ؟ أما هو يَجْفو النّاسَ ويَخْشى أذاتَهم ويُذْعَرُ منهم، مثلَما هي تخافُهم وتُذْعَرُ؟ أما هو يأكُلُ أخْشَنَ الطّعامِ (البُلُس، البُلْسُن: العدس والبَلَس: التّبن)، مثلَما هي تأكُلُ التُّرابَ وتستَفُّه؟

إذاً، فلِمَ لا نُقدِّرُ أنّ خيالَه ٱنعقدَ على ٱلحَيّةِ في نَفْسِه؟ ولِمَ لا يكونُ، في هذا فقطْ، من تُبّاعِ بشّارٍ وسليمانَ بنِ ٱلوليدِ ٱلأعمى. أُقيِّدُ هذا التّقييدَ لأنّه صَرّحَ بأنّه في مُنتأىً عن أعابيثِ بشّارٍ:

ولستُ أحمَدُ بُشْرى، وهي كاذبةٌ
ولا أُوافِقُ حَمّاداً وبَشّارا (ل٢/٢٠٠)

لِمَ لا يكونُ كلُّ هذا صَحيحاً سائغاً، ونحنُ نجِدُ ونُحِسُّ بخيالِ ٱلحَيّةِ لا يفارقُه، في **رسالة الغفران** و **اللُّزوميّات** والرّسائلِ بينَه وبينَ داعي الدُّعاة؟

أنا لا أرتابُ به ولا بمَحَلِّ هذا التّقديرِ من خَيالِه، ولا سيَّما حينَما يُكفَلُ ويستقيمُ لنا من طريقهِ ٱنسجامُ ٱلمعرّيّ وٱرتباطُه في شَكْلٍ دقيقٍ، ويُكفَلُ ٱرتباطُ شيءٍ آخرَ وهو ٱبنُ ٱلقارح بقصّةِ ٱلحَيّةِ الشّائعةِ، قال:

وإنّكَ مُنْذُ كَوْنِ النَّفْسِ عَنْساً
لَتُوضِعُ في الضَّلالة أو تَخُبُّ (ل١/١٠٦)

رمزية آدم وحواء

وَجَدْنا في ديباجةِ **رسالة الغفران** ذِكْراً للتّينةِ، وأنّها إلْفُ ٱلحَيّاتِ، وأنّ في مقرِّهِ حَضباً وفي منزلِه أسْوَدَ، وَوَجَدْنا بينَها ٱرتباطاً كنائيّاً على طريقتِنا.

ولكنْ بقيَ مع ذلكَ شيءٌ دونَ بيانٍ ويَقْتضينا ٱلإيضاحَ، وهو لماذا ٱختارَ التّينَ وٱلحَيّاتِ وخصائصَهُما للكناية؟ ويهُمُّ ٱلبحثَ وٱلوفاءَ به أن نَتَناولَ هذا التّساؤلَ بالدّرسِ، لنعرِفَ هلْ نَبَضَتْ نفسُه بهذهِ ٱلخاطرةِ عَفْواً أو نتيجةَ فكرةٍ مُلْتَبِدةٍ في أعماقِ أحاسيسِهِ.

عندَنا أنّه نتيجةُ خيالٍ مُلْتَبِدٍ ٱنعقدَ على ٱلقِصّةِ الدّينيّةِ ٱلّتي ٱستحالَتْ في نفسِه ٱستحالةً رمزيّةً بحتةً، فآدمُ ليسَ هو إلّا من ٱلأديمِ، أيْ جلدِ ٱلجَسَدِ، وحوّاءُ ليسَتْ هي إلّا من ٱلحياةِ، أي النّفسِ. وتأمّلْ جيّداً هذا ٱلاشْتراكَ ٱللّفظيَّ بينَ «ٱلحَوّاءِ» ٱلّذي هو مُتَصيّدُ ٱلأفاعي بالرُّقى والتّعاويذِ، وبينَ حَوّاءَ أمِّ البشرِ في زَعمِ القِصّةِ.

وما ٱستغواءُ ٱلحَيّةِ لحوّاءَ إلّا رمزُ ما ٱجتمعَ في النّفسِ من نَزَعاتِ ٱلأخلاطِ ٱلأربعةِ، وما الشّيطانُ إلّا هَمْسُ ٱستعدادِ هذه ٱلعناصرِ وسرُّ فَعّاليّتِها إذا ٱختلَطَتْ وٱستحالتْ، قالَ:

مُهْجَتي ضِدٌّ يُحارِبُني،
أنا مِنّي، كَيْفَ أحْتَرِس؟ (ل٣/١٧)

وتأمّلْ بدقّةٍ على منهجِه ٱللُّغويِّ ٱلّذي ألمَحْنا إليه عَلاقاتِ ما بينَ

حياةٍ، حيّةٍ، حوّاءَ، وهي عَلاقاتٌ أكيدةٌ وحقيقيّةٌ تشرَحُ وتُفسِّرُ وتُعلِّلُ، ولن تكونَ نتيجةَ: «لا شيءَ، نتيجةَ: لا سِرَّ».

وهذا الشّيءُ أو السِّرُّ عندَه هو أنّ ٱلحَيّةَ ٱلكامنةَ في ٱلأعماقِ، وأنَّ ٱلحَياةَ عملُ هذه ٱلأخلاطِ وفعاليّتُها، وأنّ حوّاءَ ٱشتباكُ هذه ٱلفعاليّاتِ وٱقتيادُها ٱلبَشَريَّ بإرادةٍ ودونَ إرادةٍ، وأنّ سَتْرَ السَّوْأةِ بورقِ التّينِ ليسَ هو إلّا ٱلخِداعَ والتّلَفُّفَ بورقِ التّينِ ٱلّذي يُساوي باطناً كلمةَ «دينٍ»، وذلك لأنّ «ت» في حِسابِ ٱلجُمَّلِ تساوي أربعمائة وتُرَدُّ إلى أربعةٍ وحرفُها «د» على طريقَتِهم في ردِّ حروفِ ٱلعشراتِ وٱلمِئاتِ إلى حُروفِ ٱلآحاد.

ففي تَصَوُّرِه، كما هو ظاهرٌ في **اللّزوميّات**، أنّ كُلَّ ٱلفسادِ في النّفسِ ٱلّتي هي توهُّجُ ٱستعدادِ ٱلأخلاطِ وحالةُ تعَقُّدِ نَزَغاتِها ٱلّتي تُسمّى حياةً، قال:

إنْ كـانَ إبـليـسُ ذا جُنْـدٍ يَـصـولُ بـهـم
فـالنَّـفْـسُ أكـبـرُ مَـن يَـدْعـوهُ إبـلـيـسُ (ل٣/٢٥)

أعِـــرْقُ آدمَ هـــذا؟ لا يُـــمـــازِجُـــه
سِواهُ، أمْ مُسَّ من إبليسَ، تَغْريقا (ل٣/٢١١)

فسَبيلُ ٱلإصلاحِ يَقومُ ويَكْمُنُ في إضعافِ ٱلأخلاطِ عنِ ٱلعَمَلِ كُلِيَّةً، إلى دَرجةِ ما يُسمّيهِ ٱلمعرّيُّ ٱلعَدَمَ ٱلحيَّ في صُلْبِ **رسالة الغفران**[٦]، أو التّصعيدَ وٱلإعلاءَ في التَّعبيرِ النّفسيِّ ٱلحديثِ، وٱتّخاذِ كُلِّ ٱلأسبابِ وٱلوسائلِ إلى ٱلحيلولةِ بينَ الشّيءِ وناموسِ عملِهِ، مَهْما كانَتْ جاهِدَةً مُضْنِيَةً، وبتعبيرٍ أخْصَرَ مَحْوُ حوّاءَ من وُجودِ ٱلبَشَريِّ مَحْواً كاملاً.

وٱلبَشَرِيُّ إذا حَقّقَ مَحْوَ حوّاءَ من كيانِه، تَجَوْهَرَ بٱلعقلِ ٱلكُلّيِّ وٱلقوّةِ

(٦) **رسالة الغفران**، ص ٣٩٥.

ٱلمُبْدعةِ وأضاءَ فيه، وبذلك يَحْيا بالدّينِ أو يَحْيا الدّينُ فيه، بلْ يكونُ هو إيّاه؛ ومن ثمَّ يَظْهَرُ لنا السِّرُّ ٱلعَميقُ ٱلّذي حداهُ إلى ٱلكنايةِ بالتّينةِ عن كُنهِه ٱلمعنويِّ وجَوْهَرِ سريرتِه.

ولْنرجِعْ بخيالِنا قليلاً إلى ديباجةِ **رسالة الغُفران**، لنَرى كيفَ ٱستحالَتِ ٱلقصّةُ ٱلمذكورةُ في فِكْرِهِ ٱستحالتَها ٱلمُدْهِشَةَ ٱلغريبةِ والطّريفةَ ٱلمُبتَكَرَةَ.

نراه يتحدَّثُ عن نفسِه بأنّه التّينةُ، أي الدّينُ نفسُه في جوهرِه، وليسَ فيما يُداجي به ٱلآدميّونَ ٱلآخَرونَ من سَتْرِ سوآتهم وسيّئاتِهم بورقِ التّينِ، أي بمظاهرَ نجِدُ حقيقتَها في قرارةِ النّفسِ ولا ترجِعُ إلى طبيعةٍ في الرّوحِ، والتّينةُ تُوصَفُ بِإلْفِ ٱلحَيّاتِ لها، أي بإحاطةِ النّزعاتِ والنّزواتِ بها، حتّى لتطمِسُ معالمَها وتحجُبُ حقيقتَها، ولكنَّ السّعيدَ ذلك ٱلّذي يُنقّي جوهَرَه ويُصفّي سبيكةَ عناصرِه.

وهنا يَرْسُمُ تطوّرَ نفسِه، أي أفْعاهُ، وبتعبيرٍ آخرَ: حَوّاءَه في مجالاتِ ٱستحالَتِها، فٱلمُتَوَحِّدُ يبدأ «حَماطة» أي حُرْقَةَ قلبٍ بسبيلِ ٱلمعرفةِ ويستبدُّ به تساؤلٌ قاسٍ، وما هو حتّى يَستحيلَ حَضباً أي أُواراً مُتَّقداً من الشَّكِّ ٱلحادِّ والرَّيْبِ الطّائفِ بكُلِّ شيءٍ وٱلمُمْتَدِّ إلى جُذورِ كلِّ شيءٍ.

ولقدْ رأيْنا في ٱلقصّةِ أنّ ٱلحَيّةَ تُسْلَخُ، وأنّ الدُّغْموصَ ينقلِبُ فراشةً، وسيمُرُّ بنا أنّ ٱلمُتَوَحِّدَ يَتَحوَّلُ ٱستعلاءً مثلَ هذا التّحوُّل.

وهنا تُدرِكُ ٱلمُتَوَحِّدَ نُقلةٌ، من كونِه حَضْباً إلى منزلةِ «أسْوَد»، وهذه ٱلمَنْزِلةُ تَبدأُ بٱلجُحودِ ٱلمُطلَقِ نتيجةً للتّساؤلِ في ٱلمَنْزِلةِ قبلَها، ٱلّذي حرّكَ أحجارَ ٱلآعتقاداتِ وٱلأفكارِ وٱلآراءِ، فلم يكُنْ تحتَها من شيءٍ ثابتٍ، أو كانَ تحتَها أشياءُ من ٱلوهمِ وٱلأباطيلِ، وتَنْتَهي بالتّجوهُرِ بٱلعَقْلِ ٱلكُلّيِّ، نتيجةَ التّسلُّطِ على الطّبيعةِ ٱلحيّةِ بالرّياضةِ الزّاهدةِ

وٱلحيلولَةِ بينَ ٱلعناصرِ وبينَ عَمَلِ نواميسِها.

وتأكيداً لهذه ٱلعقيدةِ عندَه، ذهَبَ يَدورُ في مَداراتٍ واسعةٍ، تُثْبِتُ مِقدارَ ما يؤثّرُ هذا ٱلاسمُ بٱعتبارِ كونِه ٱسماً فقط، تأثيراً رفيعاً سامياً، بما فيها مِن إرادةٍ عُلْيا مؤثّرةٍ. فهذا أسْودُ كِنْدَةَ وأسْوَدُ لخمٍ... إلخ. وَلَيْسَ هذا فقطْ بل كيفَما ٱستدارَ مصدَرُه في صُوَرِ ٱلاشتقاقِ، مثلَ سُوَيْدٍ، أسودانِ، سودةَ، أبي الأسودِ... إلخ.

وأنا لا أرتابُ في أنّ ٱلمعرّيَّ، على هذا، كان يُفَضّلُ سودةَ بنتَ زمعةَ «ٱلّتي ترَفَّعتْ عن ٱلفِراشِ» تفضيلاً مُطْلَقاً، ويرفَعُها إلى مصافِّ ٱلمُتَوَحِّدِ والزّاهدِ ٱلمُطْمَئِنِّ ٱلمُتَحَنّثِ، وتأمّلْ هذه ٱلفقرةَ في جانِبِها «ولا ينحرِفُ عنه السّولُ» أي ٱلمأمولُ... وهو خِلالَ ذلك يُشيرُ إلى مَنْهَجِ ٱلمُتَوَحِّدِ من خُشونةِ ٱلعيشِ وٱلبُعْدِ عن مُحَرِّضِ الشّهواتِ، ودواعي الرّغبةِ بٱلحياةِ الشّقيّةِ من مِثْلِ ٱلأحامرَةِ وٱلأحمَرَيْن.

على هذا الشّكلِ كانَتِ ٱستحالَةُ ٱلقِصّةِ الدّينيّةِ في نفسِه، وعلى هذا الشّكلِ ٱمتدّ بها خيالُه ٱمتداداً عَجَباً. ومنه ندرِكُ فرْقَ ما بينَه وبينَ بشّارٍ وتلميذِه، فقدْ كانَتْ عقيدَتُهما ساذَجةً بسيطةً وعقيدتُه رمزيّةً رفيعةً. ولَسْتُ أستبعِدُ أيضاً أن يكونَ ٱنصرافُه عن الزّواجِ متأثّراً من بعضِ جوانبِه بهذِه ٱلقصّةِ في ٱتّجاهِ رمزيّتها.

ابن القارح كنية تقابل ابن يقظان

وٱلآنَ ينبغي أن نُعنى بدَرْسِ ٱبنِ ٱلقارحِ، أيْ بِدَرْسِ حَقيقةِ هذا ٱلمُرَكَّبِ ٱلإضافيِّ ٱلكُنيةِ، وإلى ماذا ينظُر ويُشيرُ.

بادئ بدءٍ نجِدُ عندَ بعضِ تُبّاعِ ٱلفلسفةِ ٱليونانيّةِ، كٱبنِ سينا، مُرَكّباً

إضافيّاً مُشابِهاً وهو آبنُ يقظان. فهَلْ بينَهما من عَلاقةٍ أو نِسْبَةٍ، وأعني على وَجْهِ التّضادِّ؟ لا سيَّما إذا عرَفْنا أنّ آبنَ سينا تُوفّيَ سنة ٤٢٨هـ، وأنّ كُتُبَهُ كانَتْ شائعةً مُتَداوَلةً، بحيثُ نظنُّ أنّ آلمعرّيَّ وقَفَ على آثارِ هذا آلمُعاصِرِ، فقدْ وُلِدَ سنة ٣٦٣هـ وماتَ بعدَه سنة ٤٤٩هـ.

أجِدُني غيرَ مُطْمَئِنٍّ أبداً إلى أنّ هذا آلمُرَكَّبَ آلإضافيَّ كانَ كُنْيَةً لعليِّ بْنِ مَنْصورٍ، الشّخصِ التّاريخيِّ آلحقيقيِّ آلّذي كَتَبَ إلى آلمعرّيّ رسالتَه آلمشهورةَ لآعتبارات:

١ ـ نُدْرَةُ التّسميةِ بقارحٍ في حدٍّ كبيرٍ.

٢ ـ مُشابهتُهُ للمُرَكَّبِ آلإضافيِّ «آبنِ يقظانَ» على وجهِ التّقابُل.

٣ ـ ما تَقْضي به آلحرفيّةُ آلمُعْجَمِيّةُ إذا حُلِّلَ هذا آلمُرَكَّبُ على ضوئِها، فهي تَحْفَظُ أنّ آلقرْحَ ما يَخْرُجُ بآلبَدَنِ من آلفسادِ، وآلقارحَ النّاقةُ آستبانَ حَمْلُها... إلخ.

وآلمادّةُ في كُلِّ مُشْتَقّاتِها يُستَشَمُّ منها رائحةُ آلبدنِ آلعفِنَةُ، فهذه جهةٌ، ومن ورائِها نَجِدُ في «آلقارحِ» لغويّاً ناقةً آستبانَ حَمْلُها، ولقد عَرَفنا في آلقِصّةِ آلأُسطوريّةِ أنّ آلحيّةَ بَدَأها آلخَلْقُ آلأوّلُ ناقةً وهذه جهةٌ أُخرى، ورأينا آلحَيّةَ في رمزيّةِ آلقِصّةِ تعيشُ مع كُلِّ بشريٍّ في عَمَلِ آلأخلاطِ آلأربعةِ آلمُرَكَّبِ منها. وفي **اللّزوميّات** شدَّ ما ذَكَرَ هذه آلأربعةَ وعَمَلَها وأثرَها في سَعْيِ آلأحياءِ، مِثْلَ قولِه: «جسدٌ من أربع»، (ل٣٠٣/٢)، وقَولِه «والنّاسُ من أربعٍ شتّى»، (ل١٦٠/٣).

فلِمَ لا نجِدُ في هذه آلاعتباراتِ ما يُساعِدُ على تقديرِ أنْ يكونَ آبنُ آلقارحِ، أيْ هذا آلمُرَكَّبُ آلإضافيُّ أو آلكُنْيةُ، آصطلاحاً للمعرّيّ، يعني به آبنَ آلقُروحِ أو آبنَ النّاقةِ آستبانَ حملُها، أي آبنَ آلأخلاطِ آلّتي آنتفخَتْ

وتملّأتْ بالنّزعاتِ؛ وبتعبيرٍ آخرَ، آبنَ آلبدنِ آلعَفِنِ، ويكونُ بهذا عندَه مُقابلاً لآبنِ يَقْظانَ أيْ آبنِ آلعقلِ آلكُلّيّ؟

ويُقوّي هذا التّقديرَ لدينا، الرّأيُ آلّذي سَنَأتي بآلكلامِ عليه، وهو أنّ **لزومَ ما لا يلزَم في النّثرِ والشّعرِ** كانَ مَقْصوداً للمعرّيّ جَزْياً وراءَ غرضٍ باطنيٍّ وَبِوَحْيِ آلباطنيّةِ، وروحِها أيضاً، بلْ صَرّحَ جهرةً في قوله:

كُشَيِّرٌ، أنا، في حَرْفي أهَبْتُ له
في التّاء، يلزمُ حرفاً ليس يُلتَزَمُ (ل١٥١/٤)

فآلتَزَمَ رَوِيَّيْنِ، رَوِيّاً ظاهراً وهو آلّذي تَنْتَهي به آلكلمةُ وما عليهِ النّاسُ، ورويّاً باطِناً وهو آلحَرْفُ قبلَه وفيه مُجْتَمَعُ آلقصْدِ. وعليهِ فآلقارحُ يَنبوعُ فسادِه في رويِّهِ الظّاهرِ، أي آلحاءِ آلّتي هي حَرْفُ آلحيّةِ أيضاً، وَرَوِيُّ صلاحِه في الرّويِّ آلباطنِ، أي الرّاءِ آلمُشَدَّدة.

وإذا صَحَّ هذا فآلمعرّيُّ يَرى أنّ آلبَشَريَّ إذا آنطلَقَ في تيّارِ آلأخلاطِ ونزعاتِها، كانَ «آبنَ قارحٍ»، وإذا أوْقَفَ فيه عملَها ومَحا حوّاءَه أو حَيَّتهَ كانَ «آبنَ القارِّ» أيِ الثّابتَ آلمُتَوَحّدَ أو آبنَ يقظانَ. وتأمَّلْ بعدَ هذا دِقّةَ تعبيرِه في ديباجةِ **رسالة الغفران** «وإنّ في مقرّي»، وفي هذا ما يُشَجِّعُ على آستنتاجِ أنّ في إمكانِ آلبشريِّ أن يُسْقِطَ «حاءَه» فيقرُّ ويسكُن أي يتوحّد.

وبرُغمِ أنّا نجِدُ عليَّ بنَ منصورٍ في التّراجمِ شَخْصاً يكادُ يكونُ شبهَ تاريخيٍّ، وبرُغمِ أنّا لا نَتحقّقُ من حياتِه سِوى ما حَدّثَنا به في رسالتِه، وسوى ما تَحَدّثَ به شَخْصٌ آخرُ يُدعى آبنَ عبدِ الرّحيمِ، وهو نَكِرةٌ أكثرُ من عليِّ بْنِ منصورٍ، لا نعرِفُ من أمرِه شيئاً.

مَعَ ذلك فأنا أقتَصِدُ في الشَّكِّ كثيراً، ولا أجِدُ ما يَحمِلُ على الرَّيبِ

فيه كشخصٍ عاشَ وتَقَلّبَ هنا وهناك، وآنتهى به آلأمرُ أنّه كتَبَ للمعرّيّ رسالتَه آلّتي عُرِفَ بها، ولولا هذه آلـمُناسبةُ السّعيدةُ بالنّظرِ إليه وإلى آلأدَبِ لَما عرفْناه وعَرَفَه التّاريخُ أبداً.

وإنّما أحصُرُ شكّي في كُنيةِ «آبنِ القارحِ»، وفي أنّه كانَ معروفاً بها، ويؤكّدُ هذا أنَّ آلـمُتَرْجمينَ له كانوا يقولونَ بعدَ ذِكْرِ آسمِه هذا التّعبيرَ «الـمعروفُ بدَوْخَلَةَ» فلوِ آشتُهِرَ بكُنيتِه آشتهارَه بلقَبِه لَعَرفوه بها فقطْ لِشَرَفِ آلكُنيةِ على آللّقبِ.

وأعتقدُ آعتقاداً لا يُخالجُني معه شكٌّ في أنّها، أيِ آلكُنْيَةَ آلـمَذْكورةَ، من خَلْقِ أبي آلعَلاءِ وآبتداعِه، آصطلاحاً في دائرةِ آلحَيِّ بالطّبيعةِ، لـمُقابلةِ آصطلاحِ «آبنِ يقظانَ» في دائرةِ آلحيِّ بآلعقلِ.

ولا تعجَبْ أنْ يَخْتَرِعَ مِثْلَ هذه آلكُنْيَةِ، فلهُ أشْباهُها مثلُ قولِه في **رسالة آلغفران**: «إخوان هذه آلخليقةِ»، (ص ٤٨١)، آلّتي آستعمَلَها آستعمالاً يُفيدُ أنّها تُقابِلُ «إخوانَ الصّفا» أو آلأصفياء.

قيمة الرّسالة الفلسفيّة

وآلآنَ نلفِتُ النّظرَ لَفْتاً عابراً إلى أهمّيةِ آلآراءِ في **رسالةِ الغفران** ومكانِها من فلسفتِه، فهي تُظهِرُنا بالدّرجةِ آلأولى على فعاليّةِ آلكَلِمةِ، بل فعاليّةِ إرادتِها وخَلْجَةِ آلعقلِ بها.

وتُظهِرُنا على آلقَسْرِ في التّسلسُلِ الطّبيعيِّ وآلحَيَويِّ، وفي دائرةِ آلحَياةِ وآرتباطاتِها يتمكّنُ آلبشريُّ من تَغييرِ مَوْضعِه من السّلسلةِ، وبتعبيرِ آلـمعرّيّ: من تَغْييرِ قافيتِه. وهو يسوقُ قصّة «أُمّ حِصْنٍ» مِثالاً وشاهداً، وليسَ لِلَهْوِ آلقافيةِ كما يُتوَهَّمُ في النّظرِ آلعَفَويِّ السّريعِ... كما نَجِدُ فيها شيئاً كثيراً

من مُناسباتٍ لُغَويّةٍ لا يُرسِلُها تظرّفاً ولا مُعاياةً، وإن كانَتْ لا تخْلو منهُما، ولكنْ لِتَعْنيَ مقاصِدَ جوهريّةً أُخرى، وسَنَأْتي على دَلالاتِها في بحثِ ٱلأقدار.

ومهْما يكنْ من شيءٍ، فإنّ **رسالةَ ٱلغفران** أغنى آثارِ أبي ٱلعلاءِ تعريفاً بفلسفتِه، كما نجِدُ فيها فنّيّةً أكثرَ حَبْكَةً ودِقّةً وٱنسجاماً، تشهَدُ بأنّها كانَتْ في قِمّةِ ٱقتعادِه ٱلفَلْسَفيّ وبلوغِه ٱلأوْجَ ٱلفنّيَّ الشّامخ.

ونحنُ لا نَتَحاشى حِيالَها من ٱلقولِ، أنّ المعرّيَّ أعطى بها أقدمَ أثَرٍ رَمْزيٍّ رائعٍ، يَجعَلُه ٱلخَليقَ بأن يُعَدَّ أبا الرّمزيّةِ في ٱلأدبِ، كُلِّ الأدبِ، وإنْ كانَ ٱلمعرّيّ قدْ سَجّلَ فخراً بمَلْهاتِهِ ٱلإلهيّةِ، فقدْ سَجّلَ برمزيّتِه فيها فخراً أكثرَ ٱستطالةً وأسمى تَصعيداً وسُموقاً...

مصادر رسالة الغفران

وٱستئناساً بهذه ٱلمناسبةِ أجدُ من ٱلخيرِ ٱلإشارةَ إلى مصادرِ **رسالة الغفران** ٱلحقيقيّةِ، ونحنُ لا نَرْجِعُ بها إلى أكثرَ من:

١ ـ ٱلأساطيرُ ٱلعربيّةُ عن ٱلّذينَ ٱستهواهم ٱلجِنُّ، وبٱلأخصِّ منهم «خُرافة» ٱلّذي قيلَ فيه: حديثُ خُرافةٍ يا أمَّ عمرو. وكانَ من خبرِ خُرافةَ أنّ ٱلجِنَّ ٱختطفتْه وطافَتْ به في داراتِها ثمّ أعادَتْه، فَطَفِقَ يُحدّثُ النّاسَ بغرائبِ ٱلأخبارِ، فقيلَ حديثُ خرافةٍ أيْ حديثٌ مُعْجِبٌ غريبٌ. قال:

لَـقَـدْ بَـعِـلَ ٱلـمَـرْءُ عَـمـرٌو بـهـا
فـصَـدَّ، عـنِ ٱلـكـاسِ، فـي بَـعْـلَـبَـكْ (ل٣/٢٧١)

٢ ـ أساطيرُ ٱلعَرَبِ عن ٱلغيلانِ، وحكاياتُهم على ألسُنِ ٱلحيوانِ وإنطاقُها بٱلمُثُلِ السّائرةِ، وأقاصيصُهم عن ٱلهَواتفِ ٱلّتي تنطِقُ بٱلأخبارِ

والشِّعرِ، وأحاديثُهم عن الشُّعراءِ وشياطينِهم، وأسمارُهم عن ٱلكواكِب:
أَبِيدَةُ قالَتْ للوُعولِ مُسِرَّةً:
تَبِدْنَ بحُكْمِ ٱللّهِ، ثُمّ أَبِيدُ
ولا أَدَّعي لِلْفَرقَدَيْنِ بعِزّةٍ
ولا آلِ نَعْشٍ، ما ٱدّعاهُ لَبيدُ (ل٢/١٤)

٣ ـ القرآنُ، وبٱلأخصِّ منه حكايةُ ٱلخضرِ في سورةِ ٱلكهفِ وسورةِ ٱلجنِّ فيما يتعلّقُ بهيكلِ مَلهاتِه، وأخبارُ ٱلجَنّة والنّارِ فيه، فيما يتعلّقُ بمادّةِ ٱلمَلْهاةِ.

٤ ـ الإسراءُ وٱلمعراجُ النّبويّان.

٥ ـ مجموعةُ ٱلأخبارِ ٱلحَديثةِ ٱلّتي تَدورُ حولَ ٱلجنّةِ والنّارِ من جهةِ أنّها مادّةُ ٱلمَلْهاةِ، بقطْعِ النّظرِ عن صِحَّتِها مثلَ ما يُروى أنّ في ٱلجنّةِ شَجَرةً من أعلاها حُلَلٌ، ومن أسْفَلِها خَيْلٌ بُلْقٌ من ذَهَبٍ، مُسْرَجَةٌ مُلجَمَةٌ بلُجُمٍ من دُرٍّ وياقوتٍ، لا تروثُ ولا تبولُ، لها أجنحةٌ خُطْوَتُها مدُّ بَصَرِها فتطيرُ بهم حيثُ شاؤوا. فيقولُ ٱلّذين همْ أَسْفَلُ درجةٍ: يا ربَّنا بِمَ بلَغَ عِبادُك هذه ٱلكرَامةَ كُلَّها، فيقولُ: بأنَّهم كانوا يَقومونَ ٱللّيلَ وكُنتُمْ تَنامونَ، وكانوا يَصومونَ النّهارَ وأنتمْ تأكُلونَ. ثُمَّ يجْعَلُ ٱللّهُ في قُلوبِهِمُ الرِّضا، فيرضَوْن وَتَقَرُّ أعينُهم، إلى كَثيرٍ من هذه ٱلأخبارِ الّتي لم يَبْرَحْها ٱلمعرّيُّ ٱستعارةً أوِ ٱحتذاءً.

٦ ـ رواجُ سوقِ ٱلقُصّاصِ وأحاديثِهم مَنْ مِثلِ خبرِ ٱلجسّاسةِ وخبرِ جبريلَ في بَدْءِ ٱلخَلْقِ وما إليها.

٧ ـ القَصَصُ ٱلأجنبيُّ مثل **كليلة ودمنة** وأسمارِ ٱلجَهْشَياريّ، ولا سيَّمّا **كليلة ودمنة** ٱلّتي قامَتْ على إنطاقِ أصْنافِ ٱلحيوانِ، ٱلعقيدةِ ٱلّتي

كانَ يقولُ بها بشّارٌ وسليمانُ ٱلأعمى، وٱلّتي رأيْنا كيفَ ٱستحالتْ عندَ ٱلمعرّيّ ٱستحالَتها الرّفيعةَ.

٨ ـ قصّةُ **سَلامان وأبسال** ٱلّتي ترجَمَها حُنَيْنُ بنُ إسحاقَ[٧]، وضَمّنَها ٱبنُ سينا بعضَ فُصولِ **الإشارات**[٨].

وكذلكَ مُطْلَقُ ٱلأساطيرِ ٱلّتي فَهِمَها فَهْماً رَمزِيّاً:

وإنْ صحَّ أنّ النَّيِّراتِ مُحِسَّةٌ[٩]
فَماذا نَكِرْتُمْ من وِدادٍ ومِنْ صِهْرِ
لَعَلَّ سُهيْلاً وهو فَحْلُ كَواكِبٍ
تَزَوَّجَ بِنْتاً للسِّماكِ على مَهْرِ
يَقولونَ تَأْتي فوقَنا، مِثْلَ ما أتى
بَنو ٱلأرضِ في حالِ السِّرارِ أوِ ٱلجَهْرِ
فيالَيْتَ شِعْري هَلْ تُراعُ من الرَّدى
وَتَرْكَعُ نُسْكاً بٱلعِشاءِ وبالظُّهْرِ
وَتكْذِبُ، إنّ ٱلمَيْنَ في آلِ آدَمٍ
غَرائِزُ جاءَتْ بالنِّفاقِ وبٱلعَهْرِ (ل٢/٢١٥)

٩ ـ رَسائلُ ٱلجاحظِ السّاحرةُ ٱلّتي مَدّتْهُ بعُنْصرِ السُّخْرِ ٱللّاذِعِ.

هذه مصادرُ مَلْهاتِهِ في تَأكيدٍ كَبيرٍ، بيدَ أنّها لا تَستَوي في قيمتِها ومُباشَرَتِها، ولكنْ دونَ ما رَيْبٍ، أنّ أهمَّها في ٱلمَلْهاةِ وأشدَّها مُباشَرَةً حَديثُ خُرافةٍ وٱلمِعراجُ، وما وراءَهُما، فمنْه ما أعانَ على ٱلمادَّةِ، ومنهُ ما أعانَ على إفراغِ ٱلألوانِ.

(٧) طُبِعَ مَطبعةِ ٱلجوائب سنة ١٢٩٨هـ، الآستانة.

(٨) شَرحُ **الإشارات**، ٱلمطبعة ٱلخيرية للخَشّاب سنة ١٣٢٥هـ، ٱلقاهرة، ١٠١/٢ ـ ١٠٤.

(٩) مُحِسّة: ذاتُ إدراكٍ حِسّيٍّ.

مقدّمة لُزوم ما لا يلزم

هذه ٱلـمُقَدِّمةُ ليسَتْ تَخْلو من لَفَتاتٍ، وَلَفتاتٍ مُشيرةٍ ناطِقَةٍ، وهي مُهِمّةٌ، ومُهِمّةٌ كَثيراً بِسبيلِ ما نَأْخُذُ أنفُسَنا بهِ من إيضاحِ فِكْرِ أبي العَلاء.

لا قيمة لتاريخ مقاطع اللّزوميات

وأوّلُ ما نتناوَلُ منها بَحْثُ ما يهتمُّ بهِ ٱلبعضُ ٱهتماماً ساذَجاً[1]، من ضَرورةِ تَرتيبِ **اللّزوميّاتِ** تَرتيباً تأريخيّاً، ٱلتِماساً لإدْراكِ تَطوُّرِ ٱلـمعرّيّ ٱلفِكريِّ ومراحِلِ هذا التطوُّرِ ومسافاتِ ما بينَها، وٱلتماساً أيضاً لرفْعِ ما نُحِسُّهُ مِن تَناقُضٍ بارزٍ عندَه. وبحثُنا هذا نُديرُه على تَساؤُلٍ نَجِدُهُ ضَرورِيّاً، وهو:

هلْ مِن فائِدَةٍ لِمثلِ هذا التّرتيبِ فيما إذا صحَّ وأمكن؟

وأنا أُجيبُ، بلسانِ أبي ٱلعَلاءِ نَفْسِه، بأنَّه غيرُ مَرْجُوٍّ ٱلفائدةِ، ضائعُ ٱلغايةِ، فإنَّ التّرتيبَ التّاريخيَّ ٱلـمَذْكورَ قَدْ يَضْمَنُ حقّاً بَيانَ تطوُّرِه

(١) في مقدّمة ٱلـمُهتمّينَ هذا ٱلآهتِمامَ الدّكتورُ عبد الوهّاب عزّام، وظَنُّ هو ومَنْ جاراه أنّ هذا التّرتيبَ التّأريخيَّ يَحُلُّ مُشكلةَ الحَيْرةِ عندَ المعرّيّ.

ٱلفِكريِّ، وقدْ يَضْمَنُ حقّاً بيانَ: في أيِّ عهدٍ نَظَمَ هذهِ ٱلقِطعةَ أو تِلك. إنّه قدْ يُعلِمُنا كلَّ ما نحنُ بحاجةٍ إلى عِلمِهِ ومعرِفَتِهِ، ولكنّه لا يَكْفُلُ ٱلغايةَ ٱلمتوخّاةَ أو شيئاً منها، مَعَ هذا ٱلمعرّيّ ٱلّذي جاءَ وَتَبَنّى مُتناقِضاتِهِ لا مِن جهةٍ أنّها أثرٌ من آثارِه، بلْ من جِهةٍ أنّها عَقيدةٌ بِجَميعِ ما فيها، وٱسمَعْه كيفَ يقولُ:

«كانَ من سَوالِفِ ٱلأقْضِيةِ، أنّي أنْشَأْتُ أبنِيَةَ أوْراقٍ، تَوخَّيْتُ فيها صِدْقَ ٱلكلمةِ، ونزَّهتُها عن ٱلكَذِبِ وٱلمَيْطِ، ولا أَزعُمُها كالسِّمْطِ المُتّخَذِ، وأرجو أن لا تُحسَبَ من السِّمَيْطِ.

فمِنْها ما هو تَمجيدٌ للّه ٱلّذي شَرُفَ عن التّمجيدِ، ووَضَعَ ٱلمِنَنَ في كلِّ جيدٍ، وبعضُها تَذْكيرٌ للنّاسينَ، وتنبيهٌ للرَّقَدةِ ٱلغافلينَ، وتَحْذيرٌ من الدُّنيا ٱلكُبرى ٱلّتي عبَثَتْ بٱلأُوَلِ، وٱستُجيبَتْ فيها دَعوةُ جِرْوَل، إذْ قال لأُمِّهِ:

جَزاكِ ٱللّهُ شرّاً من عَجوزٍ
ولَقّاكِ ٱلعُقوقَ مِنَ ٱلبنينا

فهيَ لا تَسْمَحُ لهم بٱلحُقوقِ، وهم يُباكِرونَها بالعُقوقِ. وإنّما وَصَفْتُ أشياءَ من ٱلعِظَةِ، وأفانينَ على ما تَسْمَحُ به ٱلغَريزةُ. فإنْ جاوَزْتُ ٱلمُشْتَرَطَ إلى سِواهُ، فإنّ ٱلّذي جاوزْتُ إليه، قولٌ عَرِيٌّ من ٱلمَيْنِ».

فٱلمعرّيُّ يُشْهِدُنا فيها على أنّها، أيِ **اللّزوميّاتِ**، لم تَكُنْ نَتيجةَ وتيرةٍ

مُتّصلةٍ أو خاطِرَةٍ آنسجَمَ فيها الزّمنُ، ويُشهِدُنا أيضاً على أنّها كُلُّها صِدْقٌ عَرِيَ من آلْمَيْنِ ونَزِهَ عن آلكَذِب.

ولعلَّ لِباحثٍ أنْ يَقولَ مَعَ آلآحتمالِ إنّ آلمعرّيَّ يُريدُ أنّ كُلَّ قِطْعَةٍ منها صِدْقٌ في وقتِها وحينِها، ولكنّه آحتمالٌ يَضْمَحِلُّ حينَما يَعودُ آلمعرّيُّ، بالذّات، فيؤكِّدُ أنّها كَلمةُ صِدْقٍ حتّى يومِهِ آلّذي شَهِدَ جمْعَها ورَصْفَها، وحَتْماً كانَ بعدَ تَمامِ نَظْمِها جَميعاً.

يَعْرِفُ هؤلاءِ آلّذين يعقِدونَ همَّهم على التّرتيبِ التّأريخيِّ لحلِّ مُشكلةِ أبي آلعَلاءِ، أنَّهُ متناقضُ آلخَطَراتِ على مَنْهَجِهم، ويعرِفونَ من كلمةِ آلمُقَدِّمةِ آلّتي أثْبَتْناها هنا، أنّ آلمعرّيَّ يَرْضى عنها كافّةً ويصِفُها بالصِّدقِ كافّة.

ويَعْرِفونَ أيضاً أنّ الصِّدقَ على التّناقضِ ليسَ يَستقيمُ إلّا بآستمرارٍ، وهذا ينقُضُ ما يَتَوَهَّمونَ من أطْوارٍ ومراحلِ آنتقالٍ، بلْ عَلى طَريقتِهم هذه يَحْكُمونَ عليه حُكماً قاسياً بأنّه ما بَرَحَ منزِلَةَ حَيْرَتِه، ولا آستطاعَه.

لهذا أجِدُني غيرَ مُؤْمنٍ بقيمةِ آلمُحاولةِ آلمذكورةِ، غيرَ مُطْمَئِنٍّ إلى فائدتِها، بلْ على آلعكسِ تُقدِّمُه لنا في مُشْكِلَةٍ تُداخِلُها مُشْكِلَةٌ أُخرى، حينَ نُثْبِتُ تناقُضَه ونُثبِتُ آطمئنانَه إلى أشْياءِ هذا التّناقُضِ جميعاً. فلوِ آتّفَقَ وتمَّ لنا تأْريخُ مَقْطوعاتِه في **اللّزوميّات** وكانَ ما يُفيدُ آليقينَ آلخالصَ آخرَها، فماذا نَصْنَعُ بآلمُقَدِّمة آلّتي وصَفَتِ آلمَقْطوعاتِ كُلَّها بالصِّدق.

رمزيّة النّوق والأفراس

وقبلَ آلمُضِيِّ في دَرْسِ النّصّ آلّذي آنتزعْناهُ من مُقَدِّمة **اللّزوميّاتِ**

وأثْبَتْناه في هذا ٱلفَصْلِ، نُنَبِّهُ على أنّ التَّوْرِيَةَ وٱلملاحِنَ فيها مثلُ رابطةٍ لهذه ٱلقِطعةِ، كما وَجَدْنا في ديباجةِ **رسالة الغفران** أنّها تدورُ على ٱلمُشْتَرَكِ ٱللَّفظيِّ مثلَ رابطةٍ لها.

وأيضاً نُنَبِّهُ على شيءٍ مُهِمٍّ، وهو أنّنا لا نَسْتَشْعِرُ في مُقَدِّمةِ **اللّزوميّات** تَعَمُّلاً باطنيّاً وإلْحاحاً في هذا التّعمُّلِ، كما لا نَسْتَشِمُّ ذلكَ ٱلغَبَقَ ٱلباطِنيَّ ٱلكَثيفَ بٱلمِقدارِ ٱلّذي نستشعرُهُ ونستشمُّهُ في ديباجةِ **رسالة الغفران**، وهذا يُشعِرُنا بأنَّ هذه ٱلأحْدَثُ تأْليفاً وتَصْنيفاً.

ولْنفرَغْ من بعدُ، إلى كشْفِ ٱلمَعْنى ٱلمقْصودِ بٱلقِطْعَةِ، وهو قَطْعاً خِلافُ ٱلمَعْنى ٱلمُتَبادرِ منها عَفْواً. وٱلمعرّيّ في نظرِنا نثَرَها تَحْتَ خَيالِ ٱلقَضاءِ ٱلّذي شَبّهَهُ بٱلأفراسِ وٱلخُيولِ ٱلمُنْطَلقةِ، وتحتَ خَيالِ الدُّنيا ٱلّتي شَبَّهَها بالنّاقةِ ٱلمَهْروتَةِ ٱلأشداقِ كِبَراً، ولقد أُولِعَ ٱلمعرّيُّ بتَشْبيهِ وَقْعِ ٱلقَدَرِ وتصاريفِ ٱللّيلِ والنّهارِ بٱلأفْراسِ ٱلمُنْطَلِقَةِ:

أغــارَتْ عــلــيــهِــمْ خُــيــولُ الــزَّمــانِ
كَــأنَّ خُــيــولَــهُــمْ لــم تُــغِــرْ (ل٢/٣١٤)

ويَنْبَغي، بينَ يَدَيِ النّصِّ ٱلمُثْبَتِ، أن نُثيرَ تَساؤُلاً، وهو: لِماذا ٱتَّخَذَ ٱلخُيولَ مَلْحَناً عن ٱلقَضاءِ؟ نجِدُ ٱلجَوابَ في ٱلأمْثالِ ٱلعربيَّةِ ٱلقَديمةِ وفي أقاصيصِها، فٱلعربُ يقولونَ: «إنّ الفرسَ لا يشرَبُ الماءَ إلّا كَدِراً، وإذا كانَ صافياً كَدَّرَهُ، وإنّه حَديدُ ٱلبَصَرِ، ويَقولونَ إنّ ٱلفَرَسَ لا طِحالَ له، وهو مَثَلٌ لسُرعةِ وَثْبتِه وخَفّةِ حركتِه، ويقولونَ إنَّ في ٱلفَرَسِ عِشرينَ عُضواً، كلُّ عُضوٍ منها يُسمّى بٱسمِ طائرٍ، فمنها: النَّسْرُ وٱلنّعامةُ وٱلهامةُ وٱلبازُ، والسَّمامةُ والسَّعدانةُ ـ وهي ٱلحَمامةُ ـ، وٱلقَطاةُ والذُّبابُ وٱلعُصفورُ وٱلغُرابُ والصُّرَدُ، وٱلخُرْبُ ـ وهو ذَكَرُ ٱلحُبارى ـ، والنّاهِضُ ـ وهو فرخُ

ٱلعُقابِ ـ، وٱلخُطّافُ... إلخ. وفي خَبَرٍ: ٱلخيرُ في نَواصي ٱلخَيلِ، وفي آخَرَ: الشُّؤْمُ في ٱلفَرَسِ»[٢].

وإذا تأمّلْنا ٱلفَرَسَ من خِلالِ هذه ٱلخَصائصِ ٱلمُضافةِ إليه وٱللّاحقةِ به، وأدْنَينا ٱلمَنْهَجَ ٱللُّغويَّ منِ ٱعتبارِنا، وأخذْنا مَجْموعةَ أعضاءِ ٱلفَرسِ ٱلمُسَمّاةِ بمَجموعةٍ من أسماءِ الطُّيورِ لها خصائصُها ٱلمُخْتَلِفَةُ وٱلمُتَناقِضَةُ، نتَوَصّلُ إلى أنّ في ٱلفرسِ مِثْلَ هذه ٱلألوانِ من ٱلخَصائصِ ٱلمُخْتَلِفةِ، وٱلقَضاءُ أو ٱلقَدَرُ في مواقِعِه مجموعةٌ مِنْ هذه ٱلخَصائِص.

إذاً فٱلأقدارُ أفراسُ ٱلغَيْبِ ٱلمُجَنَّحَةُ، وهي تَقَعُ في مثلِ سُرْعَتِها وشِدَّتِها وسَعْدِها وشُؤْمِها، وهذه كِنايةٌ إذا تأمّلنا ألْوانَها على ضَوْءِ خصائصِ كلِّ طائرٍ منَ الطُّيورِ ٱلعِشْرينَ، ٱلمُجْتَمِعَةِ بأسمائِها في هيكَلِهِ ٱلعُضويِّ، تَبْدو مُدْهِشَةً بلْ لا حدَّ لجَمالِها.

ولا تَسْتَبْعِدْ ما نُشيرُ إليه من هذه ٱلكِناياتِ ٱلمُرَكَّبَةِ وٱللّوازمِ ٱلبَعيدةِ، فٱلمعرّيُّ، فضلاً عن كَوْنِهِ باطنيّاً من نَوْعٍ باطنيّةٍ خاصّةٍ، تولّاه عَصْرٌ أخَذَ بهذه ٱلكِنايةِ ٱلمُرَكّبةِ في قِسْمٍ كبيرٍ من إنتاجِه ٱلأدبيِّ.

فقد شَهِدْنا عندَ شاعرٍ قديمٍ كِناياتٍ أكثرَ تَداخُلاً وأعسرَ تَعقيداً، حين يَصِفُ غادةً بأنّ ٱلجهْلَ في قرْطِها وٱلعِلْمُ في خَلْخالِها، كِنايةً عن طولِ عُنُقِها وسُمْنةِ ساقَيْها. وذلكَ لأنّ ٱلجَهْلَ يلزَمُهُ الطّيشُ وخفّةُ ٱلحَرَكَةِ، وأنّ خِفّةَ ٱلحَرَكةِ يلزَمُها ٱلمسافةُ بأنْ تَكونَ بَعيدةَ مَهْوى ٱلقرْطِ والشَّنَفِ، وبُعْدُ مَهْوى ٱلقرْطِ يَلْزَمُه طولُ ٱلعُنُقِ، وأنّ ٱلعِلْمَ يلزَمُهُ ٱلوَقارُ والسُّكونُ،

(٢) راجِعْ **حياة الحيوان** للدّميريّ، ٢/٢٥٠، ٢٦٦، ط ٱلمطبعة ٱلأدبيّة سنة ١٣١٩هـ، ٱلقاهرة.

وأنّ السُّكونَ يَلْزَمُهُ كَوْنُ وَسْواسِ ٱلحُلِيِّ صامتاً، وأنّ هذا الصُّموتَ تَلْزَمُهُ سُمْنَةُ ٱلمُخَلْخَلِ أو السّاقِ:

بَـدرُ تمٍّ، تَـنَـهَّـرَ[٣] ٱلـلّـيـلُ مِـنْـه
وأخـو ٱلـحُـبّ ذاهِـلٌ مـفـتـونُ
عِـلْـمُ خَـلْـخـالِـهـا وجَـهْـلُ شُـنـوفٍ
أبـرزَتْـهـا الـظُّـنـونُ وهـي فُـتـونُ

وٱستمرَّتْ هذه الظّاهرةُ في لَوْحاتِ ٱلأدبِ ٱلعَرَبيِّ من بَعْدُ، فهذا ٱبْنُ ٱلخطيبِ ٱلأندلُسيُّ في مُوَشَّحِهِ ٱلمشهورِ يقولُ بِتَصَنُّعٍ من هذا النّوعِ في الشَّطْرَيْنِ التاليَيْنِ:

ورَوى الـنُّـعـمـانُ عـن مـاءِ الـسَّـمـا
كـيـفَ يَـرْوي مَـالِـكٌ عـن أنَـسِ

فَقَدِ ٱستغلَّ ما يُعرَفُ عندَ عُلماءِ ٱلحَديثِ بٱسمِ سِلْسلةِ الذّهبِ، وهي روايةُ مالكٍ عن نافِعٍ عن أنَسٍ، في وصفِ زهْرِ شقائِقِ النُّعمانِ بأنّها ذهبيَّةُ ٱللَّونِ...

وكذلكَ هي ٱلكِنايةُ بالنّاقةِ عن الدُّنيا تنبُعُ من النّبعةِ نفسِها. ولقد سَبَقَ، في فَصْلٍ مَضى، ما يَشْرَحُ وجهَ ٱلكِنايةِ فيها.

ومِنْ هُنا نَرى في ٱلقِطْعَةِ ٱلمَذْكورةِ خَيالاً ٱنعقَدَ على أنّ ٱلمَعْرَكَةَ بينَ ٱلعَناصرِ ٱلّتي تَلُفُّ ٱلحَياةَ وٱلأحياءَ وَبَيْنَ ٱلأقدارِ، كَمِثْلِها مَعْرَكةٌ بين أفراسٍ ونُوقٍ، وهو، أي ٱلمعرّيُّ، عَوْنٌ للأقدارِ على ٱلعناصِرِ يستَسْلِمُ لها ويَسْتَرْخي في مَهَبِّ إعصارِها.

(٣) تَنَهَّر هنا يعني: تَصَيَّر ٱللّيلُ به نَهاراً، وهو ٱستعمالٌ عبّاسِيٌّ مُوَلّد.

وفي آتّجاهِ هذهِ آلـخَيالاتِ نأخُذُ آلقِطْعَةَ آلـمَذْكورةَ، لِنرى صِدْقَ ما آدّعَيْنا من هذه آللَّفتاتِ عِنْدَه، ونَتَقَدَّمُ بشَرْحِ آلـمُفْرداتِ وملاحِظِها:

سوالف: في آللُّغة جَمْعُ سالِفة، بمَعْنى آلـحِقْبَةِ آلـماضيةِ، ومن آلفَرَسِ هاديتُهُ، أيْ ما تقدَّمَ من عُنُقِه، آلـمَقْصودُ هنا هادِيةُ آلفَرَسِ مُلاحِظاً فيه خَبَرَ «آلـخيرُ في نَواصي آلـخَيْلِ» ولاحِناً إلى السَّلَفِ بمَعْنى كُلِّ عملٍ صالحٍ قدّمتَه أو كُلِّ فَرَطٍ آدّخَرْتَه وآحْتَسَبْتَه.

الأقضية: في آللُّغةِ جَمْعُ قضيَّةٍ بمَعْنى واحدةِ آلقَضايا، وبمَعْنى آلقَضاءِ آلـحَتْمِ، والثّاني هو آلـمَقْصودُ.

أبنية: في آللُّغة جمعُ بِناءٍ، أيِ آلـمُشَيَّدُ أو النَّحْويُّ ضِدُّ آلإعرابِ، وآلـمَقْصودُ آلأوّلُ لاحِناً إلى الثاني.

الـميط: في آللُّغة آلبُعْدُ وآلـجَوْرُ، وآلـمَقْصودُ الثّاني لاحِناً إلى «المَيّاط» أي آللعّابِ آلبَطّال.

السِّمْط: بآلكسر في آللُّغة ذو معانٍ منها: خَيْطُ النَّظْمِ وآلقِلادةِ، وآلفَطِنُ الدّاعيةُ في أمْرِه، وآلـمُرادُ هنا الثّاني لاحِناً إلى السِّمْطِ بمَعْنى الدّاهي.

الـمتّخذ: من آلأَخْذِ، ومن آلأُخْذَةِ، رُقْيَةٌ كالسِّحْرِ وخَرَزَةٌ يُؤَخَّذُ ويُسْحَرُ بها، وآلـمَقْصودُ الثاني.

السّميط: في آللُّغة: آلآجُرُّ بَعْضُه فَوْقَ بَعْضٍ، وآلـخفيفُ آلـحالِ، وآلـمَقْصودُ الثّاني لاحِناً إلى آلأوّل.

الكُبرى: هنا من آلكِبَرِ بمعْنى الشَّيخوخَةِ لا السَّعَةِ وآلآمتدادِ. ولاحِظْ قاعدةَ آلـمقاليبِ، أي آلآشتقاقَ آلكَبيرَ، وهي تَقْضي بأنّ بينَ صُورِ الثُّلاثيِّ

وحدةً معنويّةً مع فارقٍ آقتضَتْهُ منزلةُ آلحَرْفِ، فَبَيْنَ البَكْرَةِ من النُّوقِ وآلكُبرى جامعٌ معنويٌّ.

الأُمّ: الأمُّ آلوالدةُ والدُّنيا.

الحقوق: جمعُ حَقّ، وآلمُرادُ هنا جَمْعُ حُقٍّ بالضّمّ، أي بَيْتُ آلعنكبوتِ.

باكر: من آلبُكورِ، وآلبَكْرَةُ آلفتيَّةُ من آلإبِلِ، وآلمَقْصودُ آلأوّلُ لاحِناً إلى آلثّاني.

العقوق: بالضّمِّ ضدُّ آلبِرِّ، وبآلفَتْحِ مِنْ أعْقَتِ آلفَرَسُ حَمَلَتْ، والثّاني هو آلمَقْصودُ.

أفانين: جمعُ أُفنونٍ بمَعْنى آلكَلامِ آلمُتَبَّجِ وآلغُصْنِ آلمُلْتَفِّ، وآلحَيّةِ، وآلجَرْيِ آلمُخْتَلِطِ ـ من جَرى آلفَرَسُ والنّاقةُ ـ وآلمَقْصودُ هنا آلجَرْيُ آلمُخْتَلِطُ لاحِناً إلى الحيّةِ...

ولنسمَعْ بعدَ هذا كيفَ يَقولُ:

كانَ من آلأقدارِ آلخَيِّرةِ حِيالَه آلّتي يَحْسَبُها مِثْلَ نَواصي آلخَيْلِ وآلّتي مَدَّتْهُ بمِثْلِ آلأفراطِ آلمُحْتَسَبَةِ، أنّه أنشأَ مُقَطّعاتٍ شعريّةً فيها طبيعةُ آلبِناءِ أي الثّابتُ، قَصَدَ فيها صِدْقَ آلكَلِمَةِ وَنَزَهَها عن آلكذِبِ وآلعَبَثِ آلمُتَجَنّي، وهو لا يزعُمُها كآلقِلادةِ آلمُسْتَهْوِيَةِ.

ويَرْجو أن لا تُحْسَبَ رَصْفاً مُتراكِماً ضَعيفاً، أي مِنْ وَحْيِ خَرِفٍ ضَعيفٍ، فمِنْها ما هو تَمْجيدٌ للّهِ آلّذي شَرُفَ عن التَّمْجيدِ وَوَضَعَ آلمِنَنَ في كُلِّ جيدٍ، وبعضُها تَذْكيرٌ للنّاسينَ، وتنبيهٌ للرَّقَدةِ آلغافلينَ، وتَحْذيرٌ من الدُّنيا آلبَدّادِ آلّتي هي كالنّاقةِ

الشّائِخَةِ، وٱلّتي عَبَثَتْ بٱلأوائِلِ وٱسْتُجيبَتْ فيها دَعْوَةُ جِرْوَلٍ، أي ٱلحُطيئةِ.

وهذه الدُّنيا الشّائخةُ ٱلمُتَهَرِّئَةُ، لا تَمُدُّ إليهم يَدَ السَّماحِ ولو بِمِثلِ بُيوتِ ٱلعنكبوتِ ٱلواهنةِ ثَباتاً، وهمْ يُقْبِلونَ عَلَيْها في نَشْطَةِ ٱلفتيّةِ من الإبِلِ، وٱلقَدَرُ من ورائِهم كٱلفرسِ ٱلعَقُوقِ ٱلحامِلِ...

يُريدُنا أن نعرِفَ أنّه ساقَ أشياءَ من ٱلعِظَةِ، ورسَمَ أفانينَ، أي أشْواطاً، مُخْتَلِطةً من جَرْيِ أفراسِ ٱلأقْدارِ ونُوقِ ٱلحياةِ، مُفْرِغاً في وَصْفِها حيّةً، أي زَهادةً مُتَوَحِدّةً مُتَوَجِّعَةً، على مُقْتَضى ما تَسْمَحُ به ٱلغريزةُ ٱلجاسئَةُ، أي ٱلجافيةُ ٱلقاسيةُ، ٱلّتي عَبَّرَ عنها في بعضِ رسائِلِه بقولِه: «إنْسيُّ ٱلوِلادَةِ وَحْشيُّ ٱلغَريزةِ»:

غَدَوْنا سائِرينَ على وِفازِ
صُحَاةً، مِثْلَ شُرّابٍ ثِمالِ
عَلى ٱلفَرَسَيْنِ، لا فَرَسَيْ رِهانٍ
أوِ ٱلجَمَلَيْنِ، ليسا كٱلجِمالِ (ل٤/٩٢)

(يَعْني بهما ٱللّيل والنّهار).

ثمّ يقولُ: وإن جاوَزَ ٱلمُشْترطُ، أي رَسَمَ مجاريَ ٱلأقدارِ ومجارِيَ ٱلحَياةِ، إلى أشياءَ أُخرى، فإنّ ٱلّذي جاوزَ إليه قَوْلٌ عَرِيٌّ من ٱلكَذِبِ أيضاً...

هذه هي ٱلقِطْعَةُ كما أفْهَمُها وأتذوَّقُها، وتأمّلْ عَظَمَةَ هذا التّصَوُّرِ ٱلقائمِ على مَزيجٍ مُخْتَلِطٍ منِ ٱلتواءِ جَرْيِ ٱلقَدَرِ على جَرْيِ ٱلحياةِ إلى غايةٍ مُبْهَمةٍ، مثلَ جَرْيٍ مُخْتَلِطٍ من ٱلخُيولِ وٱلأيْنُق.

وَوَحْدَةُ ٱلقِطْعَةِ قائمةٌ على النّاقةِ، أي ٱلحياةِ، مِثْلَما ٱلحيّةُ، أي الزّهادةُ،

هي وَحْدَةُ ديباجةِ **رسالة الغفران**، ومن هنا نَفْهَمُ تماماً سِرَّ كلمتِه ٱلّتي ٱفْتَتَحَ بها:

«قالَ أبو العَلاءِ الضّريرُ رَهَنُ ٱلمَحْبَسَيْنِ، وإنّما قالَ بقَضاءٍ لا يَشْعُرُ كيفَ هو» يَعْني كٱلفَرَسِ ٱلعَقوقِ أي ٱلحامِلِ، لا يُدرى ماذا سَتجيءُ به من خيرٍ أو شرٍّ.

نَـرْجـو غـداً، وغَـدٌ كـحـامِـلَـةٍ
فـي ٱلـحَـيِّ، لا يَـدْرونَ مـا تَـضـعُ...(٤)

المعنى العلائقي للزوم ما لا يلزم

ثُمّ يَقولُ: «وَجَمَعْتُ ذلكَ كلَّهُ في كِتابٍ لقَّبْتُه **لزوم ما لا يلزم**»، وقدْ أشَرْنا إشاراتٍ لامِحَةً إلى مَعْنى هذا ٱلاصْطلاحِ ٱلعَروضيِّ، ٱلّذي تَحَوّلَ عندَ أبي ٱلعَلاءِ تَحَوُّلاً فلسفيّاً طَريفاً. وعلى ضوءِ تِلكَ ٱلإشاراتِ نَسْتطيعُ أن نُدْرِكَ تَماماً، ونَتَصَوَّرَ تصوُّراً شامِلاً، ٱلغايةَ من **اللّزوميّات** وٱلقَصْد ٱلكامِنَ فيها.

فقدْ عَرَفْنا أنّ **لُزومَ ما لا يلزم**، يُعبِّرُ عن ظاهرةِ نزعةٍ باطنيّةٍ بما فيه من رَوِيّيْنِ: ظاهرٍ وباطنٍ. وعَرَفْنا أنّه ٱعتزالٌ بٱلقافيةِ وأخْذٌ لها بطائِفَةٍ من ٱلوسائلِ ٱلقاسيةِ الصّعبةِ. وعَرَفْنا من سيرةِ ٱلمعرّيّ أنّه أخَذَ نفسَه بِمِثْلِ هذه ٱلوسائلِ ٱلمُضْنِيَةِ، فكانَ في مَحْبَسَيْنِ مثلَما هي في رَوِيَّيْنِ، إذاً فهو ٱلقافيةُ ٱلمُلتَزِمُ فيها، أي ٱلمُتَوَحِّدةُ مثلَما كانَ متوحِّداً.

وهذا بدونِ رَيْبٍ، يَقْتادُنا إلى لَمْسِ ٱلغايةِ من **اللّزوميّات** ٱلّتي تُداوِرُها وتَدورُ عليها، وهي أنّها بيانٌ لمناهِجِ ٱلمُتَوَحِّدِ وأُسلوبِ تأمُّلِهِ، كيفَما

(٤) البيتُ لبشّار بنِ بُرد.

ٱلْتَفَّتْ عليه ٱلخَطَراتُ وَوَقَعَ به طائرُها.

فٱلمُتَوَحِّدُ يَنْبَغي أن يأْنَسَ بكُلِّ ما يَضْطَرِبُ في نَفْسِه، ويأنَسَ طَويلاً بتَحْليلِه ويتمهَّلَ أيضاً على مختلِفِ وجوهِه وأوضاعِه، وإن كان بُطْلاً أو نُكْراً، وبهذا يُروِّضُ فِكْرَه بالتّأمُّلِ ٱلخالِصِ مِثْلَما يُروِّضُ طبيعَتَه بالتّزهُّدِ ٱلخالِصِ، فَيَتَحَرَّرُ عَقلاً وطَبيعةً، ويَسْتَوي تَحْريضاً وٱستجابةً.

ولا نَتَوَسَّعُ بِشَرْحِهِ، فَلَهُ محلُّهُ، وإنّما أثَرْنا طَرَفاً من حديثِه، بِقَصْدِ إيضاحِ ٱلاسمِ ٱلّذي ٱختارَه لمَجْموعتِه الشِّعريّةِ، وٱلّذي يَعْني مناهجَ ٱلمُتَوَحِّدِ وتأمُّلاتِه. ويُؤَكِّدُ صِحّةَ هذه ٱلكنائيّةِ فيه ما رأيْنا في مَطْلَعِ ٱلمُقَدِّمةِ، من أنّ **اللّزوميّات** تَصِفُ أفانينَ من مَجاري ٱلأقْدارِ ٱلمُنْصَبَّةِ في أقنيةٍ من مَجاري ٱلحياة...

رمزيّة ناقة ثمود

وإذْناءً للمعرّيّ من كُلِّ أطْرافِه الشّاردةِ، ولَحاقاً به في ٱمتداداتِ خَيالِه النّادِّ، نبحَثُ بَداةً النّاقةَ في مُقَدِّمةِ **اللّزوميّات**، مِثْلَما بَحَثْنا بداةً ٱلحَيّةَ في ديباجَةِ **رسالة الغفران**.

نَجِدُ بُذورَ كِنائيّةِ ٱلنّاقةِ في ٱلأقاصيصِ ٱلعربيّةِ وٱلقُرآنِ وٱلآثارِ النّبويّةِ؛ فٱلعربُ شَبَّهوا ٱلحياةَ بالنّاقةِ وقالوا حولَها كثيراً، وٱلقُرْآنُ يُحدِّثُنا عن النّبيِّ صالحٍ وناقةِ ثمودَ، وٱلآثارُ تَقُصُّ علينا نَبَأها في تَفْصيلٍ كبيرٍ.

فقد رُوِيَ أنّ سيِّدَ ثمودَ، جُنْدُحَ بْنَ عمرٍو، قال: يا صالحُ أخْرِجْ من هذه الصَّخرةِ ـ وأشارَ لصخرةٍ مُنْفَرِدَةٍ في ناحيةِ ٱلحِجْرِ يُقالُ لها ٱلكاثِبَة ـ ناقةً مُخْتَرَجَةً جَوْفاءَ وَبْراءَ عَشْراءَ، فصلّى صالحٌ رَكْعتيْنِ ودَعا ربَّهُ،

فتمخَّضَتْ تَمَخُّضَ النَّتُوجِ بولدِها، ثُمّ تحرّكَتْ فآنصدَعَتْ عن ناقةٍ بالصِّفاتِ نفسِها، وقد نَتَجَتْ سَقَباً مثلَها عِظماً فآمَنَ جُنْدُح.

فقالَ صالحٌ «هذه ناقةُ آللّهِ لها شِرْبُ يومٍ ولكم شِربُ يومٍ معلومٍ»، فعقَرَها قُدارُ بنُ سالفٍ فكَمَنَ لها في أصْلِ شجرةٍ على طريقِها، فلمّا مَرَّتْ به شدَّ عليها بالسّيفِ، فجَرَتْ ورَغَتْ رُغاءةً واحدةً تُحَذِّرُ سَقَبَها، فآنطَلَقَ السَّقَبُ ناشِطاً حتّى أتى جَبَلاً مَنيعاً يُقالُ له صَنْو، فأتَوْا صالِحاً يعتذِرون.

فقالَ: آنْظُروا هل تُدرِكونَ فَصيلها؟ فإنْ أدركتُموهُ فعَسى أن يُرْفَعَ عنكُمُ آلعذابُ، فخَرَجوا يَطْلُبونَه ولكنَّ آلجَبَلَ تَطاولَ إلى السَّماءِ حتّى ما ينالُهُ الطّيرُ.

وكان عَقْرُ النّاقةِ يومَ آلأربعِاءِ، فأصبَحوا يومَ آلخَميسِ ووُجوهُهمْ مُصْفَرَّةٌ، وفي آلجُمُعةِ آحمرّتْ ثُمَّ أُخِذوا يومَ السّبْتِ. وأتى صالحٌ بلدةَ حاضورَ في آليمنِ وما لبثَ أن ماتَ فسُمِّيَتْ حَضْرَمَوْت... إلخ(٥).

ونحنُ، إذا أخذْنا هذه النُّتَفَ مِمّا طافَ بالنّاقةِ وضَمَمْنا إليها مَطْلَعَ **اللّزوميّات**، نَجِدُ في إحداهُما «قدار بن...» وهو من مادّةِ آلقَدَر، وفي **اللّزوميّات**: سوالف آلأقْضِيَةِ، ونَجِدُ خَيالَ ناقةٍ هنا، وناقةٍ هناك، إلى وُجوهٍ تَشابهٍ كثيرةٍ. مِمّا نعتقدُ معه أنّ النّاقةَ، وما دارَ حولَها، آستحالَ في نَفْسِهِ آستحالةً رمزيّةً خالبةً. ومن آلخَيْرِ أن نكشِفَ عن وَجْهِ آلكِنايةِ فيها على ما يتَبَدّى لنا ويَظْهَرُ.

رَأَيْنا النّاقةَ في آلخَلْقِ آلأوّلِ حيّةً، عُقوبةً لها، ونَرى هنا أنّ النّاقةَ تُعبِّرُ عنِ آلحياةِ، إذاً فقدْ غَوِيَتِ آلحياةَ وباتَتِ آلغِوايةُ فيها طَبيعةً ثابتةً. وأنّ

(٥) راجِع **حياة الحيوان** للدّميريّ، ٢/ ٢٠٠ ، ٤٠٦.

صالحاً، أي الصَّلاحَ، لا يتمُّ إلّا بآنفطارِ حَياةٍ جديدةٍ، على يدِ ٱلمُتَوَحِّدِ ٱلأكملِ، مِثْلَ ناقةٍ صالحٍ، أي هذه الدُّنيا ٱلفاضلةِ أو ٱلشّريعةِ ٱلّتي أرادَها ورَسَمَ خُطوطَها مُتَوَحِّدُ ثَمود.

ولقدْ نتَجَتْ ناقةُ ٱللّهِ هذه فَصيلاً واحداً مُتألِّهاً، ولقدْ عاشَتْها ثَمودُ حيناً، ولكنْ عادَ فَغالَها قُدار (لاحِظْ أنّ قُدارَ كهُمام في ٱللُّغةِ بمعنى الثُّعبانِ ٱلعَظيم، ولاحِظْ أنّها من مادَّةِ ٱلقَدَرِ) بْنُ سالِفٍ (لاحِظْ أنّ سالِفاً من السَّلَفِ وهو في ٱللّغةِ ٱلأديمُ لم يُحْكَمْ دَبغُه، أي ٱلجَسَدُ لم يُنَقَّ) قال:

لم تَدْرِ ناقَةُ صالحٍ لمّا غَدَتْ
أنّ الرَّواحَ يَحُمُّ فيه قُدارُ (ل٢/١٥٠)

*

خَطْبٌ تَساوى فيهِ آلُ مُحَرِّقٍ
ومُلوكُ ساسانٍ، ورَهْطُ قُدارِ (ل٢/٢٧٧)

وٱلمعْنى أنّ أفاعيَ الشَّهَواتِ عادَتْ فَصَرَعَتْها، ولقدْ ضَنَّتْ بفَصيلِها أنْ تلتفَّ عليه، فرغَتْ تُحذِّرُه، فآنطلقَ ناشِطاً إلى عُصُمِ ٱلجَبَلِ ٱلحامي. قالَ مُشيراً إليه:

وآهْرُبْ من النّاسِ ما في قُربِهِمْ شَرَفٌ
إنّ ٱلفَنيقَ إذا دانى الأنِيسَ عُقِرْ (ل٢/٣٠٠)

على أنّ ٱلأفاعيَ حاولَتْه فآستَعْلَتْ به ٱلعُزْلةُ إلى ٱلآفاقِ ٱلمُجَنَّحَةِ، ولقدْ سارَ صالحٌ وحَضَرَ ٱلموتُ وحلَّتِ النّكباءُ.

*

فكرُ المتوحّد

هذه هي ٱلقِصّةُ في رمزيّتِها عندَ ٱلمعرّيِّ، ولقدِٱستقامَتْ في خيالِه بإيحاءٍ من ٱلمُتنبّي، ٱلّذي ٱستعادَ روُحَ ٱلقِصَّةِ في روحِه وهتَفَ بها في قولِه:

أنـــا فـــي أُمّـــةٍ تَـــدارَكَـــهـــا ٱلـــلّـــهُ

غَـــريـــبٌ كـــصـــالـــحٍ فـــي ثَـــمـــودِ

وأبو الطيِّبِ تنبّأ بٱلفِعلِ، وبٱلأحرى[٦] تألَّهَ وٱضْطُهِدَ بٱلفِعلِ، وٱلمعرّيُّ مُعجَبٌ به مُولَعٌ حتّى لـمْ يكْتُمْنا منه ذلك، على أنّه أحَسَّهُ بارِزاً في نَفْسِهِ فذهبَ إلى أنّه يَعْنيه بقوله:

أنـــا ٱلّـــذي نَـــظَـــرَ ٱلأَعْـــمـــى إلـــى أَدَبـــي

وأسْـــمَـــعَـــتْ كَـــلِـــمـــاتـــي مَـــنْ بِـــه صَـــمَـــمُ

فٱنعقَدَ تَصَوُّرُه على أنّ ٱلمُتنبّي هو صالحٌ، وهو النّاقةُ، أي شَرْعَةُ ٱلحياةِ ٱلجديدةِ، وعلى أنّه هو، أي ٱلمعرّي، الفَصيلُ ٱلّذي نتَجَتْه نِتاجَ الذّاتِ بالذّاتِ، وٱلجَوْهَرِ بٱلجوهرِ، ولقدْ رَغا له يُجذِّرهُ فَخَفَّ ٱلمعرّيُّ كما خَفَّ ٱلفَصيلُ، يتمنّعُ من دُنيا ٱلأفاعي والشَّهواتِ. ولقد طَلَبَهُ النّاسُ كعَوْذَةٍ لهم من ٱلعِقابِ، ولكنْ تَصاعدَ به الطّورُ وغابَ في ٱلعَلْياءِ.

وعَلى ضَوْءِ هذهِ الرّمزيّةِ، نَصِلُ إلى حَقيقةِ ٱلفِكْرِ وجَوْهَرِه عندَ ٱلمعرّيِّ في جوانِبَ كثيرةٍ من فلسفتِه:

فهو يَرى أنّ منهجَ إصلاحِ ٱلحيِّ يَقومُ على تَنْقِيةِ أخْلاطِ ٱلجَسَدِ

(٦) تُحدّثنا الرّواياتُ ٱلأدبيّةُ أنّ أبا الطَّيِّبِ تَنَبَّأ، ولكنّها لا تُعَرِّفُنا شيئاً عن ماهيّةِ دَعْواه، وهلْ كانَتْ نُبُوَّةً كَما نعرفها دينيّاً أم كانَتْ دعوةً جريئةً بمَعْنى التألُّهِ ٱلإصْلاحيّ.

وتَصْحيحِ أُلْفَتِها وفعاليّاتِها، بعمليّةِ التَّوحُّدِ ٱلّتي هي مِثْلُ عمليّةِ دبغِ ٱلأديمِ تَماماً قبلَ أن يَحْلَمَ ويفسُدَ في جَوْهَرِه وحَقيقتِه، وكلُّ إصلاحٍ يَخْرُجُ عن حُدودِ ٱلجَسَدِ كأساسٍ، إلى ٱلمَعْنويّاتِ وٱلأخلاقِ ٱلّتي عليها النّظريّاتُ الدّينيّةُ والفَلْسَفيّةُ، مُضمحِلٌّ سَريعُ الٱنتكاسِ، بما للعُضويّاتِ ٱلمُتَمَلِّقَةِ ٱلعامّةِ من تَأْثيرٍ وغَلَبَةٍ، وتَأْثيرُها دائماً يَكونُ أكثرَ ٱستبداداً وتَحَكُّماً ومُباشَرةً، قالَ:

وٱبْدَأْ بِبُدْنِكَ[٧]، فٱهضِمْ منهُ طائِفَةً

مِن قَبْلِ سَوْقِكَ، في أصْحابِكَ ٱلبُدَنا (ل٤/٢٧٣)

ولقدْ وَجَدَ سَنَدَ هذا، في ٱلحديثِ ٱلمشْهورِ من «أنّ رجلاً سألَ النّبيَّ هل يُرْسِلُ ناقَتَه ويتوكَّلُ أمْ يعقِلُها ويتوكَّلُ، فقال النَّبيُّ: بل ٱعقِلْها وَتَوكَّلْ». وهو يَعْني في ٱتّجاهِ رمزيّةِ ٱلمعرّيِّ: هل يُرْسِلُ ٱلبَشَريُّ أسبابَ حياتِه ويُطْلِقُ لعَناصِرِها ٱلعِنانَ وَيَسْتَسْلِمُ للأقْدارِ تضَعُه حيثُ يَقَعُ، أم يُقيِّدُ حياتَهُ بمثلِ ٱلأربطةِ وٱلقُيودِ ثمّ يَسْتَسْلِمُ للقَدَرِ بعدَ ذلك. فكانَ ٱلجوابُ قاضِباً بوُجوبِ ٱلأربطةِ، قاضباً بالتّوحُّدِ، فخَفَّ يتوحَّدُ.

ونَفْهَمُ منها أيضاً سِرَّ ٱلقَدَرِ عندَه، وهو أنَّهُ شيءٌ في ٱلجَسَدِ ولَيْسَ في السّماءِ. ومن هُنا نُدرِكُ أنّه لم يكنْ جَبْرِيّاً بحالٍ. وإنّما يقولُ بجبريَّةِ ٱلمَنْزِلةِ ٱلّتي تَضَعُ نفسَكَ فيها بكلِّ ٱلآختيارِ، ولَيْسَ يقولُ بٱلجَبْرِ ٱلقَدَرِيِّ ٱلغَيْبِيِّ وسَلْبِ ٱلآختيارِ، أيْ كٱلجَمْرةِ في مَنْزِلةِ كَوْنِها تَحْتَ قِدْرٍ تُنضِجُ وتُعطي نَفْعاً، وفي منزلَةِ كونِها تحتَ مَتاعٍ ورِياشٍ تُحْرِقُ وتُتْلِفُ، أمّا هي في ذاتِها فليسَتْ مَقولةً للخيرِ والشّرِّ. وهذا ٱلمَثَلُ يُظهِرُنا بوُضوحٍ على ما

(٧) البُدْنُ هنا بضَمّ الباءِ مَصْدَرٌ يَعْني السِّمْنَةَ والبَدانَةَ، وليسَ كَما يُتَبادَرُ جَمعُ: بُدْنةٍ، وعَنى بهَضْم بعضِ السّمنةِ الإقلال من الطّعامِ، وهو مَعْنىً كنائيٌّ رائعٌ أيْ هضم من نفسِه بنفسِه.

نَعْني بجبريّةِ ٱلمَنْزِلةِ ٱلمُنْفَصِلِ عنها، عَفْواً وطَبْعاً، ٱلإنضاجُ وما هو خيرٌ، وٱلإتلافُ وما هو شرٌّ.

وٱلمَعْنى أنّ إنشاطَ الطّبيعةِ ٱلحيّةِ يَنْتَهي بنتائجه ٱلحَتْميّةِ كٱلجَشَعِ وٱلفُحْشِ، دونَ تَدَخُّلٍ للمَجْهولِ، كٱلمُقَدِّماتِ ٱلّتي تَتَضمَّنُ النّتيجةَ وتَنْتَهي بها حَتْماً على وجهِ ٱلمُلازَمةِ العقليّةِ.

ونَستفيدُ كذلكَ من رمزيَّةِ أنّ «قُدارَ بْنَ سالفٍ مَنْحولُ النَّسبِ»، أنّ النّفْسَ ٱلحيوانيّةَ بنَزَعاتِها وشُرورِها وأهوائِها، دَخيلةٌ على ٱلجَسَدِ بجعلِه كالزِّقِّ ٱلمَلآنِ ولا تُنسَبُ إليه على وَجْهِ الضَّرورة وٱلأصالةِ، ولقدْ جَعَلَ من نَفْسِه شاهِداً فذّاً على صِحّةِ هذا ٱلآدّعاءِ بٱلإماتة ٱلعُضويَّةِ، قال:

غَـدا رَمَـضـانـي، لـيـسَ عـنّـي بـمُـنـقَـضٍ،
وكُـلُّ زمـانـي، لَـيَـلَـتَـيْ آخِـرِ الـشَّـهْـرِ (ل٢/٢١٥)

عَنى بهما ٱلمَحاقَ أو السِّرارَ ليالي ٱمِّحاءِ ٱلقَمَرِ، وبٱللّيلتينِ كَنّى بهما عن ٱلعُزلةِ والزُّهد...

وٱلفائدةُ ٱلمُهِمّةُ، أو أهمُّ فوائِدِ ٱلقِصّةِ، أنّ هذه ٱلحياةَ أضحَتْ شائخةً على الشُّرورِ، ومحاولةُ ٱلإصلاحِ تَنْتَهي دائماً بٱلإخفاقِ، فقد تَوَلّى صالحٌ وحَضَرَ ٱلمَوْتُ، ولِذا خامَرَهُ طائفٌ من ٱلأَسَفِ ٱلأَسْيان.

ويجِبُ أن نُعينَ ٱلغَيْبَ في أنفسِنا على التّنَقُّصِ من أطرافِها بكُلِّ ٱلقُوى، لِيسْتَحيلَ ٱلجَسَدُ ٱستحالةً أُخرى بطبيعةِ حَياةٍ جَديدةٍ ونفسٍ جَديدةٍ لا قِبَلَ لها. ومن ثَمَّ نَنْتَهي مع ٱلمعرّيِّ إلى وجهِ نظريّةٍ غريبةٍ جدّاً، وهي ٱلقَوْلُ بتكَيُّفِ ٱلجَسَدِ في ٱستحالاتٍ خفيّةٍ، لأنّه من ٱللّاصقِ، أي الثّابتِ، وَمْوتِ النّفسِ ورغَباتِها في كُلِّ ٱستحالةٍ أو مَنْزِلةٍ ليكتَسِبَ ٱلجَسَدُ ٱلمُتَحَوِّلُ ذاتُهُ نَفْساً جَديدةَ النّشْأةِ، جَديدةَ ٱلآنفطارِ، أيْ مِثْلَ

ٱلإناءِ ٱلّذي يُستَعْمَلُ لمائعاتٍ شتّى في كُلِّ مرَّةٍ، فهو للماءِ حيناً وللشّرابِ أو اللّبَنِ حيناً آخَرَ، ولكنّه ٱلإناءُ نفسُه.

وإذا صَحَّ هذا فٱلمعرّيُّ يَقولُ بتناسُخِ ٱلٱستحالاتِ النّفسيّةِ الدّائمةِ التّشَكُّلِ، مُناقِضاً ٱلقائلينَ بتناسُخِ ٱلأرواحِ الدّائبةِ في أجْسادٍ جَديدةٍ.

وفائدةُ التّوَحُّدِ أو التّفرُّدِ ٱلأتمِّ، أنّنا نُعِدُّ أجسادَنا إعداداً بالصَّقْل وإماتةِ الزّوائدِ، مُتَفَتِّحةً لٱستحالةٍ جسديّةٍ ذاتِ أخْلاطٍ أسْمى، تُولِّدُ نَفْساً جَديدةً وحياةً جديدةً...

هذه طائفةٌ من ٱلٱستنتاجاتِ ٱلّتي تَقْضي بها رَمزِيّةُ النّاقةِ، وهي، وإنْ تَكُنْ غريبةً، تشرَحُ أبا ٱلعَلاءِ وتُفسِّرُه.

ومنْ بينِ هذا وهذا نخرُجُ بأنَّ ٱلغايةَ من **اللّزوميّات** كانَتْ بٱلقَصْدِ، كُلِّ ٱلقَصْدِ، لِبَثِّ الرِّيَبِ والشُّكوكِ ولِبثِّها في شَكْلٍ حادٍّ، يُغري ٱلأحياءَ بالتّساؤُلِ والنَّظرِ من جَديدٍ، كما يُغريهِمْ بشيءٍ آخَرَ، بٱلهَرَبِ من أنفُسِهم على ما ٱجتمَعَ فيها من قَبْليّاتٍ ورَواسبَ سابقةٍ من آراءٍ وأصْداءِ رَغَباتٍ.

إنّه، بهذِه الشُّكوكِ ٱلحادّةِ، يَدْفَعُ بهمْ إليه، يَدْفَعُهُمْ إلى مِثْلِ مَنْزِلَتِهِ ٱلمُتَوَحِّدَةِ ٱلجاهدَةِ، وإلّا ظلُّوا مُتَخَبِّطينَ تَخَبُّطاً مُضحِكاً مُبكِياً، عبَّرَ عنهُ بسخريّتِهِ ٱللّاذعةِ في تَصارُعِ ٱلعُميانِ:

وبَصيرُ ٱلأقْوامِ، مِثْلِيَ أعْمى
فَهَلُمّوا في حَنْدَسٍ نَتَصادَمْ (ل٤/٢٤٥)

*

وهكذا نَنْتَهي إلى أنَّه طَوى في التّسْمِيَةِ بـ **لُزوم ما لا يلزم**، إلى جانِبِ مَعْناها ٱلبَديعيّ، معنَيَيْنِ آخَرَيْنِ هما:

أ ـ رَهَنُ ٱلمَحْبَسَيْنِ كما ٱلقافيةُ فيه رَهينةُ رويَّيْنْ.

ب ـ ما يُسمّى في ٱلمُناظَرَةِ بٱلإلزامِ وٱلكَسْرِ على ٱلخَصْمِ، وذلك بجَعْلِ أدلَّتِه على مُدَّعاهُ أدلَّةً تنقُضُ مُدَّعاهُ نفسَه، ويكونُ مَغْزى التّسميةِ لزومَ ما يَظُنُّ ٱلمُخالفونَ أنّه لا يَلْزَمُهم.

قبْل حديث الفلسفة

فَعَلْتَ فِعْلَ تِجارٍ مُخسِرينَ به
فآعبُدْ إلهَكَ تُرْزَقْ خَيْرَ مُتَّجَرِ
ما لِلْمَذاهِبِ قَدْ أمْسَتْ مُغَيَّرَةً
لها آنتِسابٌ إلى آلقَدّاحِ أو هَجَرِ[1]
قالوا: آلبريّةُ فَوْضى، لا حِسابَ لها
وإنّما هِيَ مِثْلُ النَّبْتِ والشَّجَرِ
فَآلجاهِلِيَّةُ خَيْرٌ من إباحَتِهِمْ
سَجِيَّةَ آلحارِثِ آلحَرّابِ أو حُجُرِ[2]
ضَلَّ آلأَنامُ، وهذا مَنْهَجٌ أَمَمٌ[3]
يَهْدي إلى آلحَقِّ، فَآسْلُكْهُ ولا تَجُرِ

(١) القداح: عبدُ آللّهِ بْنُ مَيْمون؛ هجر: مكانٌ كَثُرَ آلمنتسبونَ إليه من ذَوي آلآراءِ آلمُمعنَةِ في الشُّذوذِ.
(٢) الحارث: هو آبنُ ظالمٍ آلمُرّيّ، وآلحَرّاب: آلوَلوعُ بآلقِتالِ وآلبَطّاشُ في كُلّ شُؤونه.
(٣) أَمَم: قَريب، مُستقيم.

خَلِّ ٱلعِبادَ، وما ٱختاروا، فمُلْكُهُمُ
إذا نَظَرْتَ، كعَبْدٍ راحَ مُؤتَجَرِ
يغْنيكَ ظِلُّ سَيالٍ(٤) يُستَظَلُّ بهِ
عن سائِلِ التِّبْرِ في ٱلبُنْيانِ وٱلحُجَرِ (ل٢/٢٣٦)

هذا آخرُ ٱلفُصولِ ٱلّتي تَدْخُلُ في حدِّ ٱلمُقَدِّماتِ أو التّمهيداتِ، وبعبارةٍ أُخرى ٱلّتي تَدْخُلُ في حدِّ معالِمِ ٱلطّريقةِ ٱلعَلائيّةِ، ٱلّتي نَخُصُّها بأكبرِ جُهدٍ وبأوْفَرِ نَصيبٍ.

ونحنُ نُوسِعُ من جوانبِ هذا ٱلفَصْلِ لمُلاحظاتِ مدارسَ عَقائديّةٍ(٥) شِبْهِ مُعاصِرَةٍ، نعتَبِرُها ٱلآتّصالَ بفَهْمِ أبي ٱلعَلاءِ، وتَقْريبِ فلسفتِهِ وتَحْديدِها، لأنّه تأثَّر بها على نَحْوٍ ما، ولو على سَبيلِ الرَّفْضِ، وٱعتمدْتُ فيها مَصْدراً بعينهِ لأنّه ٱلأوثَقُ وٱلأحفَلُ بٱلمفاهيمِ ٱلصّميمةِ ٱلأصيلةِ، وهو الشّهرستانيّ، لأنّ ما عِنْدَ سواهُ غيرُ وَثيقٍ أو مُبْتَسَرٌ، على أنّ أكثرَها صُنِّفَ ٱنتصاراً لمدرسةٍ أوْ هَدْماً لأُخرى أي بِروحٍ عَدائيّةٍ... وأعرِضُ لها عَرْضاً سَريعاً لا يتجاوَزُ ٱلإلمامَ بلِ ٱلإشارةَ، مُدْرِجاً إيّاها تَحْتَ عَناصرَ:

١ ـ **العنصُر الشّيعيُّ**: إذا ما تأمّلْنا ٱلمعرّيَّ جيّداً نَجِدُهُ تأثَّرَ بٱلباطنيّةِ ٱلخارجَةِ من الشّيعةِ إسميّاً، وٱلخارجَةِ عليْها حَقيقةً. ومن ٱلخَيْرِ أنْ نَمُرَّ بكُلّيّاتٍ بارزةٍ تُعرِّفُنا بما يَنْبَغي أن نَعْرِفَ من هذا ٱلعُنْصُرِ، بين يَدَيْ أبي ٱلعَلاء.

(٤) سيال: شَجَرٌ شائِك.
(٥) أظْهَرتِ ٱلأبحاثُ والدِّراساتُ ٱلحديثةُ ولا سيّما ٱلآستشراقيّةُ مِنْها عَلى ما في مَعارفِ ٱلقُدماءِ عن هذه ٱلفِرَقِ، من تَشْويهٍ ونَقصٍ وعَدمِ آستيعابٍ، ولكنْ يَجِبُ على كُلِّ دارسٍ لقديمِ كٱلمعرّيّ أن يأخُذَها على عِلّاتِها أيْ كما عَرَفها عصرُه وما سبقَه.

الباطنيّة: قالَتْ: «لا نقولُ ٱللّهُ مَوْجودٌ ولا غَيْرُ موجودٍ، ولا عالِمٌ ولا جاهِلٌ إلى آخِرِ الصِّفاتِ، فإنّ ٱلإثْباتَ ٱلحقيقيَّ شَرِكَةٌ بينَه وبينَ سائِرِ ٱلمَوْجوداتِ في ٱلمَعْنى، وذلكَ تَشْبيهٌ. فليسَ هو مَحَلّاً للحُكْمِ بٱلإثباتِ والنّفي ٱلمُطْلَقِ، بل هو إلهُ ٱلمُتقابلَيْنِ وخالِقُ الضِّدَّيْنِ، ومَعْنى هو عالِمٌ أنّه واهبُ ٱلعِلْمِ لا أنّه قامَ به ٱلعِلمْ.

«أبْدَعَ بٱلأمرِ ٱلعَقْلَ ٱلأوّلَ ٱلّذي هو تامٌّ بٱلفِعْلِ، ثمّ بِتَوَسُّطِهِ أبدَعَ النّفسَ الثّاني ٱلّذي هو غيرُ تامٍّ، ونِسْبَةُ النّفسِ إلى ٱلعَقْلِ كَنِسبةِ النُّطفةِ إلى تَمامِ ٱلخِلْقَةِ. ولمّا ٱشتاقَتِ النَّفْسُ إلى كَمالِ ٱلعَقْلِ ٱحتاجَتْ إلى حَرَكَةٍ من النَّقصِ إلى ٱلكَمالِ، وٱحتاجَتِ ٱلحَرَكةُ إلى ٱلآلةِ فحدَثَتِ ٱلأفْلاكُ، وتَحرّكَتْ حَرَكةً دوريّةً بتدبيرِ النّفْسِ فحدَثَتِ ٱلطّبائعُ ٱلبَسيطةُ بعدَها، وتحرّكَتِ الطّبائعُ حَرَكةً ٱسْتقامَتْ بتدبيرِ النّفسِ أيضاً فتركّبَتِ ٱلمُرَكّباتُ، من ٱلمعادنِ والنّباتِ وٱلحيوانِ وٱلإنسانِ، وٱتّصلَتِ النُّفوسُ ٱلجزئيّةُ بٱلأبْدانِ.

«وكانَ نوعُ ٱلإنسانِ مُتَمَيِّزاً عن سائرِ ٱلمَوْجوداتِ بٱلٱستعدادِ ٱلخاصِّ لفَيْضِ تلكَ ٱلأنوارِ، وكانَ عَالَمُه في مُقابَلةِ ٱلعالَمِ كُلِّهِ. وفي ٱلعالَمِ ٱلعُلْويِّ عَقْلٌ كُلّيٌّ ونَفْسٌ كُلّيٌّ، فَوَجَبَ أن يكونَ في هذا ٱلعالَمِ عَقْلٌ هو كُلٌّ، وحُكْمُه حُكْمُ الشّخصِ ٱلكامِلِ ٱلبالغِ، ويُسمّونَهُ النّاطقَ، وهو النّبيُّ؛ ونَفْسٌ مُشَخّصَةٌ هي كُلٌّ أيضاً وحُكْمُها حُكْمُ الطِّفْلِ النّاقِصِ ٱلمُتَوَجِّهِ إلى ٱلكَمالِ أو حُكْمُ النُّطفةِ ٱلمُتَوَجِّهةِ إلى التّمامِ، ويُسمّونَهُ ٱلأساسَ، وهو ٱلوَصِيُّ.

«وكَما تحرّكَتِ ٱلأفلاكُ بتَحْريكِ النّفسِ وٱلعَقْلِ والطّبائعِ، تحرّكَتِ النُّفوسُ وٱلأشخاصُ بالشّرائعِ بتَحريكِ النّبيِّ وٱلوَصيِّ في كُلِّ زمانٍ، دائراً

على سبعةٍ سبعةٍ حتّى يَنْتَهيَ الدّوْرُ ٱلأخيرُ، ويحِلَّ زمنُ ٱلقِيامةِ، وتَرْتَفِعَ التّكاليفُ، وتَضْمَحِلَّ الشّرائع.

«وليسَتْ هذهِ ٱلحَرَكاتُ ٱلفَلَكيّةُ والسُّنَنُ الشّرعيّةُ، إلّا لتبلُغَ النّفسُ إلى حالِ كمالِها، وٱلكَمالُ بُلوغُها إلى درجةِ ٱلعَقْلِ وٱتّحادُها به وَوُصولُها إلى مرتبتِه فِعلاً، وحينَ يتِمُّ هذا تنحَلُّ التّراكيبُ وتتّصِلُ جُزئيّاتُ ٱلحَقِّ بالنّفسِ ٱلكُلّيِّ، وجُزْئيّاتُ ٱلباطِلِ بالشَّيْطانِ ٱلمُبْطِلِ... فمِنْ وقْتِ ٱلحركةِ إلى السُّكونِ هو ٱلمبْدأُ، ومن وَقْتِ السُّكونِ إلى ما لانِهايَةَ هو ٱلمَعادُ وٱلكَمالُ.

«وما من فَريضةٍ إلّا ولها وِزانٌ من ٱلعالَمِ، عَدَداً في مُقابلةِ عددٍ، وحُكْماً في مُطابقةِ حُكْمٍ. فإنّ الشّرائعَ عوالمُ روحانيّةٌ أمريّةٌ، وٱلعَوالمُ شرائعُ جِسْمانيّةٌ خُلُقيّةٌ.

«وكذلكَ التّركيباتُ في ٱلحروفِ وٱلكَلِماتِ، على وِزانِ تَرْكيباتِ الصُّوَرِ وٱلأجسامِ. ونِسْبَةُ ٱلحُروفِ ٱلمُفْرَدةِ إلى ٱلمُرَكَّباتِ كنِسْبَةِ ٱلبسائِطِ ٱلمُجَرّدَةِ إلى ٱلمُرَكَّباتِ من ٱلأجسامِ. ولكُلِّ حَرْفٍ وِزانٌ في ٱلعالَمِ وطَبيعةٌ تَخُصُّهُ، وتأثيرٌ من حيثُ تلكَ ٱلخاصّيّةُ في النّفوس.

«فعنْ هذا صارَتِ ٱلعُلومُ ٱلمُسْتفادةُ من ٱلكلماتِ التّعليميّةِ غِذاءً للنُّفوسِ، كما صارَتِ ٱلأغذيةُ ٱلمُسْتفادةُ من الطّبائعِ غِذاءً للأبْدان...

«هذه لَمْحَةٌ من ٱلباطنيّةِ ٱلقديمةِ، وأمّا ٱلباطنيّةُ ٱلجَديدةُ فقدْ زادَتْ بٱستِحداثِ ميزانٍ لجميعِ ٱلمُتضادّاتِ، دَعَتْه قانونَ النَّفيِ وٱلإثباتِ. وترجِعُ في كُلِّ مَعْرفةٍ إلى إثباتِ ٱلمَعْلَمِ، كما تُقرِّرُ أنّ التَّوْحيدَ، هو ٱلوَحْديّةُ والنّبوّةُ معاً حتّى يكونَ تَوْحيداً، وأنّ النّبوّةَ هي النُّبوّةُ وٱلإمامةُ معاً حتّى

تكونَ نبوَّةً، وأنّ علامةَ ٱلحقِّ هي ٱلوَحْدَةُ وعَلاقةُ ٱلباطلِ هي ٱلكثرةُ»(٦).

الكياليّة: قالتْ: «إنّ كُلَّ مَنْ قَدَرَ ٱلآفاقَ على ٱلأنْفُسِ، وأمكَنَه أن يُبَيّنَ مناهجَ ٱلعالَمينْ، أيْ عالَمِ ٱلآفاقِ، وهو ٱلعالمُ ٱلعُلْويُّ، وعالَمِ ٱلأنفُسِ وهو ٱلعالَمُ السُّفليُّ، كانَ هو ٱلإمامَ، وأنّ مَنْ قَرَّرَ ٱلكُلَّ في ذاتِه وأمكَنَهُ أن يُبيّنَ كُلَّ كُلّيٍّ في شَخْصِهِ ٱلمُعَيّنِ ٱلجُزْئيِّ كانَ هو ٱلقائمَ». وقالتْ أيضاً: «إنّ ٱلأنبياءَ هم قادةُ أهلِ ٱلتّقليدِ وهؤلاءِ عُميانُ، وٱلقائِمُ قائدُ أهلِ ٱلبَصيرةِ، وهؤلاءِ هُم أُولو ٱلألباب»(٧).

وهُنا مَقالاتٌ أُخرى مثلُ ٱلقولِ بأنَّ الدّينَ طاعةُ الرَّجُلِ وحُمِلَتِ ٱلأركانُ، من الصَّلاةِ والصِّيامِ... إلخ، على رجالٍ(٨)... ومِثْلُ ٱلقَوْلِ بأنَّ ٱلإمامةَ نورٌ يتناسَخُ من شَخْصٍ إلى آخَرَ، وذلك النّورُ في شَخْصٍ يَكونُ نُبوَّةً وفي سِواهُ إمامةً؛ وأنّ ٱللّهَ ظاهِرٌ بشَخْصٍ، وٱلحُلولَ يكونُ بجُزْءٍ مِثْلَ إشراقِ الشَّمسِ من كُوَّةٍ، ويكونُ بكُلٍّ مِثْلَ ظُهورِ مَلَكٍ بشَخْصٍ(٩)... ومِثْلُ ٱلقَوْلِ بأنَّ ٱللّهَ صورةٌ وجسمٌ، ذو أعضاءٍ على حُروفِ ٱلهِجاءِ(١٠)... ومثلُ ٱلقولِ بأنّ الرِّسالَةَ لا تَنْقَطِعُ، وأنّ ٱلجَنّةَ رَجُلٌ أُمِرْنا بمُوالاتِه وهو إمامُ ٱلوَقْتِ، والنّارَ رجلٌ أُمِرْنا بمُعاداتِه وهو خَصْمُ ٱلإمامِ(١١)... ومِثْلُ ٱلقَوْلِ بأنّ ٱلإلهيّةَ نورٌ في النّبوّةِ، والنّبوّةَ نورٌ في ٱلإمامةِ، ولا يَخْلو ٱلعالَمُ من هذه ٱلآثارِ وٱلأنوارِ، وأنّ كُلَّ مؤمنٍ يُوحى إليه، وأنَّ ٱلإنسانَ إذا بَلَغَ ٱلكَمالَ لا

(٦) الشّهرستانيّ، ٢٦/٢ في بَحْثِ ٱلباطنيّة.
(٧) **المصدر نفسه**، ١٧/٢ في بَحْثِ ٱلكياليّة.
(٨) **المصدر نفسه**، ١٥٢/١ في بَحْثِ ٱلكيسانيّة.
(٩) **المصدر نفسه**، في بَحْثِ ٱلكامليّة.
(١٠) **المصدر نفسه**، ١٤/٢ في بَحْثِ ٱلمَغيريّة.
(١١) **المصدر نفسه**، ١٥/٢ في بَحْثِ ٱلمَنْصوريّة.

يُقالُ إنّه ماتَ وإنْ هَمَدَ جسَدُه وتحلّلَ، بل يُقالُ رُفِعَ إلى ٱلمَلَكوتِ[١٢]... ومِثْلُ القولِ بأنَّ ٱللّهَ نورٌ أسودُ[١٣]... ومثلُ القولِ بدورِ ٱلأئمّةِ الظّاهرينَ ودورِ ٱلأئمّةِ ٱلمَستورينَ، وٱلأئمّةُ تَدورُ أحكامُهُمْ على سَبْعةٍ كأيّامِ ٱلأُسبوعِ والسّماواتِ وٱلكَواكبِ، والنُّقباءُ تَدورُ أحكامُهم على ٱثنيْ عَشَر[١٤].

٢ ـ **العنصرُ ٱلآريّ الشرقيّ**[١٥]: نلمِسُ عندَه أثراً لهذا ٱلعُنصرِ أيضاً وَيْنبغي لنا أن نُلِمَّ به إلْماماً سَريعاً وفاءً بٱلبحث.

وهذا ٱلعُنصرُ يقومُ على مَقالاتٍ شتّى، وكلُّها تُحاوِلُ شرحَ قضيَّتَيْنِ:

الأولى: بيانُ سَبَبِ ٱمتزاجِ النّورِ والظُّلمةِ؛

والثّانيةُ: بيانُ كيفَ يَتِمُّ خَلاصُ النّورِ من الظُّلمةِ، على أنّها أجْمَعَتْ على أنّ ٱلٱمتزاجَ هو ٱلمبدأُ وأنّ ٱلخَلاصَ هو ٱلمَعادُ.

ويندَرِجُ تحتَ هذا ٱلعُنصُرِ مَذاهبُ ونِحَلٌ كثيرةٌ، مثلُ ٱلقولِ بأصْلَيْنِ ٱثنينِ قَديمَيْنِ «يزدن: خَيْر» و«أهرمن: شَرّ»[١٦]... ومِثْلُ ٱلقولِ: بأنّ «يزدن» أزليٌّ وأنّ «أهرمن» مُحْدَثٌ، وذلك لأنَّ ٱلأوّلَ فَكَّرَ في نفسِه: لو كانَ لي مُنازعٌ كيفَ يَكونُ؟ وهذه فِكْرَةٌ رَديئةٌ بالنّسبةِ إلى النّورِ، فحَدَثَ الظَّلامُ وتَنازَعا[١٧]... ومثلُ ٱلقَوْلِ بأنّ ٱلأصلَيْنِ هما مبدأُ مَوْجوداتِ ٱلعالَمِ، وحصَلَتِ التّراكيبُ مِنِ ٱمتِزاجِهما وحدَثَتِ الصُّوَرُ من التّراكيبِ ٱلمُخْتَلِفَةِ، وأنّ ٱلباريَ خالقُ النّورِ والظّلمةِ، وأنّ مِن ضَرورةِ ٱلوُجودِ التَّضادَّ كالظِّلِّ

(١٢) **المصدر نفسه**، ١٦/٢ في بَحْثِ ٱلخَطايئة.
(١٣) **المصدر نفسه** ٢٠/٢ في بَحْثِ ٱلهشاميّة.
(١٤) **المصدر نفسه** ٢٤/٢ في بَحْثِ ٱلإسماعيليّة.
(١٥) عبرت بالآري ليعمّ ٱلهنديّ وٱلبهلويّ وما إليهما.
(١٦) الشهرستاني، ٦٥/٢ في بَحْثِ الثّنويّة.
(١٧) **المصدر نفسه**، ٥٩/٢ في بَحْثِ ٱلكيومرثيّة.

والشّخصِ[١٨]... ومثلُ ٱلقَوْلِ بأنّ أعمالَ ٱلبِرّ والرّياضاتِ الرّوحيّةَ تُعينُ على تَخْليصِ ٱلاَمتزاجِ، وأنّ ٱلمِزاجَ ٱلقَديمَ هو آمتزاجُ ٱلحَرارةِ وٱلبُرودةِ والرُّطوبةِ وٱليُبوسَةِ، وٱلمِزاجَ ٱلجديدَ هو آمتزاجُ ٱلخَيْرِ والشّرّ[١٩]... ومثلُ ٱلقَوْلِ بأنّ النّورَ يَفعَلُ بٱلقَصْدِ وٱلاَختيارِ، والظُّلمةَ تَفْعَلُ خَبْطَ عَشْواءَ وٱتّفاقاً، وأنّ ٱلإلهَ بينَ يَدَيْهِ أربعُ قُوىً، وهذه تُديرُ ٱلعالَمَ بسبعةٍ، وهذه السّبعةُ تَدورُ في ٱثْنَيْ عَشَرَ. وكُلُّ إنسانٍ آجتمعَتْ له هذه ٱلأربعةُ والسّبعةُ والاَثنتا عَشْرَةَ صارَ رَبّانياً في ٱلعالَمِ السُّفليّ، وأنّ ٱلإلهَ في ٱلعالمِ ٱلأعْلى يُدَبِّرُ بٱلحرفِ كُلَّ شيءٍ[٢٠]... ومِثْلُ ٱلقَوْلِ بأنّ النّورَ داخَلَ الظُّلمةَ فَنادى بتلْيينِها ليتخَلَّصَ منها، كٱلمِنشارِ صَفْحَتُه ناعمةٌ وأسنانُهُ خشنةٌ ولا يُمْكِنُه الدُّخولُ إلّا بتلكَ ٱلخُشونةِ، ولا يُتَصَوَّرُ ٱلوُصولُ إلى كَمالِ ٱلوُجودِ إلّا بتلْيينِ وخُشونةٍ[٢١]... ومثلُ ٱلقولِ بأنّ هُناكَ أصْلاً ثالثاً إلى جانِبِ ٱلأصلَيْنِ، أي النّورِ والظُّلمةِ، يُدْعَى ٱلمُعَدِّلَ ٱلجامِعَ وهو ٱلإنسانُ، وأنَّ كلَّ ما فيهِ مَسَرَّةُ ٱلبَدَنِ حرامٌ، وكذلك كُلُّ إيلامٍ حَرامٌ[٢٢]... ومِثْلُ ٱلقولِ بأنّ ٱلإنسانَ إمّا في فِعْلٍ أو جَزاءٍ، وٱلجنّةُ والنّارُ في هذهِ ٱلأبدانِ، وأعْلى عِلِّيِّينَ درجةُ النُّبوّةِ، وأسفلُ السّافلينَ دَرَكَةُ ٱلحَيّةِ[٢٣].

ونحنُ لا نَرْتابُ في أنّ أهمَّ ما يَعْنينا من هذا ٱلعُنْصُرِ ٱلآرِيِّ الشَّرْقيِّ هو مَقالُ الصِّياميّةِ، هذه ٱلفرقةِ ٱلّتي تَجِدُ ٱلخَلاصَ في ٱلإمساكِ عن طيِّباتِ الرِّزقِ، والتَّجرُّدِ وٱلاَنقباضِ عن النِّكاحِ والذَّبائِحِ.

(١٨) المصدر نفسه، ٢/٦٢ في بَحْثِ الزّرادشتيّة.
(١٩) المصدر نفسه، ٢/٦٥.
(٢٠) المصدر نفسه، ٢/٦٩ في بَحْثِ ٱلمَزدكيّة.
(٢١) المصدر نفسه، ٢/٧٠ في بَحْثِ الدّيصانيّة.
(٢٢) المصدر نفسه، ٢/٧١ في بَحْثِ المَرْقونيّة.
(٢٣) المصدر نفسه ٢/٧٣ في بَحْثِ التّناسُخيّة.

٣ ـ **العنصرُ الإغريقيّ**: نعتقِدُ بأنّ هذا ٱلعُنصرَ كانَ ضَئيلَ ٱلأثَرِ في ٱلقِسْمِ ٱلإلهيِّ عندَه، إن لم نَقُلْ كانَ مَعْدوماً أصلاً. بل رُبّما عَرَضَ له بالتَّوْهينِ في حَمَلاتٍ حادّةٍ، كما لو كانَ قَليلَ الثِّقةِ بهذا ٱلعقلِ للتَّعبيرِ عمّا هو إلهيٌّ، إلّا مُشَوَّهاً مَدْخولاً بما تَخالَطَهُ من عقليّةٍ طبيعيّةٍ خالصةٍ...

ولسنا نَعني بإثباتِ هذه ٱلعناصرِ تأثُّرَها وأثرَها، وإنّما لِنَرى كيفَ تأثَّر بها في أشكالِ ٱستحالةٍ فَذّةٍ. وٱسمَعْهُ كيفَ يقولُ:

كـأنَّ نُـفـوسَ الـنّـاسِ، وٱلـلّـهُ شـاهِـدٌ
نُـفـوسُ فَـراشٍ، مـا لَـهُـنّ حُـلـومُ
وقـالـوا: فَـقـيـهٌ، وٱلـفَـقـيـهُ مُـمَـوِّهٌ
وحِـلْـفُ جِـدالٍ، وٱلـكَـلامُ كُـلـومُ
أَتَـوكَ بـأَصْـنـافِ ٱلـمُـحـالِ، وإنّـمـا
لَـهُـم غَـرَضٌ فـي أنْ يُـقـالَ: عَـلـومُ (ل٤/١٤٦)

منزلة سورة «عبس» في منهجه

وٱلآنَ نَنْقُلُ إلى مُلاحَظَةٍ مهمَّةٍ وأخيرةٍ في التّمهيداتِ، هي سورةُ عَبَسَ ٱلواردةُ في ٱلقُرآنِ، وٱلإشارةِ إلى عَلاقَتِها بٱلإمامِ ٱلمكتومِ، وعَلاقَتِهما جَميعاً بٱلمعرّي:

«عَبَسَ وَتَوَلَّى، أَنْ جاءَهُ ٱلأعْمى، وما يُدْريكَ لَعَلّه يَزَّكّى؟... أو يَذَّكَّرُ فتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى. أَمّا مَنِ ٱسْتَغْنى، فأَنْتَ له تَصَدَّى، وما عَلَيْكَ ألّا يَزّكّى؟!

وأمّا مَنْ جاءَكَ يَسعى، وهو يَخْشى، فأنْتَ عنهُ تَلَهّى؟

كَلّا، إنَّها تَذكِرَةٌ، فمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ، في صُحُفٍ مُكرَّمةٍ، مَرْفوعَةٍ مُطهَّرةٍ، بأيْدي سَفَرَةٍ، كِرامٍ بَرَرَةٍ.

قُتِلَ ٱلإنسانُ ما أكفَرَهُ! من أيِّ شيءٍ خَلَقَهُ، من نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فقَدَّرَهُ، ثُمَّ السَّبيلَ يَسَّرَهُ، ثُمَّ أماتَهُ فأقْبَرَهُ، ثُمَّ إذا شاء أنْشَرَهُ، كَلّا لَمّا يَقْضِ ما أمَرَهُ.

فَلْيَنْظُرِ ٱلإنسانُ إلى طَعامِهِ، أنّا صبَبْنا ٱلماءَ صَبّاً، ثُمَّ شَقَقْنا ٱلأرضَ شَقّاً، فأنْبتْنا فيها حَبّاً، وعِنَباً وقَضْباً، وزَيْتوناً ونَخْلاً، وحَدائِقَ غُلْباً، وفاكِهةً وأبّاً، مَتاعاً لكمْ ولأنْعامِكُم.

فإذا جاءَتِ الصّاخَّةُ، يومَ يَفِرُّ ٱلمَرْءُ من أخيهِ، وأُمِّهِ وأبيهِ، وصاحِبَتِه وبَنيهِ، لكُلِّ ٱمْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغنيهِ.

وُجوهٌ يَومَئِذٍ مُسْفِرَةٌ، ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ،

وَوُجوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرةٌ، تَرْهَقُها قَتَرَةٌ، أولئِكَ هُمُ ٱلكَفَرَةُ ٱلفَجَرَةُ».

هذه السُّورةُ نَزَلَتْ في أعْمى من قُريشٍ، جاءَ إلى النّبيِّ بقلْبٍ خاشِعٍ يَسْتَهديهِ ويَطْلُبُ التُّقوى، وكانَ النّبيُّ خالِياً برؤساءِ قُريشٍ يُحاوِرُهُم ويُحاوِلُهُم ٱلإيمانَ، مُهتَمّاً بنُصْرتِهِم في ظَرفِه ٱلاضطهاديِّ ٱلحازِّ، فأعرَضَ عنْهُ إليهم.

وكانَ النّبيُّ بَعْدَها لا يفتأُ مُكْرِماً له في حَدْبٍ وتَقديمٍ، وترجَمَتُه كما جاءَتْ بها الرِّواياتُ: هو عبدُ ٱللّهِ بنُ زائدةَ ٱلمعروفُ بٱبنِ أمِّ مكتومٍ القُرَشيِّ. وفي رِوايةٍ: كانَ ٱسمُهُ ٱلحُصَيْنَ فسمّاهُ النّبيُّ عبدَ اللّهِ، وهو ٱبنُ خالِ خَديجةَ زَوْجِ الرّسولِ. أسلَمَ قديماً بمكّةَ وكانَ من ٱلمهاجرينَ ٱلأوّلينَ. وكانَ النّبيُّ يستخْلِفُه على ٱلمدينةِ في عامِ غزَواتِه، يُصلّي بالنّاس، وقَدِ ٱستخلَفه ثَلاثَ عَشْرَةَ مرّةً ونَزَلَتْ فيه سورةُ عَبَسَ، وآيةُ «لا

يَسْتَوي القاعِدونَ مِنَ المُؤمنينَ غَيْرُ أولي الضَّرَرِ، وٱلمجاهِدونَ في سَبيلِ ٱللّهِ بأموالِهِمْ وأنْفُسِهِم» (النساء ٤: ٩٤).

نحنُ نَعْرِفُ عندَ ٱلباطنيّةِ نظريّةَ ٱلإمامِ ٱلمَكْتومِ، ونَجِدُ في الرِّوايةِ ٱلمُثْبِتَةِ «ٱبْنَ أمِّ مكتومٍ» ونَرى لعبدِ ٱللّهِ هذا، دالّةً خاصّةً في ٱلقُرآنِ وعندَ النَّبيِّ، حتّى ليَكِلُ إليه أمرَ النّاسِ في دينِهم ودُنْياهُم، فهو يَؤُمُّهم بالصَّلاةِ ويَقومُ بأعباءِ إمْرَتِهِم في شُؤونِ ٱلحياةِ ومَذاهِبِها.

ونظريّةُ ٱلإمامِ ٱلمكتومِ تَقولُ إنّ ٱلعقلَ ٱلكلّيَّ والرّوحَ ٱلكُلّيَّ يُشرِقانِ في كلِّ دَوْرٍ على بَشَرِيَّيْنِ، ويَكونُ مظهرُ إشراقِ ٱلأوّلِ هو ٱلإمامَ ٱلمَكْتومَ، ومَظْهَرُ إشراقِ الثّاني هو ٱلإمامَ الظّاهِرَ.

ونحنُ لا نَسْتَبْعِدُ أنْ يَكونَ تَصَوُّرُ ٱلمعرّيِّ ٱنْعَقَدَ على أنّ ٱبنَ أمِّ مَكتومٍ كانَ مَظْهَراً لإشراقِ ٱلعَقْلِ ٱلكُلّيِّ «كإمامٍ مُسْتَودَعٍ لا كإمامٍ مُسْتَقرٍّ». وإذا تأمّلْنا سورةَ عَبَسَ جيّداً، نرى فيها تَقْييماً إلى أبْعَدِ حدٍّ لنَقاءِ الطّبيعةِ ٱلخالِصةِ من الزُّهوماتِ ٱلبشريَّةِ، وإرذالاً إلى أبْعَدِ حدٍّ للطّبيعةِ ٱلمُسْتَقْوِيَةِ بمَظاهرِ ضَراوَتِها، وٱلمُسْتَغْوِيَةِ بألْوانِ شِرَّتِها، ويُسمّي ٱلبغَيُ أشخاصَها عُظَماءَ وكُبَراء وسادَةً. ونَرى فيها حُكْماً صارِماً على الطّبيعةِ ٱلبشريّةِ «قُتِلَ الإنسانُ ما أكْفَرَهُ». ونَرى بياناً للطُّعومِ، وكلُّها نباتيَّةٌ، خُصوصاً إلحاحَهُ بتعبيرَيْ «حَبّاً، أَبّاً» وهي بمَثابةِ «البَلَسِ، البُلْسُنِ» ونَرى فيها ٱعْتِزالَ الإنسانِ إلى درجةِ ٱلفرارِ... وهي هي ٱلخُطَّةُ الّتي ٱنتهجَها ٱلمعرّيُّ، مِمّا يحمِلُنا على تَقْديرِ أنّ هذهِ السُّورَةَ تَدُلّ وتُشيرُ إلى مناهجِ ٱلإمامِ ٱلمكتومِ:

أمـا تَـرانـي فـي الـزَّمـانِ مُـحـتَـبَـسْ

أعْـمـارُنـا تَـعْـجِـزُ عَـمّـا يُـقْـتَـبَـسْ

تَضيقُ أنْ يُكْشَفَ فيها ما ٱلْتَبَسْ

وَهْيَ قَصيراتٌ كآياتِ عَبَسْ

لو قَبِلَ النُّصْحَ لِساني ما نَبَسْ (ل٣/٦٩)

فإذا كانَ سائرُ القُرآنِ لبيانِ منَاهِجِ ٱلمَرْضى، فإنَّ هذه السّورَةَ لبيانِ مناهِجِ ٱلأصِحّاءِ ٱلمُتَوَحِّدينَ، وإنّ سائِرَ ٱلقرآنِ ظاهرٌ، وباطنَه هذه السُّورةُ...

ويَحْسُنُ بنا أن نَسْتعيدَ إلى الذِّهنِ ما سَبَق لنا تَقْريرُه في ٱلفَصْلِ السّابقِ، من ٱلعَلاقةِ ٱلحَميمةِ بينَ ٱلمُتَنبّي وٱلمعرّيّ ٱلماثِلَةِ في ٱلنّاقةِ وفَصيلِها، لنُقرِّرَ هُنا أنّ ٱلمُتَنبّي كانَ هو ٱلمَظْهرَ ٱلأخيرَ لإشراقِ الرّوح ٱلكلّيِّ، أي ٱلإمامِ ٱلظّاهِرِ، وٱلمعرّيّ كانَ هو ٱلمظهرَ ٱلأخيرَ لإشراقِ ٱلعَقْلِ ٱلكُلّيِّ، أي ٱلإمامِ ٱلمَكتومِ.

وفي النِّحْلَةِ ٱلكَياليّةِ أنّ ٱسمَ «أحمد» يَجْمَعُ ٱلأربعَةَ ٱلأماكِنِ ٱلعُلويّةِ (أي ٱلآفاقيّةِ)، وٱلأربعةَ ٱلأماكِنِ السُّفْليّةِ (أي ٱلأنْفُسيّةِ). وٱسمُ كلٍّ منهُما أحمدُ، وتَظْهَرُ نِسبةُ ٱلفَرْقِ بينَهما في نسبةِ ٱلفَرْقِ بين ٱلكُنْيَتَيْن.

فٱلمُتَنبّي هو أبو الطَّيِّبِ، وٱلمعرّيُّ أبو ٱلعَلاءِ،[٢٤] فالثّاني في كُنْيَتِهِ آفاقيٌّ تَجْريديٌّ، وٱلأوّلُ أنْفُسِيٌّ طابَ وطَهُرَ، ولكنَّ علائِقَهَ ظَلَّتْ وَشيجةً في الزَّمانِ وٱلمكانِ...

(٢٤) في هذا ما يُعلّلُ سرَّ غضبتِه عَلى مَن يُحرّفُ ٱسمه ويُصحِّفُه في رِسالتِه إلى أبي ٱلحُسينِ النّكتيّ ٱلبَصريّ (أمّا السّمة فَغَيرها، وأمّا ٱلكنية فَقَصَرها، فإنّا للّه وإنّا إليه راجِعونَ؟ ليسَ هو من ضَعْفِ الشّاعِرِ ولا وَهَنِ ٱلقائِلِ، ولكنّه مِن سوءِ ٱلحظِّ لمَنْ خوطِبَ، وٱلاتّفاقُ الرّديءُ لِمَنْ سَمّى وذَكَر ولا يَقُلْ سيّدي الشّيخُ ـ أدام ٱللّه عزّه ـ قد قَصَّرتِ الشعراء، فإنّه لو كانَ ٱستعملَ ضَرورةً غيرَ تلكَ لقُبِلَتْ حُجّتُه، ولكنّه ألغى الضّروراتِ كُلَّها ورَفَضَ فلم يستعمِلْها، إلخ)، **رسائل أبي العلاء**، الرّسالةُ السّابعةُ والعِشرون ص ٦٥، ط مرغليوث.

وأنا هنا، أُقَيِّدُ خاطرةً أجِدُها ضَروريّةً، بل أشَدَّ ما تَكونُ ضَرورةً لفهمِ أبي ٱلعَلاءِ، وهي ٱلعَوْدةُ إلى دَرْسِ ٱلمُتَنبّي لا على ذلكَ النَّحوِ السّاذَجِ ٱلّذي تعوَّدْناهُ من بحثِهِ شاعِراً، بلْ على نحوِ أنّه زَعيمُ مدرسةٍ مَذْهبيّةٍ جَديدةٍ يَسوغُ أن نسمِّيَها ٱلمتنبِّئيّةَ ٱلّتي كانَ ٱلمعرّيُّ أكبرَ مُجتهِديها.

حديث الفلسفة

لنْ نتّسِعَ في هذا ٱلكِتابِ لَمقالِ كُلِّ ما نَودُّ من أمرِها، وإنْ كُنّا لا نُغْفِلها إطلاقاً، ليَكونَ ٱلكِتابُ دَليلَ دِراسةٍ أو دِراساتٍ، تَستَوي وذلكَ النّشاطَ ٱلعلائيَّ ٱلعَظيمَ، نَضَعُها نحنُ أو يَضَعُها ٱلآخَرونَ.

نظريّةُ المعرفةِ عند دارسيه المُحدَثين

«الأصولُ ٱلمُعتَمَدَةُ عندَه يَسْهُلُ تَعْدادُها، ولكنْ قلّما تجِدُ عِنْدَه أصْلاً خَلا من التّناقُضِ وٱلاَضطرابِ. فها هو يَقولُ في **الفُصول والغايات**: يُدرَكُ ٱلعِلمُ بثلاثةِ أشْياءَ: ٱلقياسِ الثّابتِ، وٱلعَيانِ ٱلمُدرِكِ، وٱلخَبَرِ ٱلمُتَواتِرِ (ص٤٦٨).

«وحينَ نُحاوِلُ دَرْسَها عندَه، نجِدُهُ يَدْعو إلى ٱلاَئتمامِ بٱلعقلِ ٱلخالِصِ وٱلاَهتداءِ بهَدْيِهِ، وإلى أنّه ٱلمُخلِّصُ من ٱلحَيْرَةِ والضَّلالِ، وهو هو سَبيلُ ٱلمعرفة:

فَكِّروا في ٱلأُمورِ يُكْشَفْ لكُم
بَعْضُ ٱلّذي تَجْهَلونَ بالتَّفكيرِ (ج٢/٢٩٨)

ولـمْ يَـتَناولْ دُرَّةَ آلـحَـقِّ غـائـصٌ
مـن الـنّـاسِ، إلّا بـالـرَّوِيَّـةِ وآلـفِـكْـرِ (ل٢/٢١٦)

«وأسرَفَ في تَمجيدِ آلعَقْلِ حَتّى جَعَلَه خَيْرَ مُشيرٍ، وأعلَنَ إمامَتَه:
فـشَـاوِرِ آلـعَـقْـلَ، وآتْـرُكْ غـيـرَه هَـدَراً
فآلعقلُ خيرُ مُشيرٍ ضمَّهُ النّادي (ل٢/٧٥)

«بَلْ بالَغَ فخاصَمَ السَّفْسَطَةَ في إنكارِ آلحقائِقِ قالَ:
وقـالَ أُنـاسٌ: مـا لِأمْـرٍ حَـقـيـقـةٌ
فَهَلْ أثْبتوا أنْ لا شقَاءَ ولا نُعْمى (ل٤/١٧٣)

«وهو في إسرافِهِ في تَمجيدِ آلعقلِ يُنكِرُ آلأخْبارَ مَهْما بلَغَ من تأكيدِها، قالَ:
فَـلا تَـقَـبَـلَـنْ مـا يُـخْـبِـرونَـكَ ضِـلَّـةً
إذا لـمْ يُؤَيِّـدْ مـا أَتَـوْكَ بـهِ، آلـعـقـلُ (ل٤/٨)

ولكنْ لا يَلْبَثُ أنْ يُداخِلَهُ الشَّكُّ في آلعَقْلِ نفسِه، فَيَعْتَرِفُ بقُصورِه، قالَ:
وقـدْ أعْـمَـلَ الـنّـاسُ أفْـكـارَهـم
فَـلَـمْ يُـغْـنِـهِـمْ طُـولُ إعْـمـالِـهـا (ل٤/١١٩)

«ويَردّونَ هذا كُلَّه عندَه إلى تردُّدِه وتخبُّطِه، ومَصْدَرُ هذا التَّخبُّطِ أنّ آلعَقْلَ يَعْجِزُ عن فَهْمِ ما يَحْفِلُ به آلكَوْنُ من أسْرارٍ. ماذا عَرَفَ آلعَقْلُ من أُمورِ آلخَيْرِ والشَّرِّ وآلجَبْرِ والآختيارِ؟ كما بانَ عَجْزُه عن إدراكِ آليَقينِ في مُشكِلاتِ آلحَياةِ. وإنّه لأعْجَزُ حينَ يَتَجاوَزُ آلأمرُ هذه آلمَشاهِدَ آلّتي نَراها بأعيُنِنا إلى آلأمورِ آلغَيْبيّةِ، وما يتّصِلُ بمَصيرِ آلكائِنِ، قالَ:

أُمـورٌ يَـلْـتَـبِـسْـنَ عَـلـى آلـبَـرايـا
كـأنّ آلـعَـقْـلَ مِـنْـهـا فـي عِـقـالِ (ل٤/٨٩)

*

وَجَـدْتُ آلـغـيـبَ، تَجْـهَـلُـهُ الـبَـرايـا
فما «شِقٌّ»؟، هُدِيتَ، وما «سَطيحُ»؟ (ل١/٢٩٨)

«إنّ الرّجُلَ، كما رَأَيْتَ في مسألةِ آلمعرفةِ، لم يَخْضَعْ في فَهمِه للحياةِ لأصلٍ ثابتٍ من أُصولِ آلمعرفةِ، فهو لا يثبُتُ على إيمانِه بآلعقلِ ولا يطمئنُّ إلى عَجْزِ آلعقلِ وقُصورِه.

«وإنّـما يَقِفُ مُتَرَدِّداً بحَيْثُ لا تَستطيعُ أن تَضُمَّهُ إلى فريقٍ من آلمُفَكِّرينَ، فهو لَيْسَ عقليّاً لأنّه لم يثبُتْ إيمانُه بآلعقلِ، وليسَ هو سوفسطائيّاً لأنَّه لم يَطْمَئِنَّ إلى عَجْزِ آلعَقْلِ، وليسَ هو شَكّاكاً لاأدْرِيّاً، لأنّه تَيقَّنَ حيناً وآتَّهَمَ بآلعَقْلِ حيناً»[١].

المعرفة: نظريتها وطبيعتها عندنا

نبدَأُ قبلَ أيِّ شيءٍ آخَرَ من فلسفتِه ببَحْثِ آلمَعْرفةِ عندَه في نظريَّتِها وطَبيعَتِها ومنهَجِها، وهذا طبيعيٌّ جِدّاً. فقبلَ الدُّخولِ إليه يلزَمُنا أن نعلَمَ كيفَ يُفكِّرُ ويعرِفُ، وكيفَ لنا أن نُفكِّرَ ونَعْرِفَ معه، وما قيمةُ آلمعرفةِ، وما أُصولُها.

ونظريّةُ آلمَعْرِفةِ لها من آلأهميّةِ أنّها كانَتْ دائماً، وتَكونُ أبداً، أساساً أوّليّاً لتوالُدِ آلمَدارسِ آلفلسفيّةِ آلمُخْتَلِفةِ من قُربٍ أو بُعدٍ، وأساساً أوّليّاً

(١) وهي مَجموعةُ آستنتاجاتٍ ساذَجةٍ، وإنْ أجْمَعَ عليْها آلمُحْدَثونَ من الدّارسينَ، وهو أعمقُ جِدّاً مِمّا وَهِموا.

أيضاً لنُشوءِ ٱلفِرَقِ الدّينيّةِ، والنِّحَلِ ٱلمُختلفةِ إلى حدِّ التّبايُنِ أحياناً في ٱلمِلَّةِ ٱلواحدةِ. وليسَ يتّسِعُ ٱلمجالُ بنا للتحدُّثِ عن شَيءٍ من نظريّاتِها وإنْ كانَ خَيْراً، قصْداً لِلاتصالِ بأبي ٱلعَلاءِ قُدُماً ومن أخْصَرِ طَريقٍ.

وَيْنبَغي ٱلآنَ أن نَدورَ مع ٱلمعرّيّ في لُزوميّاتِه دَورةً قَصيرةً لنَرى حَقيقةَ النّظريّةِ عندَه، قال:

هلْ صَحَّ قولٌ مِنَ ٱلحاكي، فنَقْبَلَهُ
أمْ كُلُّ ذاكَ أباطيلٌ وأسْمارُ؟
أمّا ٱلعُقولُ، فآلَتْ أنَّهُ كَذِبٌ
وٱلعقلُ غَرْسٌ، له بالصِّدْقِ إثْمارُ (ل٢/١٣١)

*

إذا تَفَكَّرْتَ فِكْراً لا يُمازِجُهْ
فَسادُ عَقْلٍ صَحيحٍ، هانَ ما صَعُبا (ل١/١٢٨)

*

لَقَدْ صَدِئَتْ أفْهامُ قَوْمٍ، فَهَلْ لها
صِقالٌ، ويَحْتاجُ ٱلحُسامُ إلى الصَّقْلِ؟
وكَمْ غَرّتِ الدُّنيا بَنيها وَساءَني
مَعَ النّاسِ، مَيْنٌ في ٱلأحاديثِ والنَّقْلِ
سَأتْبَعُ مَنْ يَدْعو إلى ٱلخَيْرِ جاهِداً
وأرْحَلُ عنْها، ما إمامي سِوى عَقْلي (ل٤/٦٧)

*

نُكَذِّبُ ٱلعَقْلَ في تَصْديقِ كاذِبِهِمْ
وٱلعَقْلُ أوْلى بإكْرامٍ وتَصْديقِ (ل٣/٢٢٠)

هِيَ غُرْبَتانِ: فَغُربَةٌ مِنْ عاقِلٍ
ثُمَّ آغْتِرابٌ مِنْ مُحكِّمِ عَقْلِ (ل٤/١٠٢)

*

لم تَلْقَ إلّا جاهِلاً مُتَعاقِلاً،
مُتَجَمِّلاً مِنْهُمْ بغَيْرِ جَمالِ
مِثْلَ آلبَهائمِ أُبْهِمَتْ عَنْ رُشْدِها
إلّا آحْتِمالَ ثَقائِلِ آلأحْمالِ (ل٤/١٠٨)

*

كَذَبَ الظَّنُّ لا إمامَ سِوى آلـ
ـعَقْلِ مُشيراً في صُبْحِهِ وآلمساءِ
فإذا ما أطَعْتَهُ جَلَبَ آلـ
ـرحمةَ عِنْدَ آلمَسيرِ وآلإرساءِ
فآنْفَرِدْ، ما آستطَعْتَ، فآلقائِلُ الـ
ـصادقُ يُضْحي ثِقْلاً على آلجُلَساءِ (ل١/٧٤أ)

*

هِيَ آلأفْهامُ قَدْ صَدِئَتْ وكَلَّتْ
ولَمْ يَظْفَرْ لها أَحَدٌ بصَقْلِ
أَتَعْقِلُ ساعَةً ـ فَتَرومَ عَقْلاً
لعَنْسِكَ ـ أمْ خُلِقْتَ بغَيْرِ عَقْلِ (ل٤/٩٥)

*

قالَ المُنجِّمُ والطَّبيبُ كِلاهُما:
لا تُحشَرُ الأجْسادُ، قُلْتُ: إلَيْكُما

إنْ صحَّ قولُكُما، فَلَسْتُ بِخاسِرٍ،
أو صحَّ قَوْلي، فالخسارُ عَلَيْكُما (ل٤/١٨٧)

هذه نُتَفٌ، وهي قَليلٌ مِن كَثيرٍ يُشبِهُها ويأخُذُ نَسَقَها في **اللّزوميّات**، ولْنُطالِعْ من خِلالِها رأيَهُ في المعرفةِ وطَبيعةِ العَقْلِ، ولا سيَّما حُسْنُ تصرُّفِهِ فيما أبْدَعَ من بُرهانِ الرِّهانِ.

يُقرّرُ المعرّيُّ في قولِهِ: «هل صَحَّ قَوْلُ... إلخ» بأنّ العقلَ غرْسٌ، وحَرِيٌّ أنْ نأخُذَ كلمةَ «غرْس» بفضلِ تأمُّلٍ دَقيقٍ، لنُرافِقَ المعرّيَّ على بَصيرةٍ... نعرِفُ الغرْسَ بأنّه يَعْني النّبتةَ الّتي تُدَسُّ أو الفَسيلُ[٢] أو النّواةُ، وعلى أيِّها حُمِلَتْ فهيَ تَلْتقي على إفادَةٍ واحِدةٍ. فالنّبتةُ تتفتّحُ فيها كُلُّ الخصائِصِ، والفَسيلُ أيضاً كذلكَ، على أنّه يَزيدُ بمعنى الانفِراعِ من أصْلٍ، والنّواةُ تَكْمُنُ فيها الخصائِصُ الأولى. وإنْ كنتُ أميلُ إلى تَرْجيحِ أنّه يَعْني الفَسيلَ، من جِهةِ كونِهِ أشدَّ اتّصالاً بالأساسِ الفَلسفيِّ عندَ المعرّيّ.

ومن هذا نَنْتَهي إلى أنّ العقلَ عندَه مُزوَّدٌ بخَصائِصَ ثابتةٍ، أيْ أوّليّاتٍ، وهي تَنْمو بأشكالٍ مُختلفةٍ من طَبيعةِ ما يَسْتَقي الغرسُ به، فيجيءُ ضاوِياً مُلتوِياً حيناً، وبالغاً زَكيّاً حيناً.

ويؤكّدُ هذا في قولِه «إذا تَفَكَّرْتَ ... إلخ»، ويَنْبغي أن نتأمّلَ تَعبيرَه الرّائعَ «فساد عقل صحيح»، هذا التّعبيرَ الّذي يُقرّرُ بأنّ التّصَعُّبَ الّذي نَعْيا به ونَجْهَدُ بحلِّه ليسَ هو في الشّيءِ وليسَ في العَقْلِ نفسِه ومَلَكَةِ الإدراكِ، وإنّما ينبَعُ مِمّا يُخالِطُ العقلَ من الأباطيلِ، وتُسَمّى أفكاراً

(٢) الفَسيل: العِذْقُ الّذي يَتَفَرّعُ من جُذورِ بعضِ الأشجارِ كالنّخيلِ والمَوْزِ، وبالتّجريدِ التّصعيديّ يُفيدُ رمزيّاً: المنبثقُ من كُلّيٍّ أي من أصلٍ، ولذا قُلْتُ من بعدُ، هو الأشدّ اتّصالاً بالأساس العَلائيّ.

وفلسفاتٍ ومُسلَّماتٍ أحْياناً، وهي في حَقيقتِها فسادٌ فقطْ لا يزالُ بآلعقلِ حتّى يَحْتَقِنَ مُتَوَرِّماً وينغِلَ نازّاً بآلمِدَّة والصَّديد:

وقُلْتَ: الشَّمْسُ بآلبَيْداءِ تِبْرٌ،

ومِثْلُكَ مَنْ تَخَيَّلَ، ثُمَّ خالا (س١/٢٠)

وفي هذا البيتِ يوضِحُ أنّ أكثرَ ما يتخيّلُهُ الناسُ تخيُّلاً، لا يَلْبَثونَ أن يَعُدّوه ويَخالوهُ حَقائِقَ.

ويَعودُ فيَشْرَحُ لنا هذا في قولِه «لقدْ صَدِئَتْ أَفْهامُ... إلخ»، يُحدِّثنا بأنّ آلمعارِفَ آلّتي نَجْهَدُ بتَحميلِ آلعَقْلِ إيّاها تَتَراكَبُ عليهِ مثلَ صَدَإٍ كَثيفٍ، فأشدَّ ما تَكونُ آلحاجةُ إلى عمليّةِ صَقْلٍ، تتناوَلُه من كُلِّ جِهاتِه وجَميعِ نواحيه.

على أنّه ينتقِلُ إلى مَنْحىً آخَرَ في قَوْلِه «نُكذِّبُ آلعَقْلَ في تَصْديق... إلخ»، ليُعَرِّفَنا بأنّنا نُخضِعُ آلعَقْلَ ونُخضِعُهُ في إكراهٍ، لتَصْديقِ قَضايا يَزْعُمونَها كآلمُسَلَّماتِ وآلمبادِىءِ.

وهو بهذا يُلمِسُنا رأيَه الصَّريحَ في آلعَقْلِ آلفِطْرِيِّ وآلعقلِ آلمُكْتَسَبِ، وآلمعرّيُّ يَطْمَئِنُّ إلى آلأوّلِ آطمِئْناناً لا حدَّ له، ويَحْقِدُ على آلثّاني حِقْداً لا حَدَّ له أيضاً، إذْ يمتَدُّ بعُروقِه وشَراييـنِه في آلعَقْلِ آلأوّلِ، وينبِضُ بنَبَضاتِ فَسادِه، وآسمَعْه كيفَ يَقولُ:

إنّما نحنُ في ضَلالٍ وتعليلٍ،

فإنْ كُنْتَ ذا يقينٍ فهاتِهْ (ل١/٢٥٢)

أليسَ هو يُظهِرُنا في صَراحةٍ بالغةٍ، على أنّنا في ضَلالِ التّعميماتِ، وهي طَبْعاً قَضايا آلعقلِ آلمُكتسَبِ. ويَزيدُنا صَراحةً في قولِه «هي غُرْبَتانِ... إلخ»، وهنا وَضَعَ أيْدينا على التَّقْسيمِ في شَكْلٍ بارِزٍ نُحِسُّهُ

ونلمِسُهُ. ولقدْ رامَ أخْذَ ٱلعَقْلِ ٱلمُكْتسَبِ بضربةٍ ساحِقَةٍ أخيراً، فقالَ «لم تَلْقَ إلّا جاهِلاً... إلخ».

وٱلمعرّيُّ، مُتَلَمِّسُ النّهجِ ٱلقَويمِ والطّريقِ السّالكِ بلهفَةِ ٱلأعمى، كيفَ يَرْجوهُ مِمّنْ هو مِثلُه عَميَ:

أنا أعْمى، فكَيْفَ أُهْدى إلى ٱلمنـ

ـهجِ، والنّاسُ كُلُّهم عُميانُ (ل٤/٢٦٧)

وعندَ هذهِ النُّقطةِ الدّقيقةِ، يشعُرُ ٱلمعرّيُّ بأنّ ٱلعقلَ ٱلفِطريَّ ٱنْطَمَسَتْ معالمُهُ بصدإِ ٱلعقلِ ٱلمُكْتَسَبِ، والضّرورةُ تَقْضي بصَقْلِه. ولكيْ يتَسَنّى لنا ذلك الصَّقْلُ، فهذا ما يحدِّثُنا ٱلمعرّيُّ عنْه في قولِه «كَذَبَ الظَّنُّ... إلخ». وتأمّلْ بدِقّةٍ كبيرةٍ قولَه «فٱنفرَدْتُ ما ٱستطعْتُ».

إنّه يجِدُ تَخْليصَ ٱلعَقْلِ ٱلفِطْرِيِّ من طُفيليّاتِ ٱلعقلِ ٱلمُكْتسَبِ وتَنْقِيَتَهُ من شَوائبِه وأوهامِهِ، إنّما يتمُّ بٱلعُزلةِ ٱلحائلةِ بينَه وبينَ ٱلآخرينَ، فلا تَعْبَتُ به ٱلعَدْوى وتَهُبُّ عليهِ «الثُّؤَباءُ»:

تَـثـاءَبَ عَـمْـرٌو إذ تَـثـاءَبَ خـالِـدٌ

بِـعَـدْوَى، فَـمـا أعْـدَتْـنِـيَ الـثُّـؤَبـاءُ (ل١/٥٠)

وكأنّه يُشيرُ إلى ٱلقسريّةِ الٱجتماعيّةِ وشِدّةِ خَطَرِها على ٱلفِكْرِ وٱلكائِنِ، ولذا هو يَقودُنا إلى ٱلعُزلةِ ٱلمُحَصِّنةِ، ٱلّتي تَسْمَحُ لنا أيضاً بتَقْليبِ قَضايا ٱلعَقْلِ على متنوِّعِ وُجوهِها في تَمَهُّلٍ، وتَحْليلِها طَويلاً في صِدْقٍ، وٱسمَعْه كيفَ يَقولُ:

ويَـعْـتـري الـنَّـفـسَ إنـكـارٌ ومـعـرفـةٌ

وكـلُّ مـعـنـىً لـه نَـفْـيٌ وإيـجـابُ (ل١/١٠٤)

وكأنّهُ خَشِيَ ٱرتيابَ النّاسِ في قيمةِ هذه ٱلوَسيلةِ، فيهتِفُ فيهِمْ بقولِه

«هِيَ ٱلأَفْهامُ... إلخ». إنّهُ يشتَدُّ في طَلَبِ التَّجرِبةِ ويَتَحدّى أيضاً، في مَقالٍ صَريحٍ لا لُبْسَ فيه ولا غُموضَ: ألا تَعقِلُ ساعةً وتَرومُ رَبْطاً لعَنْسِكَ أي لناقَتِكَ أي عُضويَّةِ حياتِك ـ فقدْ سَبَقَ لنا، في فَصْلِ «مقدِّمةِ لزوم ما لا يلزم»، (ص ٩٣)، بَيانُ أنّ النّاقةَ تَقومُ كِنايةً عن ٱلحياةِ ـ وتُدركُهُ غَضْبَةٌ مشتعلةٌ حادَّةٌ على أولئكَ الشَّارِدينَ النّادّينَ، فيقولُ: أمْ خُلِقْتَ بغيرِ عقلٍ، حينَ لا تَعْقِلُ، أيْ تُقيِّدُ طَبيعتَك ٱلحَيّةَ بمِثْلِ ٱلعُقالِ:

وإنَّكَ، مُنْذُ كَوْنِ النَّفْسِ عَنْساً

لَتُوضِعُ في الضَّلالةِ، أو تَخُبُّ (ل١/١٠٦)

ومِنْ وَراءِ هذهِ الدَّوْرةِ ٱلقَصيرةِ مَعَ أبي ٱلعَلاءِ، نَنْتَهي إلى أنّه يَقولُ بٱلعقلِ ٱلخالِصِ وأنّه يَنْبوعُ ٱلمعرفةِ، وبهذا فارَقَ ٱللّاأدريّةَ، ونُفاةَ ٱلحقائِقِ، والرَّيْبيّةَ، وٱلباطنيّةَ وبٱلأخصِّ ٱلجَديدةَ. ويُقرِّرُ أنّ ٱلعَقْلَ يَشْتَمِلُ على أوّليّاتٍ أزليّةٍ، أو خَصائِصَ ثابتةٍ في ٱلعَقْلِ ٱلجُزئيِّ من ذلكَ ٱلعَقْلِ ٱلكُلّيِّ، وهي، أيْ هذه ٱلأوّليّاتُ، يَنبوعُ ٱلمَعْرفةِ الصّحيحةِ الصّادقةِ.

بَيْدَ أنّ هذا ٱلعَقْلَ ٱلفِطريَّ لَبَّسَ عليهِ ٱلأحْياءُ بٱلأوْهامِ وأبْلَسُوهُ بٱلأباطيلِ وٱلخَيالاتِ ٱلّتي صاغوا منْها مُقَدِّماتٍ وبديهيّاتٍ سَمَّوْها مبادِىءَ، وفَرَضوها على ٱلعَقْلِ ثُمّ لا يُجاوِزونَها، وإذا جَاوَزوا حَرْفِيَّتَها أحْياناً فليسَ يُجاوِزونَ روحَها، فكانوا سَبيلاً إلى خَلْقِ أوهامٍ جَديدةٍ، تزيدُ في تَكْبيلِه وجَمْعِ ٱلأغْلالِ وٱلأصْفادِ عليهِ، وهذا، دونَ ريْبٍ، سِرُّ حملتِهِ على ٱلمُعْتَزلةِ وأشباهِهِم.

وكانَ من هذا ـ كما يُحدِّثُنا أبو ٱلعَلاءِ ـ أنْ صَدِىءَ ٱلعقلُ وتأكَّلَهُ الصَّدَأُ. فلمْ يَعُدْ ثَمَّةَ مَناصٌ عن صَقْلِه كيْ يَتَحَرَّكَ بخصائِصِه ٱلأزليّةِ، مُتّصِلاً بجَوْهرِ ٱلعقلِ ٱلكُلّيِّ مثلَ عاكِسٍ نقيِّ ٱلمائيّةِ، أو بتعبيرِ ٱلباطنيّةِ،

مثلَ مرآةٍ لم تَعُدْ ذاتَ وَجْهَيْنِ، أحدُهما مُتَجَمِّدٌ صامِتٌ وٱلآخرُ عاكِسٌ ناطِقٌ.

وقدْ رأى سَبيلَ هذا الصّقلِ في ٱلآنفرادِ، وٱلعُزْلةِ ٱلمُقَيّدةِ للطّبيعةِ ٱلحَيّةِ بالزُّهْدِ، وهي تَضْمَنُ، أوّلاً، إضعافَ عملِ ٱلأخلاطِ في ٱلفِكْرِ، أيْ تَنْقِيَتَهُ من كُلِّ أثرٍ عُضوِيٍّ؛ ثانياً، تَنْقِيَتَه من أشياءِ ٱلعَقْلِ ٱلمُكْتَسَبِ؛ ثالثاً، التّفلُّتَ من أسْرِ ٱلقَسْريّةِ الٱجتماعيّةِ ٱلّتي تطبَعُ ٱلفِكْرَ وٱلكائِنَ بإرادةٍ ودونَ إرادةٍ:

سَرَيْتُمْ على غِيٍّ، فهَلّا ٱهتَدَيتُمْ
بما خَبَّرَتْكُم صافِياتُ القَرائِحِ (ل١/٣٠٦)

وما هو حتّى يَنْشَطَ بٱلعَقْلِ خالِصاً مِنَ ٱلأدرانِ، نابِضاً بخصائِصِه الثّابتةِ، ذاهِباً في ٱتّجاهِ مَنطقٍ جَديدٍ.

ثمَّ يبتَدِعُ لأوّلِ مرّةٍ ما يُعرَفُ بٱسمِ بُرهانِ الرِّهانِ ٱلّذي يُعزى ٱليَوْمَ خَطَأً إلى باسكال في الدِّراساتِ ٱلفَلسفيّةِ «قالَ ٱلمُنَجِّمُ والطَّبيبُ كِلاهما... إلخ».

منطق المعرّي

رأينا في بَحْثِ ٱلمَعْرِفةِ وطَبيعتِها، أنّ ٱلعَقْلَ ٱلمُكْتَسَبَ بمُتناقِضاتِه يُفْسِدُ أُلْفَةَ ٱلعَقْلِ ٱلمَنْطقيّةَ، وبتَعبيرِ أبي ٱلعَلاءِ يُفسِدُ الصِّدْقَ، ٱلخاصّةَ ٱلطّبْعيّةَ فيه، وبذلكَ يضِلُّ ويتعقّدُ على ٱلأباطيلِ ولا تصدُقُ نتائجُه بحالٍ.

فالصّدق هو أساسُ ٱلمَنْطِقِ ٱلعَلائيِّ. والصّدقُ، في مفهومِه، أعمُّ كثيراً من ٱلمَفْهومِ ٱللُّغويِّ وٱلأخلاقيِّ في ٱلفَلْسفاتِ التّعليميّة. فهو يَعْني ما يتّسِعُ ويشمُلُ:

أوّلاً ـ تَصْحيحُ الطّبيعةِ ٱلعُضْويّةِ ٱلحَيَّةِ، وبتعبيرِ أبي ٱلعَلاءِ «عقل ٱلعَنْس» ٱلّذي أوضَحَهُ وعَبَّر عنه مرّةً أُخرى بقولِه:

فرجِّبِ ٱللّهَ صِفْراً من مَحارِمِه،

فَكَمْ مَضَتْ بك أصفارٌ وأَرجابُ (ل١/١٠٤)

فإنّ ٱلأخلاطَ ٱلعُضويّةَ إذا ما تَوَهّجتْ بشِرّتِها، تُفسِدُ أُلْفَةَ ٱلعقلِ وعنصرَ الصِّدقِ فيه. فَوَجَب إذاً تنقيةُ ٱلعَقْلِ من كُلِّ راسبٍ عُضويٍّ، وإلّا فٱلعُضويّةُ تَشْكُمُهُ وتَستبِدُّ بأحكامِه، ويظهَرُ فيه بأكثرَ مِمّا يظْهَرُ فيها،

وبالجُملةِ هي تكسِفُهُ كَسْفاً تامّاً:

قد أسْرَفَ الإنْسُ، في الدَّعْوى، بجَهْلِهِمُ
حَتّى ادَّعَوْا أنَّهم لِلْخَلْقِ أربابُ
إلْبابُهُمْ كانَ بالَلَّذّات مُتَّصِلاً،
طُولَ الحياةِ، وما لِلْقَوْمِ ألْبابُ (ل١/١٠٢)

ثانياً ـ التّفلُّتُ من أسْرِ القَسرِيّةِ الاجتماعيّةِ، وعَدْوى الفِكْرِ والشُّعورِ جَميعاً:

بُعْدي مِن النّاسِ بُرءٌ من سَقامِهِمُ،
وقُرْبُهُمْ للحِجى والدِّينِ، أدْواءُ (ل١/٥٦)

*

تَثاءَبَ عَمْرٌو إذْ تَثاءَبَ خالِدٌ
بعَدْوى، فما أعْدَتْنِيَ الثُّؤَباءُ (ل١/٥٠)

ثالثاً ـ الرَّيْبُ الحادُّ العَميقُ في كُلِّ ما يعتبُره النّاسُ حَقائقَ أوّليّةً، ومبادىءَ للنّظرِ والفِكْرِ:

وما تُريكَ مَرائي العَيْنِ، صادِقَةً،
فاجْعَلْ لنفسِكَ مِرآةً من الفِكَرِ (ل٢/٢٣٥)

*

مِرْآةُ عقلِكَ، إنْ رأيْتَ بِها سِوى
ما في حِجاكَ، أَرَتْه وهو قَبيحُ (ل١/٢٩٩)

رابعاً ـ جُحودُها أيضاً لا عَلى مَعْنى الجُحودِ للجُحودِ، بلْ عَلى مَعْنى الجُحودِ لسَلامةِ التّحليلِ والنّظرِ المنطقيّ، تَوْفيراً لعُنصرِ الصِّدقِ بتَحريرِ العقلِ من ضَغْطِ الأفكارِ الّتي سبَقَ له الاقتناعُ بها، وتَوَصُّلاً لليَقينِ والقَطْعِ

بسَلْبٍ أو إيجابٍ، وآسمَعْ قولَه «إنّما نحنُ في ضَلالٍ وتعْليلٍ... إلخ»، وقولَه:

غَدَوْتَ مَريضَ آلعَقلِ والدِّينِ، فآلْقَني
لِتَسْمَعَ أنْباءَ آلأُمورِ الصَّحائِحِ (ل١/٣٠٦)

فهو يشجُبُ، بآلقَصْدِ، جميعَ ما يُعَدُّ واقِعاً فكريّاً، زَلزلةً للعقلِ آلمُطْمَئِنِّ، وحَفْزاً له على النَّظَرِ مرّةً أُخرى:

قَدْ صَيَّرَ الإنسانُ، في أحشائِهِ،
قَبْراً لِغانِيَةٍ عن آلإقبارِ (ل٢/٢٨٤)

هذا مفهومُ عُنصرِ الصِّدقِ آلعَقْليِّ كَما نستنتجُهُ من أبي آلعَلاءِ. وبدونِه لا يَتَرَدَّدُ آلمعرّيُّ عن آلحُكْمِ على آلعقلِ بأنّه مَدْخولٌ مُزوَّرٌ، يترَعُ بآلفَسادِ ويتموَّهُ بآلأباطيلِ. وهذا يُهيِّىءُ لنا سَبيلَ آلآنتقالِ إلى آستنتاجٍ جديدٍ، يَدورُ على معنى آلفكرِ والنَّظرِ آلعقليِّ.

نحنُ نُعرِّفُهُ، أي آلفِكرَ، في مَنْطِقِ آلفلسفةِ الصُّوريِّ، بأنّه تَرْتيبُ أُمورٍ مَعْلومةٍ للتَّوَصُّلِ إلى مَجهولٍ تصوُّريٍّ، أيْ حَدٍّ أو قولِ شارحٍ، أو تَصْديقيٍّ أيْ قِياسٍ.

وآلمَلحوظُ في آلأُمورِ آلمَعْلومةِ، ما سبقَ وكانَ لها معنىً حاصِلٌ في الذِّهنِ. وقد عرَفْنا أنَّ آلمعرّيَّ لا يثِقُ أبداً بآلحُصولِ الذِّهنيِّ السّابِقِ، لأنّه بعضٌ منَ آلعَقْلِ آلمُكْتَسَبِ آلمَدْخولِ، وآلفاقِدُ لخاصّةِ الصِّدْقِ الضَّروريّةِ لأُلْفَتِهِ آلمَنْطِقيّةِ. فَمِثْلُ هذا آلفِكْرِ مُنْكَرٌ عندَه، بل هو سبيلٌ سَوِيٌّ للتخبُّطِ وآلجَهالاتِ الدّاكنةِ الدَّهْماءِ:

وَقَدْ يَفْسُدُ آلفِكْرُ في حالَةٍ،
فيُوهِمُكَ الدُّرَّ قَطْرُ السُّرى (ل١/٨٩)

إذاً فلَهُ معنىً آخرُ عندَه، وهو في آتّجاهِ ما تَقَدّمْنَا به: تَرتيبُ أُمورٍ عفويّةٍ ـ أي مُجَرَّدةٍ عن كُلِّ حُصولٍ ذهنيٍّ سابقٍ ـ للتوصُّلِ إلى صِدْقٍ عقليٍّ أو تجربةٍ حيّةٍ، ومن ثَمَّ يكونُ التّوصُّلُ صَحيحاً، والتّوصُّلُ واقِعاً في حُدودِ أُلْفةٍ منطقيّةٍ، فإنّ آطِّراحَ كُلِّ معرفةٍ سابقةٍ هي آلمُقَدّمةُ لِكُلِّ معرفةٍ صادقةٍ:

لَعَمْرُك ما غادَرْتُ مَطلعْ هَضْبَةٍ
مِنَ آلفِكْرِ، إلّا وآرتَقَيْتُ هِضابَها (ل١/١٢٥)

*

إنْ عَذُبَ آلمَيْنُ بأفواهِكُمْ،
فإنَّ صِدْقِي بغَمّيَ أعْذَبُ
طَلَبْتُ للعالَمِ تَهذيبَهُمْ،
والنّاسُ ما صُفُّوا ولا هُذِّبوا
وأكْثَروا الدَّعْوى بلا حُجَّةٍ،
كُلٌّ، إلى حَيِّزِه يَجذِبُ (ل١/١١٦)

فللمعرّيّ إذاً منطقٌ، وهو أيضاً آلةٌ تَعْصِمُ الذِّهنَ عن آلخَطَأِ في آلفِكْرِ، وعناصِرُه هي:

ـ **قانونُ التَّجرِبةِ وآنعكاساتها مَشاعِرَ حيّةً**: وهو عندَه آلمُنْطَلَقُ آلأوّلُ للإثباتِ، ولا سيَّما التّجربةُ آلمُقْتَرِنةُ بعقلٍ أَلْمَعيٍّ نَفّاذٍ:

إذا قُرِنَ الظَّنُّ آلمُصيبُ مِنَ آلفَتى
بتَجرِبةٍ، جاءا بعِلْمِ غُيوبِ (ل١/١٦٠)

ـ **قانونُ النَّفْيِ والإثباتِ**: وهذا آلقانونُ آستمَدّهُ آلمعرّيُّ من آلباطنيّةِ

ٱلجَديدةِ، ٱلّتي ٱستمَدَّتْهُ ـ حَسَبَ مقالِها ـ من كلمةِ الشّهادةِ «لا إله إلّا اللّه». فقد عَمَدَتْ وصاغَتْها في مُعادلةٍ عقليّةٍ هي (لا. إلّا)، دالّةً على النَّفْيِ للأشياءِ توصُّلاً إلى إثباتِ الشّيء.

وهذا ٱلقانونُ يَنْتَهي بنتيجتيْنِ، ٱلأولى، أنَّ النّظرَ ٱلعَقْليَّ يَنْبَغي أنْ يبتدىءَ بالنَّفْيِ ٱلمُطْلَقِ، ليتوصَّلَ إلى ٱلإثباتِ ٱلمُحَدَّدِ؛ والثّانيةُ، أنّ ٱلكَثْرةَ هي عَلامةُ ٱلباطلِ (لاحِظْ أنّ لا إلهَ نفيٌ للجِنْس)، فالتّعليلُ ٱلّذي يَنْتَهي بتَفْسيرٍ ذي شُعَبٍ يَشْهَدُ على بُطلانِ نفسِه، وأنّ ٱلوَحْدَةَ هي عَلاقةُ ٱلحَقِّ (لاحِظْ أنّ ٱلاستثناءَ مِعيارُ ٱلعُمومِ فهو يُفيدُ ٱلقَصْرَ). ولْننتقلْ من بعدُ إلى **اللّزوميّات**، لنتبيّنَ مُشَخّصاتِ هذا ٱلقانونِ، قالَ:

وٱلإنْسُ ما بَيْنَ إكْثارٍ إلى عَدَمٍ،
كٱلوَحْشِ ما بينَ إمْحالٍ وإخْصابِ
لم يُثبِتوا بقِياسٍ أصلَ دِينِهُمُ،
فيَحْكُموا بَيْنَ رُفّاضٍ ونُصّابِ (ل١/١٦٣)

*

يا لَيلُ؟ ضِدّانِ: قَوْمٌ في الدُّجى سُهُدٌ
تَهجّدوكَ[1]، وقومٌ فيكَ هُجّادُ (ل٢/٢٩)

*

تَرومُ قِياساً للحَوادِثِ ضِلَّةً،
وتلكَ أُصولٌ، ليسَ يَجْمَعُها حَصْرُ

(١) وفي رِوايةٍ: في الدُّجى سَهَر، ـ تَهَجّدوكَ: لم يَغمضْ لهم جفنٌ وهمْ أيقاظٌ، أو بالتّعبيرِ ٱلأصيل في ٱلعربيّةِ: لم يَغْمضْ لليلِهِمْ جفنٌ عِبادةً وتَحَنُّثاً ـ هجّاد: يَغطّونَ في نَوْمٍ عَميق.

وعندَ ضِياءِ ٱلفَجرِ صُلِّيَتِ الضُّحى[٢]

وعندَ غُروبِ الشَّمْسِ صُلِّيَتِ ٱلعَصْرُ (ل١١٣/٢)

*

وما يَزالونَ، في شامٍ وفي يَمَنٍ،

يَسْتَنْبِطونَ قِياساً ما لَهُ أَمَدُ

فَذَرْهُمُ ودَنَايَاهُمْ فَقَدْ شُغِلوا

بِها، ويَكْفيكَ مِنْها ٱلواحدُ الصَّمَدُ[٣] (ل١٧/٢)

*

يا ثُلَّةً في غَفْلَةٍ، وأُوَيْسُها آلـ

ـقَرَنيُّ مِثْلُ أُويسِها، أيْ ذيبِها (ل١٧٧/١)

فٱلمعرّيُّ يُحدّثنا في قَوْلِهِ «وٱلإنس... إلخ»، أنّ الناسَ من تَفْكيرِهم بينَ رَجُلين: إيجابيٍّ مُبالغٍ، وسلبيٍّ مُبالغٍ أيضاً، فضَلّوا لِذلك وهاموا في الضَّلالِ. فإنّ ٱلمُبالغةَ في ٱلإيجابِ كَثْرةٌ وهي باطلةٌ، كما أنّ ٱلمُبالغةَ في السَّلْبِ كَثرةٌ وهي باطلةٌ أيضاً. وفي كِليْهما لا يَستقيمُ قِياسٌ يكونُ حَكَماً فَصْلاً، بينَ قائلٍ مثلاً بأنّ عَليَّ بنَ أبي طالبٍ في أعلى الدَّرجاتِ، وبينَ قائلٍ بأنّه في أسفلِ الدَّركاتِ، وأنّ النّاسَ، من أقْيسَتِهم ومنطِقِهم، مثلُ وَحْشٍ (لاحِظْ دِقَّةَ تَعبيرِه بوَحْشٍ ٱلمُشتَمِلِ على النُّفْرة وعدمِ ٱلانقيادِ) مُمْحِلٍ عَقيمٍ، وآخَرَ مُخْصِبٍ مُتزيِّدٍ.

فمنطقُهُم هذا يَنبُعُ بٱلأضدادِ لأنّه كثرةٌ. وكُلُّ واحدٍ بِمَحَلِّه من ٱلكَثرةِ يُمثِّلُ ضِدّاً. فلو أخَذْنا عليّاً ٱلّذي ساقَه شاهداً نجِدُ فيه غُلُوّاً برَفْعِهِ وهو

(٢) الضّحى: صَلاةٌ مَسنونةٌ تُؤدّى مَعَ ٱرتفاعِ الشُّروقِ.
(٣) وفي رِوايةٍ: ٱلقادِرُ الصَّمَدُ.

ينتظِمُ فِرَقاً كثيرةً مُتضادّةً بِنسَبٍ متفاوتةٍ، وغُلُوّاً بوَضْعِه وهو ينتظِمُ فِرَقاً كثيرةً مُتضادّةً كذلك، وبينَ هذينِ الغُلُوَّيْنِ توسّطٌ ينتظِمُ أيضاً فِرَقاً كَثيرةً مُتضادّةً، فإنّ من طَبيعةِ التّضادِّ أنّه نِسبةٌ وُجوديّةٌ، وهو يَتكاثَرُ بتكاثُرِ النِّسَبِ ومنزلةِ وَضْعِها:

ولِكُلِّ ما أصْبَحْتَ تُدْرِكُ حِسُّه
ضِدٌّ، وكِبْرَةُ مَنْ تَرى كصَغارِ
شِيَعٌ أجَلَّتْ يَوْمَ خُمٍّ[٤]، وآنْثَنَتْ
أُخْرى تُعارِضُها بيوْمِ آلغَارِ (ل٢/٢٨٧)

ومن آلخَيْرِ أنْ نَشْرَحَ مَعْنى التّضادِّ بآلمِثالِ، حينَما نأخُذُ حركةَ آلجِسمِ آلحيِّ نجِدُها تُؤلِّفُ حالاتٍ كثيرةً تَبعاً لنسبةٍ أو وَضْعٍ، فتكونُ قِياماً وقُعوداً وآضْطِجاعاً وآنبِطاحاً وآستِلقاءً وجُلوساً وتَحَفُّزاً وآستيفازاً وآنحناءً وآلتِواءً وتنكُّساً... إلخ، وحينَما نأْخُذُ آللّونَ نَجِدُهُ يُؤَلِّفُ بَياضاً وسَواداً وحُمْرَةً وخُضرةً وصُفرةً، إلخ، وكلُّها أضدادٌ لأنّ مَوْرِدَها آلوجودُ، ومن طَبيعتِه أنْ يَكونَ واقِعاً في نِسَبٍ وأوضاعٍ.

وإنّ آلمنطقَ آلّذي يَقومُ على طَرَفِ آلإيجابِ وحدَه يَجُرُّ إلى أضْدادٍ كثيرةٍ في آلإيجابِ، وآلّذي يقومُ على طَرَفِ السّلْبِ وحدَه يجرُّ إلى أمثالِها كثرةً في السَّلْبِ، وكلُّ هذا ضَلالٌ وحَيْرَةٌ وتخبُّطٌ.

وإنّما آلحقُّ في آلقِياسِ أو آلقانونِ هو آلّذي يَسْتَوي على طَرَفي التّناقُضِ، ويُصاغُ في بَساطةِ آلواحدِ، وتأليفُ التّناقُضِ يَنْتَهي بأُلْفَةِ آلفِكرِ حتْماً، دونَ إمكانيّةِ آلكثرةِ أو آحتمالِها.

(٤) يَوْمُ خُمّ أو غَدير خُمّ: مُناسبةٌ مُقَدَّسَةٌ عندَ الشّيعةِ لأنّ مُوالاةَ عليّ تَمَّتْ فيهِ. يَوْمُ آلغارِ: مُناسبةٌ مُقَدَّسَةٌ عندَ مُخالفيهم لأنّ أبا بَكْرٍ كانَ فيه ثانيَ آثْنَيْن.

ويَنْبَغي أنْ نَشرحَ هُنا مَعْنى التّناقُضِ بآلمثالِ أيضاً، فآلعِلْمُ نقيضُه آللّاعِلْمُ، أمّا آلجَهْلُ فليسَ نَقيضاً بلْ مُساوٍ للنّقيضِ، وعليهِ ففي مفهومِ النّقيضِ آلعدمُ آلخالصُ. إذاً فعلى الشّيءِ وآللّاشيءِ يَقومُ قانونُ النّفْيِ وآلإثباتِ في حَقيقتِه، والتّناقُضُ لا يَسْمَحُ أبداً بالتّكثُّرِ. فما آنْتفى وُجودُه كانَ عَدَماً محْضاً، وآلعَدَمُ لا يقبَلُ النِّسبةَ، لأنّ النِّسبةَ تَسْتَدْعي وتستَلْزِمُ آلوَضْعَ في نُقْطةٍ مُنزَلةٍ، وهو وُجودِيٌّ لا يقَعُ على آلأعْدامِ بحالٍ، فكلُّ ما آرتَفَعَتْ عنه صفةُ آلوُجودِ كانَ عَدَماً.

ومنْ ثَمّ نَنْتَهي إلى أنّ دِقّةَ قانونِ النّفي وآلإثباتِ تستَنِدُ إلى إبرازِ عُنصرِ آلعَدَمِ فِي التّناقُضِ، وإلّا فهو مِثلُ غيرِه من آلقوانينِ آلّتي هي يَنابيعُ التّضادِّ والضَّلالِ.

ومَعْنى هذا أنّنا عندَما نُقيمُ قانونَ النّفي وآلإثباتِ، على الشّيءِ وآلمُساوي لنقيضِه كآلعِلمِ وآلجَهْلِ[٥]، نُفسِدُ وحدَةَ آلفِكرِ في آلعقلِ وأُلْفَتِه آلمَنْطِقيّةِ، وَنَنْتَهي حَتْماً بكثرةٍ فكريّةٍ متضادّةٍ. وذلك لأنّ آلمُساويَ للنّقيضِ شيءٌ، وهو وُجوديٌّ قابلٌ للنِّسبةِ وتفاوتِها، أي قابلٌ لإنتاجِ آلأضْدادِ.

ولذا هو يُضَلّلُ الثّنَويّةَ آلقائلةَ بأصليْنِ آثنينِ، ويُنْكِرُ على آلباطِنيّةِ آلقديمةِ عَدَمَ دِقّتِها. وآلمعرّيُّ يُظْهِرُنا على هذا كُلِّهِ في قولِه «يا ليلُ... إلخ»، فإنّه يُنادي آللّيلَ بمعناهُ آلكِنائيِّ ـ وتأمّلْ دقّتَه الرّمزيّةَ وعُمْقَها، لأنّ آللّيلَ يوحِّدُ آلمُتَجزِّئاتِ وآلمُتَضادّاتِ آلكونيّةَ ويُظْهِرُها بمَظهرٍ واحدٍ،

(٥) دَعْوَى أنّ آلمُساوِيَ للنّقيضِ كالنّقيضِ مِن حيثُ هو هو، إنّما تَستَنِدُ إلى قِياسِ آلمُساواةِ في صُورتَيْهِ آللّتين هُما: آلمُساوي للشّيءِ هو عينُه، ومُساوي آلمُساوي لشيءٍ مُساوٍ لذلك الشّيءِ، أيْ ما يُعرفُ بآلقِياسِ آلمُركّبِ، مصدرٌ للمُغالطاتِ آلكُبرى النّكْراء.

يجْمَعُ ٱلـمُبْيَضَّ وٱلـمُحْمَرَّ وٱلـمُرْتَفِعَ وٱلـمُنْحَدِرَ وٱلقِمَّةَ وٱلواديَ وٱلغَبْراءَ والدّمّاءَ. والصّوفيّةُ أنفُسهم ٱستعملوهُ كِنايةً عن وَحْدةِ ٱلوُجودِ، ومِن أغانيهِمْ شاعَتْ «يا ليلُ» مَطْلعاً للأغاني ٱلعامّةِ ـ وٱلمعنى عندَ ٱلمعرّي: أيُّها ٱلقائِلونَ بالنَّفْيِ وٱلإثباتِ، لقدِ ٱنعكَسَتْ في عقولِكُم طبيعتُه، فبعدَ أنْ كانَ لرفعِ التّضادِّ أضْحى سَبباً وسَبيلاً إليه، فأنتمْ مِثلُ قومٍ ساهرينَ مُلِحّينَ في التّعبُّدِ والتّهَجُّدِ، وآخَرينَ يَغُطّونَ هاجِعينَ.

ويَزيدُنا بَصيرةً فيما عندَ النّاسِ من أقْيِسَةٍ مُشتقّةٍ من أصولٍ فاسدةٍ ويستخدِمونَها أيضاً ٱستخداماً يَزيدُ مَعْنى ٱلفَسادِ فيها، قالَ «تَرومُ قِياساً... إلخ». وٱلمعنى أنّهم يُحاوِلونَ إخضاعَ ٱلحوادثِ ومجاريها لأقْيسةٍ مُضَلِّلَةٍ، وهي أصولٌ نظريّةٌ ليسَتْ تَقَعُ تَحْتَ حَصْرٍ، فكيفَ تَكونُ فيها أُلْفةٌ منطقيّةٌ؟ وهيهاتَ أنْ تَصْدُقَ أيضاً.

على أنّهم يَضَعونَها في غيرِ مراتِبِها، مثلَ قومٍ يُصَلّونَ الضُّحى في وقتِ ٱلفَجْرِ ويُصلّونَ ٱلعَصْرَ مع ٱلغُروبِ، أيْ باطلةٌ تَقواهُم بينَ تقديمٍ وتأخيرٍ مثلَما هي أقيسَتُهم باطلةٌ كذلِك.

ويَعودُ ٱلمعرّيُّ فيبسُطُ ٱلموضوعَ بأكثرَ دِقّةً في قولِه «وما يَزالونَ في شامٍ... إلخ»، وٱلمعنى ما زالَ مَنْ في الشّامِ تحتَ هواهُمُ ٱلأُمويِّ ومَنْ في ٱليَمنِ تحتَ هواهُم ٱلمُناوىءِ، يَعْتَصِرونَ عُقولَهم ليَستنبطُوا منها أقيسةً ليسَ لها نهايةٌ تُبرِّرُ أهواءَهُمُ. فيا أيُّها ٱلمُتلِعُ جيدَكَ إلى ٱلحَقِّ ٱلخالِصِ، ذَرْهُمْ وما شُغِلوا به ويَكْفيكَ منها ٱلقادرُ الصَّمَدُ، أي السّرمديُّ الصّامدُ بديمومةٍ يَتَلاقى فيها أزلٌ وأبدٌ.

وأخيراً يهتِفُ في بُحَّةٍ غاضبةٍ: إنّ الناسَ في غَفْلةِ منطقِهم يُلزِمُهم ولا يَشْعرونَ، أنّهم يَقْرِنونَ أُويساً ٱلقرنيَّ ٱلمُتَطَهِّرَ ٱلمُتَوَحِّدَ بأُويسٍ ٱلخبِّ

آلّذي آسْتَوَتْ في طبيعتِهِ طبيعةُ الذّئابِ...

ـ **المنهجُ آللّغويّ**: تقدَّمنا بآلكلامِ على هذا آلمنهجِ ودَلالاتِه، ويهمُّنا آلآنَ أن نُبيِّنَ أثَره في **اللّزوميّات**، وهل كانَ آلمعرّيُّ حَقيقةً يجنَحُ إليهِ في آلفكرِ، قال:

وكأنّما هذا الزّمانُ قصيدةٌ
ما آضطرَّ شاعِرُها إلى إيطائِها (ل١/٧٦)

*

وآلفَتى آلمُصَرِّفُ هذا آلجِسْم
يَلْقى التّغييرَ والتَّقْليبا (ل١/١٤٣)

*

لَعِبَتْ به أيّامُه فَكَأنّهُ
حَرْفٌ يلينُ في آلكلامِ ويَنْبُرُ (ل٢/١٤١)

*

مالي غَدَوْتُ كقافِ رُؤْبَةَ قُيِّدَتْ
في الدَّهْرِ لَمْ يُقدَرْ لها إجراؤُها
أُعْلِلْتُ عِلَّةَ «قال» وهي قَديمةٌ
أعْيا آلأطِبَّةَ كُلَّهُم إبْراؤُها (ل١/٦٢)

*

فَمَنْ لي بأرْضٍ رَحْبةٍ لا يَحُلُّها
سِواي تُضاهي دارَةَ آلمتقارَبِ (ل١/١٥٢)

*

فـإنّ الـطّـويـلَ نَجـيـبُ آلـقَـريـضِ
أَخـوهُ آلـمَـديـدُ، ولـم يَـنْـجُـبِ (ل١/١٨٨)

*

فَـلَـسْـتُ لـهـم وإن قَـرُبـوا ألـيـفـاً
كَـمـا لـم تَـأْتَـلِـفْ ذالٌ وطـاءُ (ل١/٦٠)

*

أكـفِـيءُ سَوامَـكَ في الدُّنيا مُياسَرةً
وأعرِضَنْ عن قَوافي الشّعر تُكفِئها (ل١/٥٧)

*

وبَـدائـعُ آلـلّـهِ آلـقَـديـرِ كَـثـيـرةٌ
فـيَـحـورُ فـيـهـا لـيّـنـاً ويَـحـارُ
هـذي حُـروفُ آلـلّـفـظِ سَـطْـرٌ واحـدٌ
مـنْـهـا يُـؤَلّـفُ لـلـكَـلامِ بِـحـارُ (ل٢/١٥٨)

إلى كثيرٍ كثيرٍ من أمثالِ هذه آللُّمَعِ آللُّغويّةِ آلمَقْصودةِ لذاتِها، في محلّها مِن التَّصَوُّرِ ومقامِها من التّقديرِ.

ولقائلٍ أن يَذْهَبَ معَ آلآحتمالِ إلى أنَّ مثلَ هذا التّضمينِ وآلآستغناء به، هو ضَرْبٌ من ضُروبِ آلفَنِّ حَفَلَ عَصْرَ آلمعرّيِّ، وقَبْلَ عصرِه، لمحضِ التظرُّفِ، فما مجالُ هذه الدّعوى عندَ آلمعرّيّ؟

بيدَ أنّ معرفَتَنا بأبي آلعَلاءِ ووقوفَنا على كُنْهِ إلْحاحِه بآستخدامِ قَواعِدِ آللُّغةِ وآصطلاحاتِها، وآهتمامِه بأدائِها في شَكْلٍ أدقَّ من آهتمامِه بأداءِ آلفِكرةِ، تُشيرُ بلْ لَتَنْطِقُ بما نَقولُ.

وأكتفي لهدمِ هذا ٱلادّعاءِ ومثلِه عندَ مَنْ يقولُ به أو يفترضُه، أنْ أُسائِلَ وَجْهَ قولِ ٱلمعرّيِّ في مطلعِ مَقْطوعتِه:

أَكْفِيءْ سَوامَكَ في الدُّنيا مُياسَرةً

وأَعْرِضَنْ عن قَوافي الشِّعر تُكفِئُها

فٱلبيتُ، بحَسَبِ ٱدّعائِهم، مُضْطَرِبٌ يَتَجانَفُ شَطْراه، وأتحدّى مَنْ شاء أنْ يجِدَ الرّابطَ إلّا على طريقَتِنا في فَهْمِه، فهو بِحَسَبِ ٱللُّغةِ يَقولُ: إجعَلْ لماشِيَتِكَ أكفاءً وأمثالاً، سَعْياً وراء ٱلغِنى وٱليَسارِ. وٱجتَنِبْ هذا ٱلإجفاءَ في قَوافي الشِّعرِ. بربِّك أيَّةَ عَلاقةٍ ترى بينَ الشَّطرينِ غَيْرَ ٱلعبَثِ وٱللَّغْوِ، بينَما هو على طريقتِنا يَبْدو أغنى ما يُقالُ في مِضمارِه.

فهو، أيِ ٱلمعرّيُّ، يُريدُنا على أن لا نَزِنَ ٱلأُمورَ بميزانِ ما تعوَّدْناه كيفَما ٱتَّفَقَ، بلْ لكُلٍّ باديَةٍ ميزانُها. فٱلإكفاءُ في ٱلمُياسَرَةِ غيرُهُ في ٱلقافيةِ، فهو في ٱلأُولى مَصْدَرُ إغناءٍ وفي الثّانيةِ مَصْدرُ ٱنكفاءٍ، فَيَجِبُ أن نَضَعَ ٱلموازينَ ٱلقِسْطَ عارضةً بحسبِها... كما أُطالِبُهم بكشْفِ السّتيرِ ٱلخَبيءِ في قوله:

وكأنّما هذا الزّمانُ قصيدةٌ

ما ٱضْطُرَّ شاعِرُها إلى إيطائِها

وهو لا يَبينُ لهم منه إلّا براعةُ التّصويرِ وجماليّتُه. بينَما هو على مَنْهَجِنا يتضمَّنُ بأنّ ٱلمنظومةَ ٱلكونيّةَ ٱلمُتَمَثِّلَةَ بالزّمانِ، وهو صَيْرورةٌ مُتَجَدِّدةٌ، لا تَتَكرّرُ فيها ٱلهُنَيْهَةُ، وٱلإيطاءُ كما نَعْرِفُ هو تَكريرُ ٱلقافيةِ لفْظاً ومَعنىً، فنخْرُجُ من هذا بنتيجَتَيْنِ: أولاهما طَرْحُ ٱلقَوْلِ بالتّناسُخِ؛ ثانيتُهما، ٱستبعادُ ٱلقولِ بٱلمُسَلَّمَةِ الشّائعةِ «التّاريخُ يُعيدُ نَفْسَه»، بل هو تغيُّرٌ يتّفِقُ والتّبدُّلاتِ الطّارئةَ وإنْ تشاكَلَتِ الصّورةُ.

ومِن بعدُ نَتَخَيَّرُ من جُمْلَةِ ٱلأبياتِ ٱلّتي سُقْناها شواهِدَ، لنتبيّنَ مَدى عَملِ ٱلمنهجِ ٱللُّغويِّ عندَه في ٱلفِكْرِ.

عَرَفْنا هُناكَ، في فَصْلِ ٱلمَنْهَجِ ٱللُّغويِّ، أنّه أنشأَ تصوُّرَهُ في ٱلحياةِ وعَقَدَه على النَّظْمِ. ورَأى في بُحورِهِ ظاهِراتٍ من مَجاري ٱلحياةِ، ورأى في دوائِرِها ٱلعَروضيّةِ وَحَداتِ هذه ٱلمجاري ٱلّتي تنبُعُ منها وتَرْتدُّ إليها. وهو كما رأى في بعضِ ٱلبُحورِ إنْجاباً وفي بَعْضِها إمْحالاً، وَجَدَ في بعض الدّوائرِ تفرُّداً يَخُطُّ مَجْرىً فذّاً، فٱستَوْحى من مثلِ هذهِ الدّائرةِ حَقيقَتَه ومنهجَهُ ٱلكاملَ، وٱسمَعْه كيفَ يقولُ:

فَمَنَ لي بأرضٍ رَحْبَةٍ لا يَحُلُّها
سِوايَ، تُضاهي دارةَ ٱلمتقارَبِ

ورأى في تَداخُلِ ٱلبُحورِ فَساداً عَروضيّاً قَبيحاً، قادَه إلى أنّ تَداخُلَ مجاري ٱلحياةِ يُفْسِدُها كذلكَ. وعلى ضوءِ ٱلفَسادِ ٱلعَروضيِّ دَرَسَ فَسادَ ٱلحياةِ ٱلمُتَداخلةِ ٱلمجاري، ٱلمُضطّربةِ ٱلأوزانِ، ٱلمُتنافرةِ التّفاعيلِ. وٱسمَعْه كيفَ يقولُ:

يَوَدُّ ٱلفتى أنّ ٱلحياةَ بَسيطةٌ
وأنّ شَقاءَ ٱلعيشِ ليسَ يَبيدُ...

وقدْ يُخْطىءُ الرّأيَ ٱمْرُؤٌ، وهْوَ حازِمٌ
كما ٱخْتَلَّ في وَزْنِ القَريضِ، عَبِيدُ (ل٢/١٢)

*

ويُصْبِحُ منثورُ ٱلبِلى كنَظيمَةٍ،
بَناها عَبيدٌ، لا يُقيمُ لها وَزْنا (ل٤/٢٧٠)

وهنا نَجِدُ ٱلـمُناسبةَ مُؤاتيةً للكشْفِ عن وجهِ السِّرِّ في تعلُّقِ أبي ٱلعلاءِ بٱلحَركاتِ، إنْ في النّثْرِ أو النَّظْمِ، وإلْحاحِه بالتّنبيهِ عليْها في ٱلـمُقَدِّماتِ لكُتُبِهِ، ولا سيَّما ٱلّتي تَدورُ منها على ٱلحياةِ:

فالضَّمُّ رَمزٌ عنِ ٱلكُمونِ وٱلآنضمامِ قبلَ ٱلآنبثاقِ، وٱلفَتْحُ رمزٌ عن الظُّهورِ والشَّخْصِ ٱلماثِلِ في ٱلوُجودِ، وٱلكَسْرُ رمزٌ عنِ ٱلفسادِ في ٱلبِناءِ ٱلوُجوديِّ وٱلحَيَويِّ، والسُّكونُ رمزٌ عن التَّوحُّدِ والرَّجعةِ إلى ٱلعدمِ ٱلحيِّ ٱلأوّلِ، أو بتعبيرِ ٱلحديثِ النّبويِّ: ٱلعَماء[٦]، وبقولٍ أكثرَ وُضوحاً طَلَبُ ٱلخُروجِ مِن حيِّزِ ٱلكَوْنِ وٱلفَسادِ وٱلآستعلاءِ عليهِ بٱلكفكفةِ مِن حَواشي فِعلِه، أو كما نُعبِّرُ ٱليومَ: ٱلخُروجُ من نِطاق جاذبيَّةِ عملِه.

ولْندرُسْ هنا تعلُّقَه بأمِّ دَفْرٍ، أي هذه ٱلكُنْيَةِ، فإنّها عَدا عن كونِها كُنيةَ الضَّبُعِ ولها أُسطورةٌ تتعلَّقُ بمعْناها ٱلكِنائيِّ ٱلّذي هو الدُّنيا، فقدْ طبَّقَ عليها قاعِدةَ ٱلآشتقاقِ ٱلكَبيرِ، ومِن صُوَرِها [دفر]، [فدر]، [ردف] إلخ. وهذه ٱلقاعِدَةُ تُظهِرُ جيِّداً كيفَ يُصبِحُ الظّاهرُ وهو خبْثُ الرّائحةِ في [دفر]، باطِناً، وٱلباطنُ ظاهِراً وهو ٱلحُمْقُ في [فدر] وعلى ٱلعَجُزِ في [ردف]، وتَبْعاً لهذا الظُّهورِ وٱلبُطونِ في ٱلحَرْفِ يتغيَّرُ ٱلمَعْنى وتتغيَّرُ طاقةُ ٱلكلمةِ وقُدْرَتُها على التّشكُّل.

ـ **رَمزيّةُ الدِّياناتِ ورمزيَّةُ ٱلأساطير**: ألْمحنا فيما سبَقَ إلى أنّ ٱلمعرّيَّ آهتمّ بٱلأقاصيصِ وأخذَها بضَرْبٍ عَميقٍ من ٱلكِنائيّةِ ٱلفلسفيّةِ، فوجَدَ فيها

(٦) العَماء: ٱلواردُ في حَديث: كانَ ٱللّه في عَماءٍ قَبْلَ خَلْقِه ٱلخَلْقَ، يَعْني كُنْه كُمونيّ لا تُدركُهُ ٱلعُقولُ، ويُفسّرهُ أكثرُ ٱلحديثِ ٱلقُدسيِّ: كُنتُ كَنزاً مَخْفيّاً فَخَلَقْتُ ٱلخَلْقَ، فبي عَرفوني، أي عَرَفوني بٱلمَعْنى ٱلإلهيِّ فيهم أو بمَعْنايَ فيهم، وحَديث: كانَ ٱللّهُ ولا شيءَ معه وهو الآنَ عَلى ما عَليه كانَ... وَالعَماءُ في ٱلوُجودِيّة ٱلقَديمةِ أو ٱلعينيّةِ، يُرادِفُ ٱلأحديّةَ أو ٱلواحديّةَ.

جانِباً من الطّريق إلى ٱلمعرفةِ، فتعلّقَها في كَثيرٍ من ٱلآطمئنانِ إلى كثيرٍ من ٱلآفتنانِ.

وٱلمعرّيُّ يلمَحُ فيها عِبارةَ ٱلعقلِ ٱلفِطريِّ، وبقولٍ آخَرَ أكثرَ ٱصطلاحيّةً، عِبارةَ ٱلعقلِ ٱلمَطْبوعِ(٧)، قبْلَما لَحِقَهُ وعَلِقَ به تزويرُ ٱلعقلِ ٱلمُكْتَسَبِ أو ٱلعَقْلِ ٱلمَسْموعِ.

وهذا ٱلعقلُ ٱلمطبوعُ جدُّ حريصٍ على الرّمزِ، فقدْ عَرَفْنا أنّه جُزَيْىءٌ من ذلك ٱلعَقْلِ ٱلكُلِّيِّ ٱلأزليِّ، ٱلّذي تَضيقُ عن مَكْنوناتِه لُغةُ ٱلحقيقةِ ٱلبسيطةُ، فَشَدَّ على مكنوناتِه ثوبَ الرّمزِ، مثلَما ضاقَتِ الطّبيعةُ عنْها أيضاً فألبَسَتْ نفسَها أثوابَ ٱلإشارةِ الرّامزةِ.

وكانَ مِنْ هذا أن عمَدَ ٱلمعرّيُّ إلى تَبَنّي الدّياناتِ كُلِّها ومقالاتِها، وليسَ في صرائِحِها بلْ في كناياتِها ٱلّتي وَجَدَها وَحدةً مشتركةً. وهو لذلك يَحْمِلُ حَمَلاتٍ حادّةً عنيفةً على أصحابِها، ٱلمُتَمَسِّكينَ بالصّرائحِ الظّاهرةِ، وكلُّها من وُجهةِ نظرِه مُتضادّاتٌ تَمُدُّ بأفانينَ مِن الضَّلالاتِ.

فٱلمعرّيُّ من هذه النّاحيةِ أوّلُ من فَلْسَفَ ٱلقِصّةَ أو ٱلأُسطورةَ، دينيّةً كانَتْ أمْ وضعيّةً، دارَتْ على ٱلأشخاصِ أمْ دارَتْ على ٱلحوادِث، وبتعبيرِ ٱلباطنيّةِ، أوّلُ مَنْ تَمَكّنَ من تَأْويلِها على شَكْلِ تنزيلِ ٱلآفاقِ على ٱلأنْفُسِ. ولقدْ رأيْنا جانباً من عمَلِه هذا في ديباجةِ **رسالةِ الغفران**، ونَرى جوانِبَ كثيرةً منه أيضاً في كُلِّ لُزوميّةٍ من لزوميّاتِه ٱلكَبيرةِ ٱلعَدَدِ، حتّى

(٧) وَرَدَ هذا التّقسيمُ في بيتينِ يُنْسَبان لعليِّ بنِ أبي طالبٍ:

رَأَيْتُ ٱلعَقْلَ عَقْلَيْنِ: فَمَطْبوعٌ ومسموع
ولا يَكُ مَسْموعٌ إذا لَمْ يَكُ مَطْبوعُ

لتكادُ تَقَعُ عليهِ في كُلِّ واحدةٍ منها. ولْنأْخُذْ بيتاً من **اللّزوميّاتِ** عَرَضاً كيفَما آتّفقَ، مثل:

ومَنْ لصخرِ بْنِ عَمْرِو أَنّ جُثَّتَهُ

صَخْرٌ، وخَنْساءَهُ في السِّرْبِ، خَنْساءُ (ل١/٥٥)

كُلُّنا نَعْرِفُ أنّ صَخْرَ بنَ عَمرٍو كانَ سيِّداً نَبيلاً، وكانَ أخاً شَقيقاً للخَنْساءِ الشّاعرةِ وكانَ يَحْنو عليْها كَثيراً ويَتَعَلَّقُها كَثيراً، وآلخَنساءُ وَجِدَتْ حُزْناً عليه وبَكَتْهُ حياتَها... هذه هي آلقِصّةُ كما تَمُدُّ بها الرِّواياتُ، ولْننظرْ كيفَ تَسْتَحيلُ في تصوُّرِ المعرّيِّ آستحالةً رَفيعةً جدّاً. فقدِ آنصرَفَ تصوُّرُه إلى أنّ صخرَ بنَ عَمرٍو يَعْني آلجسدَ آبْنَ الدَّهرِ. فعمرٌو جاءَ أيضاً بمعْنى إلهِ آلأَمَدِ، وأنَّ آلخَنساءَ الشّاعرةَ تَعْني النَّفسَ آلّتي هي شقيقةُ آلجسدِ، وآلّتي هي مَصْدَرُ أحاسيسِه ومشاعِرِه. وأنّ النَّفسَ تُراعُ لِفِراقِ آلجَسَدِ وتتحَسَّرُه، وهي بعدَ ذلك مصدرُ نكباتِه وأرزائِه... وقدْ ساعدَهُ على تَصَيُّدِ هذا آلمعنى، آلآشتراكُ آللَّفظيُّ، ولا سيَّما في كلمةِ خَنْساء آلّتي تَأتي أيضاً بمعنى الظَّبْيَةِ، والظَّبيةُ في الطّبعِ آلأعرابيِّ كآلبوارحِ والسّوانحِ من الطّيرِ تَبْعَثُ على التّطيُّرِ في آتِّجاهِها. وآسمعْه كيفَ يَقولُ:

تَفْزَعُ أعْرابِيّةٌ، إنْ جَرَتْ لها،

نَواعِبُ يَسْتَعْرِضْنَها، وظِباءُ (ل١/٥٢)

وفيه نلمِسُ جَلِيّاً عُنصرَ آلأفلاطونيّةِ آلحديثةِ آلّذي أدارَ عليهِ آبنُ سينا قصيدَتَه آلعينيّةَ.

ولنأخُذْ هذا آلبيتَ أيضاً:

في بَيْتِه ٱلحَكَمُ ٱلّذي هو صادِقٌ،

فأْتُوا بُيوتَ ٱلقَوْمِ من أبوابِها (ل١/١٨٠)

ففي الشَّطْرِ الأوَّلِ إشارةٌ إلى ٱلمَثَلِ ٱلعَربّي ٱلمشهورِ، ٱلمَحكِيِّ على لِسانِ الضَّبِّ: «في بيتِه يُؤْتى ٱلحَكَمُ». وٱختارَهُ لأنّ ٱسمَ الضَّبِّ يَدُلّ على ٱلعُزلةِ وٱلٱنكفاءِ على نفسِه في جُحرِه، وهو عندَ ٱلعَرَبِ مِثْلُ ٱلحكيمِ ٱلمُطْمَئِنِّ... وفي الشّطرِ الثّاني إلْماعٌ إلى ٱلآية «وليسَ ٱلبِرُّ بأنْ تَأْتوا ٱلبُيوتَ من ظُهورِها، ولكنّ البِرَّ مَنِ ٱتّقى، وأْتوا ٱلبُيوتَ من أبوابِها، وٱتّقوا ٱللّهَ لعلَّكُم تُفْلِحونَ» (البقرة: ١٨٩). وهو بهذا يُهاجِمُ ٱلمُتَسَلّقينَ في مَنْطِقِهِم تَسَلُّقاً دونَ أن يَأْخُذوا الطَّريقَ ٱللّاحب.

وإذا تأَمَّلْنا **اللّزوميّات** جيّداً، نجِدُ أبا ٱلعَلاءِ يتَّسِعُ لقَضايا كُلِّ ٱلأديانِ ولِما حَفِلَت بِهِ من التّعابيرِ، ولِما أطافَ بها من ٱلأخْبارِ، ولا تلبثُ حتّى تَستحيلَ عندَه ٱستحالَتَها ٱلخاصَّةَ وتَخْرُجَ كُلّاً مُشترَكاً. ولعلَّ هدَفَه لم يكنْ أبداً وراءَ تبيُّنِ هذه ٱلوَحدةِ وتَشْخيصِها، وإبرازِ كُنْهِها برُغْمِ ما هي عليهِ، أي ٱلأديانُ، من التّنافرِ وٱلخِلافِ.

وعَظَمَةُ ٱلمعرّيِّ، من وُجهةِ نَظري، تستَنِدُ في أكْبرِ جوانِبِها، إلى أنّه ٱستَحْيا ٱلأديانَ في أُلفتِها ٱلمَفْقودةِ، وبٱلأحْرى ٱلمَحْجُوبةِ وراءَ ظَواهِرَ يتعبَّدُها النّاسُ تعبُّداً غَبيّاً، وكانَتْ هي وحدَها هَدفَ حملتِه على أديانِ النّاس.

آفاتُ المنطقِ

ثُمّ ينتَقِلُ ٱلمعرّيُّ فيحدِّثُنا عن ٱلآفاتِ ٱلّتي تَعْرِضُ في هذا ٱلمَنْطِقِ، وتُوقِعُ في ٱلمُغالَطاتِ الضّالّةِ، وتَكونُ مَصْدَرَ أوهامٍ ومُخْرَقاتٍ، أو، كما

يُعبِّرُ ٱلمعرّيُّ، مَصْدَرَ السَّدَرِ في عينِ ٱلعَقْلِ، إذ يقولُ:

يَغْدو ٱلفَتى للأُمورِ، يَلمَحُ كٱلباز
يِّ، وفي طَرْفِ لُبِّه سَدَرُ (ل٢/١٧٦)

*

ما سَدِرَتْ، في ٱلعَيانِ، أعيُنُهم،
لكِنْ عُيونُ ٱلحِجى بها سَدَرُ (ل٢/١٧٦)

وتأمّلْ تعبيرَه ٱلفاتِنَ بكَلِمةَ سَدَرَ، وهو تَحَيُّرُ عينِ ٱلبَعيرِ من شِدّةِ ٱلحرِّ بما يَتَمَوَّهُ بها من رَقيقِ الدّمْعِ، فلا يستَثْبِتُ الرُّؤْيةَ للأشياءِ، وزِدْ تأمُّلاً في أنّ السَّدَرَ أكثرُ ما يُضافُ إلى ٱلبَعير.

وقد عَرَفْنا ٱلكِنايةَ في النّاقةِ عندَ ٱلمعرّيِّ، وأنّها تَعْني ٱلحياةَ ٱلعضويَّةَ، ومن ثمَّ ينكَشِفُ لنا وجهُ ٱلمعنى ٱلعَميقِ في ٱلبيتِ، وهو: أنّ ٱلفتى ٱللّمّاحَ ٱلفِكْرِ، ٱلبعيدَ مَدى وَقعِ ٱلبَصرِ، قد يَلمَحُ مثلَ بازٍ، ولكنْ بما هو مأسورٌ به من ٱلعُضويّةِ وقَضايا ٱلعَقْلِ ٱلمَسْموعِ، يُدْرِكُ عينَ لُبِّه تَحَيُّرٌ وعَدَمُ ٱستثباتٍ، وهو يَنبوعُ كُلِّ ٱلأوهامِ[٨]، ومِنْ أهمِّها:

أ ـ ما سبَقْنا بحديثه من أنّ ٱلمُساويَ للنّقيضِ، عينُ النّقيضِ منْ حيثُ هو هو.

ب ـ ضَلالُ ٱلأسماءِ، فإنَّ ٱللُّغةَ، برُغمِ أنّها جُزءٌ من مَنْهَجِ ٱلمعرفةِ، فقد أخذَها ٱلعَقْلُ ٱلمَسْموعُ بأوهامِه وٱشتَقَّ منها كَلماتِه، فكانَتْ سبباً لسَدَرِ ٱلفِكْرِ وضَلالِ ٱلمَعْرِفةِ، ولذا تجِبُ الدِّقَّةُ في ٱلفِقْهِ ٱللُّغويِّ مِن حيثُ ٱلفُروقُ، (Nuance). وٱسمَعْ قولَه:

(٨) مثلَ ما يُسمّيهِ تُبّاعُ أرسطو بخِداعِ ٱلحَواسِّ فإنّه سدرٌ وعَدَمُ ٱستثباتٍ ومثلَ ٱلأقيسةِ ٱلمُغالِطة.

ورُبَّ مُسمّىً عَنْبَراً، وهو مُوهِتٌ[٩]

ولَيْثاً وفيهِ، أَنْ يَهيجَ، نُباحُ (ل١/٢٩٥)

ولقدْ أعْطانا ٱلمعرّيُّ في دِقّتِهِ ٱللُّغويّةِ مَثَلاً فذّاً لسَلامةِ تَطبيقِ ٱلمَنْهَجِ ٱللُّغويِّ، ٱلّذي كانَ منهُ أكبرُ ضَلالاتِ أربابِ ٱلفِكْرِ وٱلأدْيانِ. إذْ يأخُذونَ كلماتِ ٱلأشياءِ أخْذاً ظاهِرِيّاً ويبنُونَ ٱلمعرفةَ عليها ساذَجةً غبيّةً، فيقَعونَ في التّضادِّ ويلحَقُهُمُ «ٱلكَسْرُ»[١٠] حتّى في منطقِهِم، وتلزَمُهُم طائفةٌ من إلزاماتِ ٱلعَقْلِ ٱلمسموعِ نفسِه، ٱلّذي به يَهْتدونَ وعليه يعتمِدونَ. وٱسمعْه كيفَ يَقولُ:

قُلتُمْ: لنا خالِقٌ حَكيمٌ

قُلْنا: صَدقْتُم، كَذا نَقولُ

زَعَمْتُموه بِلا مكانٍ

ولا زَمانٍ، ألا فَقولوا:

هذا كَلامٌ، لهُ خَبيءٌ

مَعْناه: ليَستْ لنا عُقولُ (ل٤/١٩)

وفَهْمُ هذهِ ٱلقِطْعَةِ، على وَجْهِ أنّهُ يَتَصَوَّرُ ٱلحَقيقةَ ٱلإلهيّةَ بمَكانٍ وزَمانٍ، سَذاجةٌ تُعبِّرُ عن أنّ ٱلقائلينَ به وبِمِثْلِه لا يفْهمونَ ٱلمعرّيَّ في مَلاحِنِه، بلْ عَسيرٌ عليهم فهمُه. وذَلك لأنّك حينَ تَقولُ «خالق» لَزِمَكَ ٱلقَوْلُ بالزّمانِ لُزوماً غيرَ مُنْفَكٍّ، أردْتَ أم لم تُرِدْ، ولذا عَقَّبَ ٱلمعرّيُّ على هذا بقَوْلِه ساخِراً: هذا كلامٌ له خَبيءٌ، وٱلقَصْدُ أنّه هُنا لا يُقرِّرُ رأياً كما وَهِموا، بلْ يَطْرَحُ فسَادَ

(٩) الموهِت: ٱلمُتْنِ الشّديد النَّتَنِ.

(١٠) إشارةٌ إلى قانونِ ٱلإلزامِ وٱلكَسْرِ على ٱلخَصْم.

ٱلاَستدلالِ على الدَّعوى بما يُنتِجُ عكسَ ٱلمُدَّعى، أو بمُصادَرَة.

ومنَ ٱلخَيْرِ أن يَعودوا إلى دَرْسِ ما تُسمِّيه ٱلباطنيّةُ منهجَ ٱلإلزاماتِ وٱلكَسْرِ على ٱلمُخالفينَ، وقد أعطى نَموذَجَها الشّهرستانيّ في **الملل والنحل** حينَ عَرَضَ للباطنيّةَ وحديثِها.

ومِن ٱلخَيْرِ أيضاً أن نُثبِتَ هُنا في مَعْنى **لزوم ما لا يلزم**، أنّه بملاحِنِه يُفيدُ لُزومَ ما يظُنُّ ٱلمُخالفونَ أنّه لا يَلْزَمُهُم، وعليه فـ **اللّزوميّات** بمَلاحِنِها طائفةٌ من ٱلإلزاماتِ وٱلكَسْرِ على ٱلخُصومِ الدّينيّينِ وٱلعَقْليّينَ. على أنّ ٱلباحثينَ في أدبِ ٱلبحثِ وٱلمُناظرةِ يَذْهَبونَ إلى أن للمُناظِرِ سبيلَيْنِ: أوّلهما، الرّدُّ بٱلمَنْعِ أيْ بٱلْتِماسِ أدلّةٍ جَديدةٍ يُفْحِمُ خَصْمَه؛ ثانيهما، الرّدُّ بالتّسليمِ أو بالتّنزُّلِ أيْ يُسَلِّمُ لخصمِه أدلّتَهَ نفسَها ويَستخرِجُ منها ما يُبطِلُ مُدَّعاهُ، وهذا النّوعُ هو ما كانَ يُسمّيه ٱلباطنيّونَ ٱلإلزامَ وٱلكَسْرَ على ٱلخَصْمِ.

جـ ـ ضلال ٱلحقائق: يَرى أنّ ٱلحقائقَ قدَ تتركّبُ أحياناً بشَكْلٍ غيرِ دَقيقٍ، فتوهِمُ ٱلحقَّ في غَيرِ ٱلحقِّ نَتيجةً للخَطَإِ في أُسلوبِ سبْكِها وصِياغتِها.

فإنّ ٱلحقائقَ ألفاظٌ فِكْريّةٌ كما عرَفْنا، فيَقعُ ٱلخطأُ في أُسلوبِ تركيبِها جُملةً، مثلَما هو ٱلأمرُ وٱلواقعُ عندَ ٱلقائلينَ بٱلعَددِ من تُبّاعِ فيثاغورَ، ٱلّذينَ آنتَهوْا إلى ٱلقولِ بالتّناسُخِ، شاؤوا أم أَبَوْا. ومثلُ هذهِ الطّرائقِ لا توصِلُ أبداً إلى ٱليَقينِ، لأنّها أساليبُ مُلْتويةٌ:

وقَدْ عَدِمَ التَّيَقُّنُ في زَمانٍ،
حَصَلْنا من حِجاهُ على التَّظَنّي

فقُلْنا لِلهِزَبْرِ: أأنتَ لَيْثٌ؟
فَشَكَّ وقالَ: عَلّي أو كأنّي (ل٤/٣٢٦)

بينَما ٱلمعرّيُّ يَسْتَوْحي قاعِدَةَ ٱلأُسلوبِ ٱلفِكريِّ من قاعِدةِ التّركيبِ ٱللُّغويِّ، ولا سيَّما قواعدُ ٱلفَصْلِ وٱلوصلِ، وقواعدُ ٱلإسنادِ في عُلومِ ٱلبَلاغةِ ٱللُّغويّةِ.

د ـ ضلال التّعميم: كثيراً ما تَتَعَدَّدُ ظاهراتٌ مُتَشابهةٌ، ولكنّ تشابُهَها لا يَكونُ نتيجةً لسَببيّةٍ حَقيقيّةٍ مشترَكَةٍ، فيُصاغُ، من تشابُهِها الاتّفاقيِّ، قانونٌ سببيٌّ، ومنهُ ضَلالُ أربابِ التّنْجيم:

أسْطُرٌ، لابَ حَوْلَهُنّ جَهولٌ
فهْوَ يَرْجو هَدْياً، بأسْطرلابِ
لا تَقِسْني على ٱلّذي شاعَ عنّي،
إنّ دُنْياكَ مَعدِنٌ للخِلاب (ل١/١٨٧)

وٱللَّوْبُ تَطْوافُ الظّامِىءِ ٱلعَطْشانِ بَحْثاً عن ٱلماءِ، وإذا دقّقْنا النّظرَ في ٱلعَلاقةِ ٱلحَرْفيّةِ بين «ٱللُّبِّ»، و«ٱللَّوْبِ» نَجِدُها تامّةً، بيدَ أنّ ٱللَّوْبَ أدركَتْه «علّةُ قالَ» كما يُعَبّرُ ٱلمَعرّيُّ، إذاً فاللَّوْبُ ٱصطلاحٌ خاصٌّ بهِ يَعْني حَيْرَةَ ٱلفِكْرِ بأوهامِ التَّعميمِ، مثلَما عَرَفْنا في السَّدَرِ ٱلّذي يَعْني حَيْرَةَ ٱلفِكْرِ بعدَمِ الدِّقّةِ وعَدَمِ ٱلاستثباتِ.

ومنَ التّعميمِ أيْضاً يَنْبُعُ ضَلالُ ٱلقائلينَ بقِياسِ الشّاهدِ على ٱلغائبِ، مِثْلَ الصّوفيّةِ الشّاطحَةِ، وٱلقائلينَ بقِياسِ ٱلغائبِ على الشّاهدِ مِثْلَ ٱلمُشبِّهَةِ:

شابَ علَيْنا أمْرُنا شائبٌ
وقَدْ وَدِدْنا، أنّه لم يُشَبْ (ل١/١٩٤)

طَـوَّفْـتَ فـي الآفـاقِ عَـصْـراً، فـمـا
أسْفَرْتَ من حِنْدَسِكَ ٱلمُظْلِمِ(١١)
سَـأَلْـتَ أقْـوامـاً، فـلـم تُـلْـفِ مَـنْ
يَـهْـديـكَ مِـنْ رُشْـدٍ إلـى مَـعْـلَـمِ (ل٤/٢٢٧)

هذهِ خُلاصةٌ سَريعةٌ خاطِفةٌ لنظريّةِ ٱلمَعْرفةِ وطَبيعةِ ٱلعَقْلِ، وفي ٱلحَقِّ أنّ نظريّةَ ٱلمَعْرفةِ عندَه من أخصبِ النّظرياتِ وأحفَلِها وأعمَقِها، وليسَتْ تَفي بها خُلاصةٌ أو خُلاصاتٌ، مهْما أُوسِعَ من جوانِبِها وأُضفيَ من حواشيها وأطرافِها، بلْ هي خليقةٌ بِكتابٍ ضَخْمٍ مُسْتَقِلٍّ، لِنرى دقّتَها وآستيعابَها وتَفْصيلَها، ونَرى أيضاً دِقّتَه فيها وآستيعابَهُ وتَفْصيلَه. ولعلّنا نُخرِجُ سِلسلةَ دِراساتٍ ضَخْمةٍ في ظُروفٍ أكثرَ مُناسبَةً، تتناولُه في نَفْسِه وآثارِه تَناولاً تَفْصيليّاً، يَسْتَوْعِبُ فَلْسَفَتَهَ ولُغَتَه ٱلفنّيّةَ في ٱلفَلْسفةِ وٱلعَقْلِ. ولكنّ الشَّيءَ ٱلّذي لا يَسَعُنا ٱلآنَ إغفالُه هو أنّه كانَ أشدَّ ٱلقائلينَ بإمكانِ ٱلمَعْرفةِ ٱلحقِّ ٱلمُطْمَئِنَّةِ، بعدَ آستِدْناءِ وَسائِلِها وصَبِّها في ذاتِ طالبِ ٱلمَعْرفةِ وفي فِكْرِه:

الـلُّـبّ قُـطْـبٌ، وٱلأُمُـورُ لَـهُ رَحـىً
فـيــهِ تُـدَبَّـرُ كُـلُّـهـا وتُـدارُ (ل٢/١٥٠)

*

(١١) يَدُلُّ عَلى تأثُّرِه بآبْنِ سينا ٱلّذي سَبَقَ وأَلْمَحْنا إليه، هذان ٱلبيتان عندَه ٱلمُشْبِهانَ بَيْتَيْنِ للشّيخِ الرّئيسِ:

لَقَدْ طُفتُ في تِلْكَ ٱلمَعاهِدِ كُلِّها
وسَيَّرْتُ طَرْفي بَيْنَ تِلْكَ ٱلمَعالِمِ
فَلَمْ أرَ إلّا واضِعاً كَفَّ حائِرٍ
عَلى ذَقَنٍ أو قارِعاً سِنَّ نادِمِ

الفِكْرُ حَبْلٌ، مَتى يُمْسَكْ على طَرَفٍ
مِنهُ، يُنَطْ بالثّريّا ذلِكَ الطَّرَفُ (ل٣/١٦١)

*

فَكّري أنْتِ، رُبّما هُدِيَ الإنـ
ـسانُ لِلْمُشْكِلاتِ، بالتّفكيرِ (ل٢/٢٩٧)

*

وَالحَديثُ المَسْموعُ يُوزَنُ بالعَـ
ـقْلِ فيُضْوَى إليهِ عُرْفٌ ونُكْرُ (ل٢/١٧٣)

*

العِلْمُ كالقُفْلِ، إنْ ألْفَيْتَهُ عَسِراً
فَخَلِّهِ، ثُمّ عاوِدْهُ لِيَنفَتِحا (ل١/٣٠٢)

*

جاءَتْ أحاديثُ إنْ صَحّتْ فإنّ لها
شأْناً ولكِنْ فيها ضَعْفُ إسْنادِ
فَشاوِرِ العَقْلَ وآتُرْكْ غَيْرَه هَدَراً
فالعَقْلُ خَيْرُ مُشيرٍ ضَمَّهُ النّادي (ل٢/٧٥)

*

تخيُّلٌ مِن بَني الدُّنيا غَدا عَجَباً
للمُفْكِرين، وكُلُّ النّاسِ مَحسورُ
كَأنّ إعْرابَ أعْرابٍ ثَوَوْا، زَمَناً
بالدّوِّ فينا، بحُكْمِ النّحْوِ، مأسورُ

فَناطِقٌ يَسكُنُ ٱلأمصارَ من عَجَمٍ
نُطْقَ ٱبْنِ بَيْداءَ، لَمّا يَحْوِه سُورُ
وناظِمٌ لِعَرُوضِ الشِّعْرِ، عَنْ عُرُضٍ
وما يُحِسُّ بأنّ ٱلبَيْتَ مَكْسورُ
ومُغْتَدٍ بِحِبالِ الصَّيْدِ يَنصِبُها،
كما يَفيءُ له مِنْ ذاكَ مَيْسورُ (ل٢/١٣٤)

وتأمّلْ جيّداً عِندَه حبالَ الصَّيدِ ٱلّتي هيَ في ٱلفِكْرِ، مثلَها في يدِ ٱلقانِصِ، تَجْعَلُ ٱلمُتَعَسِّرَ مُتَيَسِّراً. أمّا ٱلمُشْكلةُ فليسَتْ إلّا في ضَحْلِ ٱلمُسْتَنْقَعاتِ ٱلعقليّةِ، وعندَ ناظِمينَ في غيرِ رَوِيّةٍ ولا فِطْنَةٍ، لا يُحِسّونَ بكَسرِ تفاعيلِهِمْ وأقيستِهِمْ. بينمَا ٱلمُغْتَدي بحِبالِ صَيْدٍ فِكريّةٍ سليمةٍ، ليسَ يَفوتُهُ ٱلقَنْصُ، وليسَ يَقْعُدُ أبَداً دونَ الظَّفَرِ، وفي هذه ٱلأبياتِ حِكايةُ ٱلفِكْرِ من أنحائِه في تَكوُّنِهِ وتَغيُّرِهِ، ثُمّ يَختِمُ حِكايتَه بقولِه:

وما أمَدٌ، في الدَّهْرِ يَبْلُغُ مرّةً،
بأبْعَدَ مِمّا نالَهُ ٱلمَرْءُ بٱلفِكْرِ (ل٢/٢٢١)

وبهذا يَكونُ أوّلَ مَنْ قالَ بِمَذْهَبِ ٱلعَقْلِ ٱلعامِّ، في بَحْثِه الصِّفاتِ ٱلأساسيّةَ... كما نجِدُهُ أسْبقَ مَنْ قالَ بمَذْهبِ الضَّرورةِ ٱلّذي يَرى أنّ ما يَجْري في ٱلكَوْنِ من حَوادِثَ، إنّما يصدُرُ عَنْ عِللٍ ضَروريّةٍ خاضِعةٍ لقَوانينِ ٱلمادّةِ وٱلحَرَكَةِ. وهو ٱلمَذْهَبُ ٱلمَعْروفُ بٱلمَذْهبِ ٱلميكانيِّ (الميكانيكيّ) أو مَذْهبِ ٱلجَبْرِ ٱلآليِّ. ولعَدَمِ فَهْمِ دارسيه ظَنّوه يقولُ بٱلجَبْرِ.

الأساس الفلسفي العلائي

نَحتاجُ في هذا ٱلفَصْلِ إلى فَضْلِ رويّةٍ وإنعامِ نَظَرٍ وتَمَهُّلٍ بَصيرٍ، فنحنُ ٱلآنَ نُحاوِلُ ٱلكَشْفَ عَنِ ٱلأساسِ ٱلفَلْسَفيِّ ٱلعَلائيِّ، لا سيَّما وقَدْ أوردَهُ بشكلٍ إيمائيٍّ. وتَسنّى له به تَفْسيرُ كُلِّ شيءٍ وأشاعَه بآطّرادٍ، في مُداراتِه ٱلفِكْريّةِ وأشواطِه ٱلفسيحةِ ٱلعميقةِ في عالَمَيِ ٱلغَيْبِ والشَّهادَةِ.

نَقَعُ عند ٱلباطنيّةِ عَلى نَظَريّةِ ٱلعَدَدِ، وأنّ الوُجودَ قائِمٌ قِيامَها وعلى مِثْلِ تَرْتيبِها، ونَجِدُ في ٱصْطلاحاتِهم كَلِمَتَيْ نِسبةٍ عَدديّةٍ ونِسبةٍ هَنْدسيةٍ، وفي ٱلآصطلاحِ الرّياضيِّ ٱلبَحْتِ تُسمَّيانِ أيضاً مُتَواليةً عَدَديّةً ومُتَواليةً هَنْدسيّةً.

وعليْنا أنْ نَدْرُسَ سِرَّ هذا التَّوالي ٱلّذي بِوَعْيهِ نَعي حَقائِقَ ٱلأشياءِ كُلِّها، ولكِنْ على ضَوْءِ مُقَدِّمَتَيْنِ أصْليَّتينِ، ٱلأولى أنّ ما كانَ بالذّاتِ لا يَتَغَيَّرُ بلْ يَتَكَيَّفُ فقطْ؛ الثّانيةُ أنّ فاقِدَ الشَّيءِ لا يُعطيه.

وهُما مُقَدِّمتانِ مَفْروضٌ فيهما ٱلبَداهةُ ٱلمُطْلَقَةُ، أو بتَعْبيرِ أبي ٱلعَلاءِ مَفْروضٌ فيهما «إصفاقُ ٱلفِكْرِ عليهِما». فإذا ذَهَبْنا نَبْحَثُ كيفَ يُنتِجُ ٱلواحدُ ٱثنينِ، وبتعْبيرٍ آخرَ كَيْفَ تُنتِجُ ٱلفرديّةُ زَوْجيّةً، وبينَهما شَبَهُ تَبايُنٍ،

مَعَ ما هو مَعْروفٌ مِن أنّ ما كانَ بالذّاتِ لا يتَغيَّرُ، وفاقِدَ الشّيءِ لا يُعطيهِ، نَجِدُهُ كَلاماً له خَبيءٌ.

بَيْدَ أنّ ٱلمَعَرّيَّ يَجِدُ تفَسيرَ هذا في ٱللُّغةِ ودلالاتِها، وذلك أنّ ٱلجُمْلَةَ ٱلإنشائيّةَ تَكونُ أمراً مثلَ «إفعلْ» في وَقْتِ كَوْنِها نهياً «لا تَفْعَلْ». وهُما مُتَباينانِ تَبايُنَ ٱلفَرْدِ والزَّوجِ. فإذا فَرَضْنا أنّ ٱلأمْرَ أصْلٌ فَكَيْفَ نَبَتَ ٱلنَّهْيُ منه؟ هذا شيءٌ لا يُجيبُ عنهُ ٱلعَدَدُ وتُجيبُ عنهُ ٱللُّغَةُ.

فإنّ مَفْهومَ ٱلأمرِ ٱلإيجابيِّ لا يتَحدَّدُ في التَّصوُّرِ إلّا في مَفْهومِ ٱلأمرِ السَّلْبيِّ، مثلاً، «إفْعَلْ» تَشتَمِلُ على مَفْهومَيْنِ: ٱلأمْرِ بٱلفِعْلِ وٱلأمْرِ بعدَمِ التَّركِ، ومن مَفْهومِ ٱلأمرِ الثّاني أي السَّلْبيِّ، يَنْبُعُ ويَتَوَلّدُ النَّهْيُ... ولِذا قالَتِ اللُّغَةُ إنّ ٱلأمرَ بالشَّيءِ أمرٌ بٱلاَمْتناعِ عَنِ ٱلمُقابلِ أو مَفْهومِ ٱلمُخالَفَةِ، وخُذِ ٱلمَثَلَ في ٱلمِرْآةِ ذاتِ ٱلوَجهيْنِ ٱلمُتَقابِلَيْنِ، أحَدُهُما عَاكِسٌ للصّورَةِ، وثانيهما غَيْرُ عاكِسٍ لها، وعلى كِلَيْهِما تَستوي حَقيقةُ ٱلمِرآة.

وهُنا يَجِبُ أن نَميلَ مَع ٱلمعرّيِّ إلى التَّحديدِ بأنّ ٱلأمْرَ بالشَّيءِ أمرٌ بٱلاَمْتناعِ عن النّقيضِ، وأمّا ٱلقَوْلُ بأنّ ٱلأمْرَ بالشّيءِ نَهْيٌ عن ضِدِّهِ فضَلالٌ، لأنّه تَزَيُّدٌ، وبتَعبيرِه ٱلعلائيِّ «إخصاب» أيْ إكثارٌ وإعطاءٌ للنّتائجِ عَفْواً ومَجّاناً، ومِثْلُهُ ٱلقولُ بأنّ ٱلأمْرَ بالشّيءِ لا يَتَضَمَّنُ نَهْياً أبداً، لأنّه تَعطيلٌ للّفظِ عن مَعْناهُ السَّلبيِّ وهو لا يتِمُّ إلّا به، وبتَعْبيرِه نفسِه «إمحال» أيْ عَقَمٌ عن ٱلإنتاجِ في مَوْضِعِ الضَّرورةِ ٱلعقليّة.

وعليه فالصِّدقُ ٱلعَقْليُّ إنّما يَقومُ على أنَّ ٱلأمرَ بالشّيءِ أمرٌ بٱلاَمتناعِ عن النّقيضِ، وهو في قُوّةِ قَوْلِنا: ٱلأمرُ بالشّيءِ نَهْيٌ عن ٱلمُساوي للنَّقيضِ، فتَلْزَمُ إذاً الدِّقَّةُ في التَّحقُّقِ من ٱلمُساواةِ الشّاملةِ، بينَ النّقيضِ ٱلّذي من طبيعتِه أنْ يَكونَ سلبيّاً، وٱلمُساوي للنّقيضِ ٱلّذي من طَبيعتِه أنْ يكونَ

وُجودِيّاً «وكلُّ مَعْنىً له نَفْيٌ وإيجابٌ»، وإلّا فهو يَنْبوعُ أوْهامٍ حادّةٍ أيضاً. ويُريكَ بوُضوحٍ ما يَعْنونَ بالنّقيضِ ومُساويهِ هذا ٱلمَثَلَ: «العِلم، الجَهل» فٱلجَهلُ ليسَ نَقيضاً بل مُساوٍ للنّقيضِ وهكذا.

ولْننتقِلْ إلى تَفْسيرِ ٱلعَدَدِ بهذا ٱلمَنْهجِ ٱللُّغويّ، فإذا أخذْنا ٱلواحِدَ وَجدْنا له مَفْهومَيْنِ:

١ ـ الفرديّةُ وهي ذاتُ وُجودِه وهي ٱلمَفْهومُ ٱلإيجابيُّ.

٢ ـ اللّافرديّةُ وهي ٱلمفهومُ السَّلْبيُّ ٱلّذي يُحَدِّدُ الذّاتَ وٱلوُجودَ.

ومن هذا ٱلمَفْهومِ السَّلبيِّ، أيِ ٱللّافرديَّةِ، تنبُعُ وتتولَّدُ الزّوجيّةُ ٱلمُساوِيَةُ للنّقيضِ، ٱلمُساويةُ لكَلِمةِ لافرديّةٍ دونَ مَحْظورٍ: ما كانَ بالذّاتِ لا يتَغيَّرُ، ومَحْظورٍ: فاقِدُ الشّيءِ لا يُعطيه.

وفي هذهِ ٱلمَرْتبةِ يتَحَصَّلُ لنا مَعْنىً جَديدٌ، وهو الزّوجيَّةُ. فإذا أخَذْنا أبسطَ الزّوجيّاتِ، وهي ٱلاثنانِ، نجِدُ لها مَفْهومَيْنِ: إيجابيٌّ وهو الزّوجيّةُ ٱلبَسيطةُ، وسلبيٌّ وهو لازوجيّةٌ بَسيطةٌ. وتأمّلْ جيِّداً كيفَ تَغيَّرَ ٱلمَعْنى الذّاتيُّ في الشّيءِ، فما كانَ باطِناً أي سَلْباً في ٱلفَرْدِ أصبحَ ظاهِراً أيْ إيجاباً في الزَّوْجِ، وما كانَ ظاهِراً في ٱلفردِ أصبحَ باطِناً في الزّوجِ كذلكَ، وتأمّلْ كيفَ يَسْتَحيلُ بٱستمرارِ ٱلمفهومُ ٱلإيجابيُّ إلى مفهومٍ سَلبيٍّ، وٱلعكسُ تَبَعاً لدَرجةِ التّركُّبِ، على نحوِ شِبْهِ جدليٍّ أو (دِياليّ).

ومِن ٱلخيرِ أن نَعْرِضها بشكلٍ آخَرَ قَصْداً للتَّيْسيرِ. إنّ ٱلواحدَ فيه جانِبُ إيجابٍ وهو ٱلفَرديّةُ ٱلمُطْلَقَةُ، وهذا ٱلجانبُ لا يقبَلُ التّحوُّرَ والتّغيُّرَ من حيثُ إنّ ٱلواحِدِيّةَ أُسُّ ٱلحَقائِقِ ٱلأزليَّةِ؛ وجانبُ سَلْبٍ وهو ٱللّافرديّةُ، ومن هذا ٱلجانِبِ السَّلْبيِّ تنبُعُ الزّوجيّةُ في ٱلاثنينِ، ٱلّتي تُصبحُ فيها جانِباً

إيجابيّاً ظاهِراً، بينَما تَنْقَلِبُ ٱلفَرديّةُ فيها جانِباً سَلْبيّاً، باطِناً بِما دَخَلَها من التّركيبِ[١].

وإنّ ٱلمُساويَ لكلمةِ لازوجيّةٍ بسيطةٍ هو التّركُّبُ ٱلفَرديُّ أو وحدةُ ٱلكَثرةِ في تَعبير ٱلفلاسفةِ ٱلمُحْدَثينَ، ولذا كانَتِ الثّلاثةُ أوّلَ ٱلجَمْعِ في ٱللُّغةِ، ولِذا هو لـمْ يَرْضَ عنِ ٱلقَوْلِ بالثّلاثةِ في التّصوُّرِ ٱلإلهيِّ، وذلك بٱلمَعْنى ٱلحِسابيِّ لا بٱلمَعْنى ٱلهَنْدسيِّ كٱلمُثَلَّثِ، لأنّه في جَوْهرِه واحدٌ.

وفي هذهِ ٱلمرتبةِ تَتَحَصّلُ مَعَنا ٱلفرديّةُ ٱلمُتَرَكِّبةُ كالثّلاثةِ، ونقيضُها لافَرديّةٌ مُتَرَكِّبةٌ، وٱلمُساوي لنقيضِها الزّوجيّةُ ٱلمُتَجَزِّئةُ أي ٱلأربعةُ، فٱلأربعةُ في باطِنِها مُكَرِّرُ ٱلواحِدِ أربعَ مرّاتٍ، وفي ظاهِرِها أُولى الزّوجيّاتِ ٱلمُرَكّبةِ من ٱلاثنين.

وفي هذه ٱلمرتبةِ تَتحصَّلُ مَعَنا الزّوجيّةُ ٱلمُتَجَزِّئَةُ، ونَقيضُها لازوجيّةٌ مُتَجَزِّئَةٌ، وٱلمُساوي لنَقيضِها ٱلفرديّةُ ٱلمُتَوَحِّدةُ أي خَمْسَةٌ... فٱلخَمْسَةُ في باطِنِها مُكَرِّرُ ٱلواحِدِ خَمْسَ مرّاتٍ، أي تَبَطُّنُ واحدِيّةٍ حَقيقيّةٍ لا تَتكسَّرُ ولا تَتغيَّرُ، وفي ظاهِرِها تَوحُّدُ الزّوجيّةِ ٱلّذي هو تَحَرُّكُها إلى ٱلواحِدِ وٱندِماجُها فيه ٱندِماجاً يَمْحو التّركيبَ... إذاً فَباطنُ ٱلخَمْسَةِ واحِديّةٌ، وظاهِرُها أحَديّةٌ، وخاصّيّتُها ردُّ ٱلمُتَرَكِّبِ إلى ما هو في قُوَّةِ ٱلبسيطِ، فالتّوحيدُ للّهِ، والتّوحُّدُ للنُّفوس ٱلجُزْئيّةِ.

ومن هذا نَسْتَخْلِصُ أنّ ٱلخَمْسَةَ، في رَمْزيّتِها، أعْلى مَراتِبِ ٱلوُصولِ ٱلإنسانيِّ، وأرْفَعُ مَنازِلِ التّوحُّدِ. ولذا كانَتِ ٱلحَواسُّ في ٱلكائِنِ خَمْساً وكانَ حاصِلُ جَمْعِ حُروفِ قانونِ النّفي وٱلإثباتِ ٱلّذي هو (لا . إلّا)

(١) يُقرّبُ هذا ٱلمفهومَ إلى ٱلإدراكِ ما يُعرفُ ٱليومَ في التّحليلِ الكَهربائيِّ، بٱلمُصْعِد والمُهْبِط أي «الأنود والكاتود».

ٱلمُسْتَخْرَجُ من «لا إله إلّا ٱللّهُ»، كما يجِدُ ٱلمعرّيُّ شاهِدَه في أركانِ ٱلإسلامِ ٱلّتي هي خَمْسَةٌ، وفي الصَّلَواتِ ٱلمَفْروضةِ وهي خَمْسٌ. وَلْنَدُرْ قَليلاً مع ٱلمعرّيِّ في **اللّزوميّات** قال:

ويَجْمَعُنا من صَنْعَةِ الرَّبِّ أَرْبَعٌ
ومِنْ فَوْقِها وٱلمُلْكُ لِلّه، خامِسُ (ل٣/١١)

*

وما يَجْمُلُ التَّقْصيرُ في كُلِّ مَوْطنٍ،
ولا كُلُّ مَفْروضِ الصَّلاةِ له قَصْرُ (ل٢/١١٣)

*

خَمْسَةٌ في نَظيرِها خَمسُ خَمْساتٍ
تَنَمَّتْ، والنِّصْفُ في النِّصْفِ، رُبْعُ (ل٣/١٣٥)

مِنَ ٱلمعروفِ في الشّريعةِ ٱلإسلاميّةِ أنّ الصَّلَواتِ تُقْصَرُ في السَّفَرِ مَثَلاً، ولكنّ ٱلّذي يُقصَرُ منها هو الظُّهرُ وٱلعَصْرُ وٱلعِشاءُ أي الزّوجيّاتُ ٱلمُرَكّبةُ، أمّا صَلاةُ الصُّبحِ، وهي رَكْعتانِ، وصَلاةُ ٱلمَغْرِبِ، وهي ثَلاثُ رَكَعاتٍ، فلا يلحَقُهُما قَصْرٌ أصْلاً، على أنّ حاصِلَ رَكَعاتِهما خَمْسٌ بٱندِماجِ ٱلفرديّةِ ٱلمُرَكّبةِ بالزَّوجيّةِ ٱلبَسيطةِ.

وهُنا تَلْزَمُني وَقْفَةٌ عندَ ٱلبَيْتِ الثّالثِ، فهو يَسْتَخدِمُ فيهِ مُصْطَلَحَيْنِ: أوّلهُما حِسابيٌّ، وهو حاصِلُ ضَربِ خَمسةٍ في مِثلِها؛ وثانيهِما فَلَكيٌّ يَعْني قُطْرَ الدّائرةِ ٱلّذي يَمُرُّ بنصفَيْ قُطْبَيْها فيُرَبّعُها، وعَمَدَ في ٱلبيتِ إلى التّوهيمِ، ولِذا غَمُضَ فَهْمُه على شارحيهِ.

على أنّ هذا التَّوحُّدَ ٱلّذي تَرْمُزُ له ٱلخَمْسَةُ، ٱنتهى به ـ عَلى ما بَدا

لي - إلى ٱلقَوْلِ بوَحْدَةِ ٱلمَوْجودِ، لا وَحْدَةِ ٱلوُجودِ ٱلّتي يَعدُّها زَيْغاً مَحْضاً[٢] ومَعْناهُ أنّ ٱلموجدَ ٱلّذي مَعْنى فَسادِه في تَكثُّرِه، يَتحرَّكُ إلى تَوَحُّدِ مَوْجوديَّتِه بٱللّه، وليسَ يتحرّكُ إلى وَحْدَةِ وُجودِه بٱللّه، هذه ٱلوَحدةِ ٱلّتي تُنافي التّجريدَ ٱلمُطْلَقَ له والتّقديسَ ٱلمُطْلَقَ أيضاً.

وكذلك يَنْتَهي التَّوحُّدُ ٱلّذي ترمُزُ له ٱلخَمْسَةُ إلى ٱلقَوْلِ بنظريّةِ ٱلمُحيطِ وٱلمُحاطِ ٱلباطنيّةِ ٱلقَديمةِ[٣]... فإذا كانَتِ ٱلفَرْديّةُ هي ٱلمُحيطَ، والزّوجيّةُ، أي التَّجزُّؤُ والتَّركيبُ هي ٱلمُحاطَ، فهُناكَ صَلاحٌ دونَ ريبٍ؛ وإذا كانَتِ الزّوجيّةُ هي ٱلمُحيطَ، وٱلفرديّةُ هي ٱلمُحاطَ، فهُناكَ فَسادٌ لا شكَّ فيه، قالَ:

قَدْ غَيَّرَ الدَّهرُ مِنْه، بَعْدَ مُبتَهَجٍ
وأُلْحِدَ السَّيْفُ فيه، بَعْدَ تَوْحيدِ (ل٧٩/٢)

السّيفُ في حَقيقتِه مُتَجَوْهِرٌ مُوَحَّدٌ، أيْ مُصْمَتٌ لا جَوْفَ له كما تُعَبِّرُ ٱللُّغةُ، فمُحيطُه إذاً ٱلفرديَّةُ. أمّا إذا أُلْحِدَ وأُغْمِدَ في شَيْءٍ فتَكونُ الزّوجيّةُ هي مُحيطَه، ويَغْدو مِثْلَ «كُلِّ مُجَوَّفٍ»، وٱلجَوْفيّةُ مَظْهَرُ ٱلفَسادِ. ولِذا رأيْنا ٱلمَعَرّيَّ ينظُرُ إلى ٱلأجْوَفِ في ٱللُّغةِ مثلَ «قالَ»، أنَّهُ يَنْبوعُ ٱلعِللِ وأعْقَدُ مَظْهَرٍ من مَظاهِرِ ٱلإعلالِ:

أُعْلِلْتُ عِلَّةَ قالَ، وهي قَديمةٌ
أعْيا ٱلأطِبَّةَ كُلَّهُمْ، إبْراؤها (ل٦٢/١)

ومِن ثَمّ نَستطيعُ ٱلٱنتقالَ إلى تَقريرِ أنّ عالَمَ ٱلكَونِ وٱلفَسادِ، بكُلِّ ما فيهِ من الصُّورِ، يَسبَحُ في مُحيطِ الزّوجيّةِ ويَنْبُعُ منها، وٱلمَعَرّيُّ يَدْرُسُه

(٢) أُنظرْ صفحات: ٤٥٧، ٤٦٨، ٥٨٢ من **رسالة الغفران**، ط ٱلقاهرة.
(٣) أُجيتَنها في ٱلحَديثِ، الشّيخيّةُ نحلةُ الشّيخ أحمد الأحسائيّ والسّيّد كاظم الرّشتيّ.

على ضَوْءِ ٱلأُجْوَفِ ٱللُّغويِّ في كلِّ وُجوهِه.

وٱلآنَ، لنأخُذِ ٱلبيتَ ٱلمَذْكورَ لِنرى أينَ يَقَعُ مِمّا نُقرِّرُ: ٱلمعرّيُّ يتَحدَّثُ فيه عمّا أنْزَلَتْهُ غِيَرُ الدَّهرِ في ٱلمَوْضِعِ ٱلّذي يصِفُه بأنّه كانَ بَهْجَةَ النّاظِرِ، فقدْ أُلْحِدَ السّيفُ وأُغْمِدَ فيه فٱكتنَفَهُ التّجزُّؤُ والزّوجيّةُ ٱلّتي عَصَفَتْ عليهِ برياحِ ٱلفَساد...

والتّوحّدُ، كما عَرَفْنا، هو كَوْنُ ٱلفرديّةِ مُحيطاً، ومن شأنِه أن يَقَعَ في نِسَبٍ مُتفاوتةٍ، وأنّ أرفَعَ مراتبِ التّوَحُّدِ بشريّاً تَوحُّدُ الخَمْسَةِ، وأمّا ما دونَها، مِثْلَ تَوَحُّدِ الثّلاثةِ، فإنّها غايةٌ يَقْعُدُ عنها ٱلٱستعدادُ ٱلبشريُّ، على أنّه يقعُ في عالَمِ ٱلمُفارَقاتِ، وبعبارَةٍ أوضَحَ: غايَةِ ٱلغَيْبِ.

ويَنْبغي هُنا أن نَدْرُسَ توحُّدَ الثّلاثةِ لنَرى أينَ يَقَعُ من عالَمِ ٱلغَيْبِ. عَرَفْنا فيما سبَقَ، نظريّةَ ٱلباطنيّةِ في ٱلعَقْلِ ٱلكُلّيِّ، وأنّه ٱلٱنبثاقُ ٱلإلهيُّ ٱلأوّلُ أوْ مُستَقَرُّ ٱلأمرِ ٱلأوّلِ، إذاً فٱلعَقْلُ ٱلّذي هو مُستَقَرُّ ٱلأمرِ يَكونُ مُتَوَحِّدَ الثّلاثةِ، وهو ٱلمُصْمَتُ ٱلحقيقيُّ ٱلّذي لا جَوْفَ له، وٱلمَصْموتُ يُرادِفُ لُغويّاً كلمةَ الصَّمَدِ، فٱلعَقْلُ ٱلكُلّيُّ، على هذا، مُتَوَحِّدُ الثّلاثةِ[٤] وهو الصَّمَدُ.

ومن حَيْثُ إنّ الصّمدَ رمزُ ٱلعَقْلِ ٱلكُلّيِّ، كان له عِنْدَ ٱلمعرّيِّ ٱعتبارٌ خاصٌّ يكشِفُ لنا عن وَجْهِ السِّرِّ في إلْحاحِه بذِكْرِه، مثلَ قَوْلِه:

لَولا التّنافُسُ في الدُّنيا، لَما وُضِعَتْ

كُتْبُ ٱلقناطِرِ[٥]، لا المُغْني ولا العُمَدُ

(٤) تأمّلْ سِرَّ مقالِ الباطنيّةِ وإخوانِ الصّفا بأنّ العَربيّةَ هي ٱللّغةُ التامّةُ، ٱلّذي ينكشفُ لك عَلى ضَوْءِ أنّ ٱلأصْلَ فيها هو الثُّلاثيُّ وأنّه هو ٱلّذي يَدورُ في كُلِّ صُوَرِ الٱشتقاقِ ٱلّذي تَبْعُدَ به حيناً وتَقْرُبُ به أحياناً أُخرى.

(٥) كانوا يُطلقونَ على مسائلِ ٱلكَلامِ، أيِ ٱللّاهوتِ، قَناطِرَ التّوحيدِ وقَناطِرَ النّجاةِ، **وٱلمُغْني** كِتابٌ في آراءِ ٱلأشاعرةِ **والعمدُ** كِتابٌ في آراءِ ٱلمُعتزلةِ.

قَـدْ بـالَـغـوا فـي كَـلامٍ بـانَ زُخْـرُفُـه،
يُوهي ٱلعُيونَ، ولـم تَثْبُتْ لهُ عَمَدُ
ومَـا يَـزالـونَ فـي شـامٍ وفـي يَـمَـنٍ،
يَـسْـتَنْبِـطـونَ قِـيـاسـاً مـا لَـهُ أمَـدُ
فَـذَرْهُـمُ[٦] وَدَنـايـاهُـمْ فَـقَـدْ شُـغِـلـوا
بها، ويَكْفيكَ منها ٱلقادِرُ ٱلصَّمَدُ (ل٢/١٧)

وإنّ نظريّةَ ٱلـمُحيطِ وٱلـمُحاطِ تَنْتَهي، على وَجْهِ ٱللُّزومِ والضَّرورةِ، بنظريَّةِ ٱلقُدرةِ وٱلقُوَّةِ. فإنّ ٱلقُدرةَ في ٱلـمُحيطِ ٱلفرديِّ (دقِّقِ النّظرَ طَويلاً في السّرِّ ٱلّذي حَدا بأبي ٱلعلاءِ إلى قَرْنِه ٱلقادِرَ بالصَّمَدِ في قولِهِ «ويكفيكَ منها ٱلقادِرُ الصَّمدُ»، تَجِدْه في أنّ الصّمدَ تَوَحُّدٌ، والتَّوحُّدَ فرديٌّ، وٱلـمُحيطَ ٱلفَرديَّ قُدرةٌ).

أمّا ٱلقوّةُ فهيَ تَلْحَقُ وتَسْتَكِنُّ في ٱلـمُحيطِ ٱلـمُتَجَزِّىءِ الزَّوْجيِّ، وٱلقوّةُ حينَما تَكونُ مُحيطاً، كما هو الشّأنُ في الطَّبيعةِ، تَتْرَعُ بٱلفَسادِ وٱلفَناءِ وٱلانْحِلالاتِ والشّرِّ والظُّلمِ... إلخ، فهَدَفُ ٱلـمُتَوَحِّدِ هو ٱلـخُروجُ من دائرةِ ٱلقُوَّةِ إلى دائرةِ ٱلقُدْرةِ...

وعَلى ضَوْءِ هذا ٱلأساسِ ٱلفَلْسَفيّ، نَفْهَمُ لِماذا جَعَلَ ٱلمعرّيُّ ٱلـمُشْتَرَكَ ٱللّفظيَّ أساساً أُسلوبيّاً في ٱلفِكْرِ وفي التّعبيرِ. وذَلكَ ٱلـمُشْتَرَكُ يَجْمَعُ عِدّةَ مَعانٍ في لفظٍ واحدٍ، كٱلعينِ ٱلّتي تدُلُّ على ٱلباصِرَةِ ونبعَةِ ٱلماءِ والذّهبِ... إلخ، فهذِه ٱلمعاني ٱلـمُخْتَلِفَةُ تَجَزُّؤٌ وزَوجيّةٌ، يُوَحِّدُها ٱللّفظُ

(٦) تأمّل دِقَّة ٱلمَعرّيِّ في تَعبيره بكَلِمة «ذَرْ» دون «دَعْ»، لأن «ذَرْ» في حَقيقةِ وَضْعِها تُفيدُ التّحذيرَ من ٱلفاسِدِ ٱلّذي تَعْلَمُ فسادَه وتأتيه، بينَما «دَعْ» تُفيدُ التّحذيرَ من ٱلفاسِدِ ٱلّذي تَأْتيه وأنت لا تَعْلَمُ فَسادَه، راجِعْ فصلَ التّفسيرِ من **مجموعة ٱلحفيد** ط، القاهرة.

ٱلواحِدُ ٱلمُشْتَرَكُ... وكذلكَ ٱلآستِخْدامُ ٱلبديعيُّ، فإنّه تَوَحُّدٌ في الضَّميرِ، ولُزومُ ما لا يَلْزَمُ إذ يَكونُ الرَّويُّ فيه مُتَوَحِّدَ رَوِيَّيْنِ... وأمّا الرَّمزيَّةُ والتَّوْريَةُ وٱلمَلاحِنُ وٱلكِنايَةُ وٱلمَجازُ، فَمُتَحَرِّكاتٌ صَوْبَ التَّوَحُّدِ...

وَلَيْسَ بَيْنَ يَدَيَّ من حَجْمِ ٱلكِتابِ ما يَتَّسِعُ لإيرادِ الشّواهدِ ٱلكَثيرةِ أَوْ للتّفصيلِ، فقدْ دَلَلْناكَ على الطّريقةِ ٱلّتي هي أهمُّ ما نُعنى به في هذا ٱلكِتابِ، وَلَيْسَ عَسيراً التَّهدِّي إليها مع إنْعامِ النَّظَرِ وتَوْفيرِ الرّويّةِ... وٱلآنَ نَتَناولُ أَهَمَّ أفكارِه الرَّئيسةِ عَلى تَرْتيبِها مَوْضوعيّاً.

القسم الإلهي

يَدورُ رأيُه في الذّاتِ ٱلإلهيّةِ على مَحْضِ التّنزيهِ والتّقديسِ، وتَصَوُّرُه للصِّفاتِ تَصَوُّرٌ باطنيٌّ خالصٌ، يَقومُ على السَّلْبِ حَذَراً من التّشبيه.

وٱلمعرّيُّ يُشيرُ في **الأيك والغصون** إلى أنّه لولا الضّرورةُ ٱللُّغويّةُ للتّعبيرِ، و«لَوْلا ما أصْفق ٱلمُتَعَبِّدونَ عليه من تَمجيدِ ٱللّهِ، لوَجَبَ أن لا يُذْكَرَ ٱسْمُ ٱللّهِ تَعالى إجلالاً وهَيْبةً، وأنْ لا تُرفَعَ أُنملةٌ إلى السَّماءِ إعظاماً وتأثُّماً»، لأنّه يَعْلَمُ ٱلحاجةَ وٱلخَلْجَة مَهْما دقَّتْ؛ والدُّعاءُ مُوهِمٌ وهو يُنافي التّقديسَ ٱلمُطْلَقَ.

وإذا ٱستعَدْنا إلى الذِّهنِ أساسَه ٱلفَلْسَفيَّ، وأخْذَهُ التَّصوّرَ ٱلإلهيَّ به، نُدْرِكُ أنّه يَدورُ على آيةِ «هو ٱلأوّلُ وٱلآخِرُ والظّاهرُ وٱلباطِنُ» (الحديد ٥٧:٢٣) .

وذلكَ أنّ ٱللّهَ، من حَيْثُ هو هو في ذاتِه، واحِدٌ أوّلُ باطِنٌ. ومن

جِهَةِ تَحَرُّكِنا إليه، وبتَعبيرٍ أكثَرَ تَعْميماً، تَحَرُّكِ ٱلمَوْجودِ إليه، أحدٌ وآخَرُ أو ظاهِرٌ[١].

فٱللّهُ، إلهيّاً، واحدٌ، وهو، بَشَريّاً أو كَوْنيّاً، أحدٌ (أي مِن نافذةِ التأمُّلِ وٱلآنجذابِ ٱلبَشَريِّ أو ٱلكَوْنيِّ). فٱلأحَدُ يُعَبِّرُ عَمّا هو في التّصَوُّرِ ٱلأكملِ تَجْريديّاً، وهو مَوْرِدُ الصِّفاتِ، وتأمَّلْ على هذا ٱلأساسِ آيةَ «قُلْ هو ٱللّهُ أحَدٌ»، (الإخلاص ١١٢:١) يَنْكَشِفْ لَكَ أنّ التّعبيرَ بالضَّميرِ، أيْ بـ «هو» لإفادةِ أنّ ٱلحَقيقةَ من حَيْثُ هي هي، فوقَ التّحديدِ وٱلإدراكِ والتَّصَوُّرِ. وكلُّ صِفَةِ إدراكٍ أو تَتَضَمَّنُ نَوْعاً من ٱلإدراكِ، وهو يُنافي التّنزيهَ ٱلمُطلَقَ.

ويَجِدُ الشّاهِدَ، في آية «ولم يكُن له كُفُواً أَحَدٌ» (الإخلاص ١١٢:٤)، فلو لَمْ يكُنْ في ٱلأحَدِ جانِبُ ٱشتراكٍ لَما ٱحتاجَ إلى نَفْيِه، إذاً فٱلهُوِّيَّةُ ٱلإلهيّةُ تَمُدُّ بالصِّفاتِ، وليسَتْ هي مَوْرِدَها ومحلَّها.

وٱلأحدُ تَمثيلاً في مرتبةِ الٱثنينِ، والصَّمَدُ، أي تَوَحُّدُ ٱلمُفارقاتِ، في مرتبةِ الثّلاثة.

وٱللّهُ بٱلمَعْنى ٱلأوّلِ من حَيْثُ هو إلهيٌّ، وبٱلمَعْنى الثّاني والثّالثِ من حيثُ إدراكُنا بَشَرِيّاً على تفاوُتٍ في ٱلقيمةِ وٱلمنزلة.

فالتَّوجُّهُ إليه بٱلمَعْنى الثّالثِ عِبادةُ الدَّهْماءِ، وبٱلمَعْنى الثّاني عِبادةُ ٱلمَرْضى ٱلفِكريّينَ، وبٱلمَعْنى ٱلأوّلِ عبادةُ ٱلأصِحّاءِ ٱلمُتَوَحِّدينَ. ولعلّ أجْمَعَ أبياتِه:

(١) يُقَرِّبُ ٱلّذي نَعْني ما يُعْرفُ في الرّياضيّاتِ وٱلفيزياءِ ٱلحديثةِ بٱسْمِ «الزّمكانيّة» أو (الزّمان ـ المكان)، وأيضاً ما يُعرفُ بٱلبُعْدِ الرّابعِ في النّسبيّة، فيَنْبَغي لِتَصِلَ إلى حَقيقةِ فِكْرِ ٱلمَعَرّيِّ أن تَتَعَمَّقَهما، وأعْني نَظَرِيَّةَ «سمطس» والنّسبيّة ٱلعامّة. أنْظُرْ كِتاب **فلسفة المُحدَثين والمُعاصِرين**، ص ٢١٥ ـ ٢٢٠.

إلــهُــنــا آلــلّــهُ، مَــلْــكٌ أوّلٌ أحَــدٌ،
تُـطيعُه مِنْ صُنوف النّـاسِ، آحـادُ (ل٢/٢٨)

*

آلـلّـهُ لا رَيْـبَ فـيـهِ، وهـو مُـحتَـجِـبٌ
بـادٍ، وكُـلٌّ إلـى طَـبْـعٍ لـه جُـذِبـا (ل١/١٢٧)

*

تَــوَحَّــدْ، فــإنّ آلــلّــهَ رَبَّــكَ واحــدٌ،
ولا تَـرْغَـبَنْ فـي عِـشْـرَةِ الـرُّؤَسـاءِ (ل١/٧١)

ويَنْبَغي أن تَعْلَمَ أنّ التَّعْبيرَ في هذه آلمَباحثِ يَستنِدُ إلى الدِّقَّةِ آلبالغةِ، ويَقومُ عليها، وأمّا إطْلاقُها بِدونِ وعيِها آلوعيَ آلحقَّ، فيَجعَلُكَ في عِمايةٍ عن كُنْهِها وجوهرِها:

فـي كُـلٍّ أمـرِكَ تَـقْـلـيـدٌ رَضيـتَ بـه،
حَـتّـى مَـقـالُـكَ: ربّـي واحِـدٌ أحَـدُ (ل٢/٢٠)

أمّا آلمعرّيُّ فيُريدُنا أنْ نفهَمَ ونُدرِكَ أنّ قَوْلَنا الأحدُ في مَرْتبةِ آلآثنينِ، والصّمَدُ في مرتَبَةِ الثّلاثةِ، لا يتَضَمّنُ أبداً أنّهما يَعْنيانِ آلعَدَدَ، بل لقدْ صَرّحَ آلمعرّيُّ بغوايةِ آلقائلينَ بآلآثنين والثّلاثةِ وأشباهِهم:

عَـمَـدْتُمْ لـرأْيِ آلـمَـثْـنَـويَّـةِ، بَـعْـدَمـا
جَـرَتْ لَـذّةُ الـتّـوْحـيـدِ في آلـلَّـهَـواتِ (ل١/٢٣٣)

*

وفــي مُــهَــجِ آلأنــيــسِ مُــثَــلَّــثــاتٌ
عَــلــى عِــلّاتِــهــا، ومُــوَحِّــداتُ (ل١/٢١٣)

وإذا تأمّلْتَ ما تَقَدَّمْنا به من الشَّرْحِ، وقَفْتَ عَلى طَريقةِ آلمعرّيِّ في

آستِخلاصِ آلحَقيقةِ آلمُشْتَرَكَةِ من آلأديانِ آلمُتنَافِرةِ، وكيفَ هو يُحيلُها إحالةً طَريفةً فيها أُلفةٌ وفيها آنسجامٌ.

التّصوّر العامّ
في المضمار الإلهيّ والماورائيّ (الميتافيزيقيّ)

نَتَقَدّمُ بَيْنَ يدي ٱلبَحْثِ برَسْمِ ٱلخُطوطِ ٱلأساسيَّةِ، ٱلّتي إذا ٱشتَبَكَتْ وٱئْتَلَفَتْ مُنْتَظِمَةً، أعطَتْنا حَقيقةَ تصَوُّرِه عن الشّكلِ ٱلمُفْرَغِ فيهِ العالمُ.

رأينا عندَ ٱلمَزْدَكيّةِ ٱلقولَ بـ «النّورِ والظُّلمَةِ، وأنّ ٱلأُصولَ ثلاثةٌ، ولها في ٱلعالَمِ ٱلأعْلى أربعُ قُوىً، وهي تُدَبِّرُ ٱلعالَمَيْنِ ٱلأعْلى وٱلأسْفلَ بسَبْعَةٍ، وهذه السَّبعةُ تَدورُ في ٱثنيْ عَشَرَ. وكلُّ إنسانٍ ٱجتمَعَتْ له هذه ٱلقُوى صارَ ربّانيّاً في ٱلعالَمِ السُّفليِّ»:

جَسَدٌ من أرْبَعٍ تَلْحَظُها،

سَبْعَةٌ راتِبَةٌ في ٱثْنَي عَشَرْ (ل٢/٣٠٣)

ورَأينا في مِلَلٍ كَثيرةٍ، ٱلقَولَ بالثّلاثةِ في التَّصَوُّرِ ٱلإلهيِّ... ونَرى في ٱلعَدَدِ، وأوَّلُهُ الثّلاثَةُ، أنّ مراتِبَهُ أربعٌ: آحادٌ، عَشَراتٌ، مِئاتٌ، أُلوفٌ... ونَرى في السَّنَةِ أنّها ثَلاثةُ أشْهُرٍ، دائرةٌ في أربعةِ فُصولٍ... ونَرى في ٱللُّغةِ أنَّ ٱلأصْلَ ٱلمُجَرَّدَ مُتَوَحِّدُ ثَلاثةِ أحرفٍ، وهذهِ الثّلاثةُ تَدورُ في أربعِ حالاتٍ إعرابيّةٍ: ضَمٌّ وفتحٌ وكَسرٌ وسُكونٌ...

من هذه ٱلمَجْموعةِ ٱلمُتَنافِرةِ ٱلمُختلفَةِ، خَرَجَ ٱلمعرّيُّ بنَظَريّةٍ طَريفةٍ تُؤَلِّفُ بَيْنَها، ومِن الضَّروريِّ هُنا أن نَعْرِفَ كَيْفَ ٱمتزجَتْ وٱستحالَتْ في «كُلٍّ نظريٍّ» غَريبٍ.

ولكيْ نَلمِسَ نظريّتَهُ لَمْساً، يَلْزَمُنا أنْ نُبْعِدَ أبداً عن أذهانِنا ٱلأساسَ ٱلفَلْسَفيَّ ٱلّذي سَبَقْنا بٱلحَديثِ عنه.

عَرَفْنا هُناكَ أنّ ٱلواحدَ يُنتِجُ ٱلآثنينِ بِتَوَسُّطِ السَّلْبِ، فٱلآثنانِ تُبْطِنُ ٱلواحِدَ، فهي كائنٌ إيجابيٌّ ٱنبثَقَ بتوَسُّطِ مَفْهومٍ سَلْبيٍّ، وأنّ ٱلأحدَ في جَوْهَرِهِ ما قامَ بٱلواحِدِ، وٱلآثنينِ واحدٌ مُكَرَّرٌ، إذاً هي ٱلأحدُ ٱلواردُ بلغةِ ٱلقُرآنِ. ومن هُنا نَرى كَيْفَ تَلتقي الزّرادشتيّةُ وفُروعُها بٱلإسلامِ في هذا ٱلمعنى التَّجريديِّ، أمّا زَيْفُها فَمَبْعَثُه سَذاجَةُ ٱلمُقَلِّدينَ ٱلّتي أوقعَتْهُم بالشِّرْك.

وعَرَفْنا أيضاً أنّ الثّلاثةَ، ٱئتلافُ ٱلآثنينِ مع ٱلواحِدِ في شَكْلِ كُلٍّ لا يَنقَسِمُ، ولِذا كانَ أوّلَ ٱلعَدَدِ. ومن ثَمَّ يَتحَصَّلُ مَعَنا: واحدٌ، أحدٌ، تَوَحُّدٌ مُصْمِتٌ، أي تَوَحُّدُ ٱلكُلِّيّاتِ، وهذا ٱلأخيرُ هو ٱلمُعَبَّرُ عنهُ في لُغَةِ ٱلقُرآنِ بالصَّمَدِ. ومن هُنا يَتّضِحُ كيفَ تَلْتَقي بٱلإسلامِ ٱلمِللُ ٱلقائلةُ بالثّلاثةِ على هذا ٱلمعنى التّجريديِّ، وسَذاجةُ ٱلمُقَلِّدينَ أوقعَتْهُم في شَيْئيّةٍ حادّةٍ، دفَعَتِ ٱلمَعَرّيَّ دَفْعاً إلى تَجْريدِ حَمَلاتِه ٱلقاسيةِ على أوْهامِ سذاجَتِها.

وعَرَفْنا هُناك أيضاً أنّ ٱلأربعةَ ٱئتلافُ زَوْجِيَّتَيْنِ إيجابيّتَيْنِ، فكانَتْ تَرْكيباً حَدَثَ منه مَبْدأُ ٱلوُجودِ، ولذا نَرى في ٱلفَلْسَفَةِ الطّبيعيّةِ ٱلإغريقيّةِ أنّ ٱلأركانَ أربعةٌ: ٱلماءُ والتّرابُ والنّارُ وٱلهواءُ، وأنّ ٱلأخلاطَ في الطّبيعةِ ٱلحَيّةِ أربعةٌ: ٱلحرارةُ وٱلبُرودةُ والرُّطوبةُ وٱليُبوسَةُ:

والنّاسُ من أرْبَع شَتّى، إذا ٱئتَلَفَتْ
إلى سَبْعَةٍ، في ٱلحُكْمِ تَخْتَلِفُ (ل٣/١٦٠)

وإذا سَمَحْنا لأنفُسِنا بتَخَيُّلِ صُورةٍ على مَنْهَجِه، فإنّنا نرسُمُها على هذا الشَّكْلِ:

إنّ ٱلواحدَ ٱلمُطْلقَ يَدورُ حولَ ذاتِهِ أبَداً، تارةً عَلى جانِبِ ٱلإيجابِ وتارةً عَلى جانِبِ السَّلْبِ، ومن دَوْرتِه على السّلْبِ ٱنبثَقَتِ ٱلآثنانِ وٱنفصَلَتْ، وٱبتدأتْ تَدورُ حولَ ذاتِها أيضاً، تارةً على جانِبِ ٱلإيجابِ وتارةً على جانبِ السّلْبِ[1]. ومن دَوْرتِها على جانبِ السَّلبِ مَاسَّتْ، من قُرْبٍ فَقَطْ، مَدارَ ٱلواحِدِ على جانبِ ٱلإيجابِ، فٱنبثَقَتِ الثّلاثةُ وٱنفصَلَتْ مُنْجَذِبَةً إلى ٱلواحِدِ، مَدْفوعةً عن ٱلآثنينِ، وٱبتدأتْ تَدورُ حولَ ذاتِها كذلكَ، ومن دَوْرتِها على جانبِ ٱلإيجابِ تَنْشَأُ ٱلكائناتُ ٱلمُفارقَةُ ٱلأثيريَّةُ.

ومن دَوْرَةِ ٱلآثنينِ عَلى جانبِ ٱلإيجابِ ٱنبثَقَتِ ٱلأربعةُ وٱبتدأتْ تَدورُ حَوْلَ ذاتِها، ومنْ دَوْرَتِها على جانِبِ ٱلإيجابِ تَوَلّدَتِ ٱلأرْكانُ ٱلأربعةُ ٱلّتي هي ٱلماءُ والنّارُ... إلخ، متجزّئةً متوزِّعَةً، إذْ هي، أيِ الزّوجيّةُ، لا تَملِكُ عُنْصُرَ التّأليفِ بَلِ التّعدُّدِ والتّجزُّؤ.

سَتْرٌ وبُخْلٌ، والتّجنُّبُ والنّوى
أسْتارُ مِثْلِكَ، دونَنا إسْتارُ (ل٢/١٥١)

وٱلإستارُ، كَما هو مَعروفٌ، كَلمةٌ دَخيلةٌ من ٱليونانيّة تَعْني ٱلأربعةَ، وٱستَعْمَلَها في ٱلتجزُّؤ كما تَرى.

(١) يُقرِّبُ ما نَعني دِراسةُ ٱلمَداراتِ ٱلفَلكيّةِ وَفقَ رأيِ «كبلر» بشَكْلٍ متعمّقٍ... كَما يقرّبُهُ دِراسةُ دَوَرانِ الإلكتروناتِ حَوْلَ النّواةِ ولا سيّما في النّظائِر.

وفي دَوْرتِها على جانبِ السَّلْبِ ماسَّتْ مَدارَ الثّلاثةِ، فآنبثَقَتِ السَّبعةُ آلّتي آكتسَبَتْ عُنْصُرَ التّأليفِ، وآبتدأتْ تَدورُ. ومن دورانِها على جانِب آلإيجابِ تألّفَتِ آلمُتَجزّئاتُ وآتّحدَتْ في آلمُتَجسّداتِ الثّابتةِ أو «آلبنائيّةِ» كالسّماواتِ السَّبْعِ وآلأَرَضينَ السَّبْعِ... إلخ.

وآنبثَقَتْ بطَفْرةِ آلاثنا عَشَرَ آلّتي آبتدأتْ تَدورُ، ومن دَوَرانِها تألّفَتِ آلمُتَجزّئاتُ وآتّحدَتْ في آلمُتَجسّداتِ آلمُتَغيّرةِ أو آلإعرابيّةِ كالنّباتِ وآلحيوانِ... إلخ:

طُرُقُ آلعُلى مَجْهولَةٌ، فكَأنّها
صُمُّ آلعَدائِدِ، ما لَها أجْذارُ (ل٢/١٥١)

وبآلاثْنَي عَشَرَ ينتَهي الدّورُ، ويَتِمُّ آلأُفُقُ، وشاهِدُ هذا في آللُّغةِ، فَقَدْ قَرّرَتْ أنّ آبتداءَ جَمْعِ آلقِلّةِ الثّلاثةُ، وآبتداءَ آلكثرةِ آلاثنا عَشَرَ. وهكذا تَذهَبُ آلأشياءُ في مداراتِها بينَ كَوْنٍ وفَسادٍ، على آلآحادِ وآلعَشراتِ وآلمئاتِ وآلأُلوفِ، إلى أنْ تَبلُغَ النِّهايةَ في آلاثنيْ عَشَرَ من خانةِ آلأُلوف. فإنّ السَّنَةَ وحدةُ التَّغيُّرِ الصُّغرى وهي آثْنا عَشَرَ شهراً، وإنّ وَحدةَ التَّغيُّرِ آلكُبرى، أيْ عُمرَ آلكَوْنِ وآلفسادِ، آثْنا عَشَرَ أَلْفَ سَنَةٍ[٢]، وهكذا دَواليك...

وإنّ الثلاثةَ في دَوْرَتِها على جانِبِ آلإيجابِ، قدْ تُماسُّ آلاثنينِ في دَورتِها على جانبِ آلإيجابِ أيضاً، فتَنبثِقُ آلخَمْسَةُ آلّتي هي تَوَحُّدُ آللّامُصْمِتِ، أي تَوحُّدُ آلجُزْئيّاتِ، وهي آلمَنزِلةُ آلّتي في طَوْقِ آلآستعدادِ آلبشريِّ إدراكُها...

ومِن هذا آلعَرْضِ، يَتبيّنُ لنا مَعْنى الزّمانِ عِنْدَ آلمعرّيِّ، وهو أنّه

(٢) راجِع **الملل والنّحل** للشّهرستانيّ عَلى هامِشِ الفَصْل، ج ٢ ص ٦٩، ولهمْ عَلى كُلِّ هذا براهينُ من آلهندسَةِ آلفلكيّةِ.

هذه ٱلٱلتقاءاتُ والتّماسّاتُ. ومَعْنى ٱلأقدارِ أيضاً، وهي تَجيءُ خَيّرَةً إذا كانَ ٱلٱلتقاءُ على وَجْهِ ٱلإيجابِ، وشِرّيرةً إذا كانَ على وجهِ السَّلْبِ.

وإذا صَحَّ هذا، فما ٱلفَرْقُ بينَ الزَّمانِ وٱلأقْدارِ؟ عندَ التّأمُّلِ نَجِدُ ٱلفَرقَ قائماً على أنّ الزّمانَ هو ٱلٱلتقاءُ نفسُه، بينَما ٱلأقدارُ تَدورُ على ما في ٱلٱلتقاءِ مِن سَلْبٍ وإيجابٍ.

وهذا ٱلعَرْضُ يأخُذُ بِنا في ٱتّجاهِ تَقسيمٍ لا غِنىً عنه، بسبيلِ تَكوينِ معرفَةٍ صَحيحةٍ بالنّظريّةِ ٱلمَذْكورةِ، وهو أنّ الزّمانَ يُعيِّنُهُ ٱلواحدُ وهو بأُفُقِهِ فَوْقَه، وذلكَ لأنّ الزَّمانَ ليسَ ٱلحركةَ بلِ ٱلٱلتقاءُ، وليسَ في أُفُقِ ٱلواحدِ ٱلْتِقاءٌ، وإنّما ٱنجذابٌ ومُماسَّةٌ من قُرْبٍ فَقَطْ.

وأمّا الزَّمانُ في أُفُقِ ٱلٱثنينِ والثّلاثةِ، وبتَعْبيرٍ آخرَ في أفقِ ٱلأحدِ والصَّمدِ، فإنّه ثابتٌ لا يَتغيّرُ، أي كـ «ٱلبناءِ النَّحْويِّ» لا يُدرِكُهُ تغيُّرُ ٱلإعرابِ. فالزَّمانُ في هذا ٱلأُفُقِ هو الدَّهْرُ، ومن هنا يَتحدّدُ لنا مَعْنى ٱلحديثِ ٱلّذي يُلِحُّ ٱلمعرّيُّ في التَّعلُّقِ به «لا تَسُبّوا الدَّهرَ فإنّ ٱللّهَ هو الدّهرُ»:

ولو طارَ جِبريلٌ بَقِيَّةَ عُمرِهِ،
عن الدَّهرِ، ما ٱسْطاعَ ٱلخُروجَ من الدَّهرِ (ل٢/٢١٥)

ومَعنى عَدَمِ تَغيّرِه أنّ ٱلٱلتقاءاتِ في هذه ٱلآفاقِ قائمةٌ بٱلعَقْلِ ٱلكُلّيِّ، فلا تَجيءُ إلّا على قَصْدِ نَسَقٍ:

تَعَلَّقُ أُذْنَ الدَّهْرِ قُرطاً ولم يَكُنْ
لِيُخْلَجَ، وٱلقُرطانِ يخْتَلِجانِ (ل٤/٣١٤)

وأمّا هو في أُفُقِ ٱلأرْبعةِ فَزَمانٌ مُتَغَيِّرٌ كٱلإعرابِ النَّحْوِيِّ، وذلك لأنّه قائمٌ بٱلعَقلِ ٱلجُزْئيِّ:

والـدَّهْـرُ أكْـوانٌ، تَـمُـرُّ سَـريـعَـةً،
ويَـكـونُ آخِـرُهـا نَـظـيـرَ ٱلأوّلِ
ويُـؤلِّـفُ ٱلـوَقْـتُ، ٱلـمَـديـدُ، قِـصـارَهـا،
حَـتّـى يُـعَـدَّ مِـن الـزَّمـانِ ٱلأطْـوَلِ (ل٤/١٠٠)

وهنا نُدرِكَ أنّ ٱلآلتقاءاتِ في أُفُقِ ٱلآثنينِ والثّلاثةِ قائمةٌ على ٱلقَصْدِ كُلِّ ٱلقَصْدِ، لأنّها في مُحيطِ عَقْلٍ كُلِّيٍّ، وهي أقدارٌ خَيّرَةٌ لذلكَ أيضاً، بينَما ٱلآلتقاءاتُ، أيِ ٱلأقْدارُ، في أُفُقِ ٱلأربعةِ وما تَحْتَها، فتَقومُ على ٱلآتّفاقِ وعَدَمِ ٱلقَصْدِ، لأنّها في مُحيطِ ٱلعَقْلِ ٱلجُزئيِّ:

وَالِـدُنـا الـدَّهـرُ، بـهِ طَـيْـشَـةٌ،
فـلَـيْـسَ فـيـه مـن بَـنـيـهِ حَـلـيـمْ (ل٤/٢٤١)

وكُلَّما زادَتِ النِّسبةُ نُزولاً إلى تَحْتُ، تَزيدُ جُزْئيّةُ ٱلعَقْلِ حتّى تَغْدُوَ وٱلآلتقاءاتُ خَبْطَ عشواءَ إلّا قَليلاً، إذاً فٱلأقدارُ في الشّيءِ وليسَ في ٱلغيبِ[٣]... ومِنْ وَجْهٍ آخرَ ينْتَهي هذا ٱلعَرْضُ به قَطْعاً إلى ٱلقَوْلِ بٱلقِدَمِ الذّاتيِّ، وٱلقِدَمِ الزَّمانيِّ أو الدَّهرِ، وبٱلحُدوث.

وهي تَتوزَّعُ على هذا الشَّكْلِ: في أُفُقِ ٱلواحدِ قِدَمٌ ذاتيٌّ، وفي أُفُقِ ٱلآثنينِ والثّلاثةِ قِدَمٌ زمانيٌّ... ومن أُفُقِ ٱلأربعةِ، فما سَفَلَ، حُدوثٌ يَلْتقي بحُدوثٍ. وإذا دُرْنا مَعَه في **اللّزوميّات** دَوْرةً قَصيرةً نَجِدُ هذه الأبياتَ:

كـأنّـمـا ٱلأنْـجُـمُ الـسَّـبْـعَـةُ
فـي لُـعْـبَـةِ بُـقّـارى (ل١/٨٤)

*

(٣) أقولُ، في حَذَرٍ شَديدٍ، إنّه هُنا يُشْبِهُ ديمقريطس زَعيمَ ٱلمدرسةِ الذَّريّةِ الإغريقيّة.

وٱلقَوْلُ كٱلخَلْقِ مِنْ سَيْىءٍ ومن حَسَنِ،
والنّاسُ كالدّهرِ، من نُورٍ وظَلْماء (ل١/٧٦)

لا تُقْدِمِ، الدَّهْرَ، عَلى مأثَمْ
وٱستغفِرِ ٱلواحِدَ رَبَّ القِدَمْ (ل٤/٢٤٢)

*

خالقٌ لا يُشَكُّ فيه، قديمٌ
وزَمانٌ عَلى ٱلأنامِ، تَقادَمْ (ل٤/٢٤٥)

*

يَرَوْنَ أَباً ألْقاهُمُ في مُؤرَّبٍ
مِن ٱلعَقْدِ، ضَلَّتْ حَلَّه ٱلأُرَباءُ (ل١/٥٠)

*

جَرَتْ زَمَناً، وتَسْكُنُ بَعْدَ حينٍ،
وأقضِيَةُ ٱلمُهَيْمِنِ لا تُجارى
لَعَلَّ قِرانَ هذا النَّجْمِ يَثْني،
إلى طُرُقِ ٱلهُدى، أُمَماً حَيارى (ل١/٨٢)

*

لَسْتُ أنْفي عَنْ قُدْرةِ ٱللّهِ أشْبا
حَ ضِياءٍ، بغَيْرِ لَحْمٍ ولا دَمْ (ل٤/٢٤٥)

العقل والرّوح والنّفس

عَرَفْنا فيما سَبَقَ أنّ ٱلعَقْلَ ٱلكُلِّيَّ هو مُسْتَقَرُّ ٱلأمْرِ ٱلأوّل، فإذا ٱتّخذْناهُ مَوْضوعاً لحَمْلِ قانونِ النّفي وٱلإثباتِ عليهِ، نَجِدُ فيه جانبَ إيجابٍ، وهو كُلّيَّةُ ٱلعَقْلِ؛ وجانبَ سَلْبٍ، وهو لاكُلّيّةُ ٱلعَقْلِ، ومن هذا ٱلجانبِ السَّلْبيِّ تَنبُعُ جُزئيّةُ ٱلعَقْلِ في ٱلبشَريِّ.

وإنّ جزئيّةَ ٱلعَقْلِ مَوْضوعٌ أيضاً، وفيه، مِثْلَ ٱلأوّلِ، جانبُ إيجابٍ، وهو التَّجزُّؤُ والتَّرْكيبُ، ومنه تَنْبُعُ النّفْسُ؛ وجانبُ سَلْبٍ وهو ٱللّاجُزئيّةُ ومنه تَنْبُعُ الرّوحُ.

وكُلَّما زادَ ٱلبَشَريُّ في ٱتّجاهِ الضَّراوَةِ البشريّةِ ونَهَمِ ٱلأعصابِ ٱلحيّةِ، زادَ تَرْكيباً وتضخَّمَتِ النّفسُ لَدَيه ورَبا فيه مَعْنى ٱلكونِ وٱلفسادِ بنِسبةٍ هندسيّةٍ... ومن هذا نَفْهَمُ تَماماً أنّ النّفسَ تجزُّؤٌ، والرّوحَ تآلفٌ، وٱلعَقْلَ توحّدٌ.

وعليهِ فالتَّصوُّرُ ٱلعَلائيُّ ٱنصَرَفَ إلى أنّ كُلَّ ما يَفيضُ من مُحيطِ ٱلوَحْدَةِ ٱلمُطْلَقَةِ يَكونُ كُلّيّاً، ثُمَّ يَدورُ على جانِبِ السَّلْبِ فيهِ فيتجَزَّأُ، وفي سَبيلِ التّجزُّؤِ يَتّخِذُ صُوَرَ ٱلفسادِ.

فإذا كانَتِ النّفسُ هي ٱلمُحيطَ، باتَ ٱلكائنُ في دُنيا ٱلفَسادِ والتّجزُّؤ، وإذا كانَتِ الرّوحُ هي ٱلمُحيطَ، غدا ٱلكائنُ في حالٍ من ٱلآعتدالِ ٱلجانحِ نَحْوَ التّكامُلِ والتّوحُّدِ بٱلعَقْلِ، أو، حَسَبَ التّعبيرِ ٱلأرسطوي "Nous" (النُّوس). وٱلّذي يَتَحَصّلُ لنا من هذا، أنّ ٱلعَقْلَ ٱلجُزْئيَّ ٱلبشريَّ يَنبَثِقُ من ٱلآستعدادِ السّلبيِّ للعقلِ ٱلكُلّيِّ، وهو يَمُدُّ بالزّوجيّةِ؛ والرّوحُ تَنبَثِقُ من ٱلآستعدادِ السّلبيِّ للعقلِ ٱلجُزْئيِّ، وهو يَمُدُّ بالتّآلُفِ؛ والنّفسُ تَنبَثِقُ من ٱلآستعدادِ ٱلإيجابيِّ للعقلِ ٱلجزئيِّ، وهو يَمُدُّ بالتّجزُّؤ والزّوجيّةِ ٱلمُتراكبةِ ٱلمُتَرابيةِ.

فالنّفسُ مَصيرُها للآنحلالِ وٱلبَوارِ، والرّوحُ تَذْهَبُ بٱلعقلِ ٱلجُزئيِّ طائرةً مُحَلِّقَةً، كيْ يندَمِجَ بيَنْبوعِه ٱلكُلّيِّ...

وبتَسامُحٍ قَليلٍ، قَصْداً للإيضاحِ، أقولُ: النّفسُ من الطّبيعيّاتِ، والرّوحُ من ٱلعقليّاتِ، وٱلعَقْلُ ٱلجُزْئيُّ مُلتَقى السَّلْبِ ٱلعقليِّ بٱلإيجابِ الطّبيعيِّ... ففائدةُ الرّوحِ في ٱلكائِنِ إذاً، أنّها تَعْمَلُ على مَحْوِ جُزئيّةِ ٱلعَقْلِ بالتّأليفِ، وٱلآنجِذابِ به إلى فَوْقُ، وبهذا يَظْهَرُ سِرُّ ٱلكِنايةِ عنْها بٱلحَمامةِ أوِ ٱلوَرْقاءِ، فقدْ عادَتْ راجِعةً بغُصنِ الزَّيتونِ كما تُعرَفُ في رَمزيّةِ قِصَّةِ الطّوفان.

ولكنّ مِن دأْبِ ٱلجَسَدِ، بِما ٱجتمَعَ فيهِ من ٱلأخْلاطِ ٱلعامِلَةِ، ٱلغَلَبَةَ وٱلأسْرَ والسَّيْطرةَ، فعلى ٱلإنسانِ أن يُعينَ عملَ الرّوحِ فيه على تأليفِ ٱلعَقْلِ ٱلجُزْئيِّ، بٱلإضعافِ من النَّماءِ ٱلحَيَويِّ وٱلآستفْحالِ ٱلعُضْويِّ. بهذا يَعقُلُ ٱلمَرْءُ عَنْسَهُ ونَشاطَ ٱلجَسَدِ فيَضعُفُ عن الصِّراعِ، وتَمْضي الرّوحُ في تحْطيمِ ٱلجُزْئيّةِ ٱلعالقةِ بمَعْناهُ، حتّى تَطيفَ مثلَ دائرةٍ مُؤْتلقةٍ، تَغْدو له مثلَ ٱلقوادِمِ وٱلخَوافي، ٱلّتي تَرتَفِعُ نحوَ أُفُقِ الشّمسِ. ولْنَلْتَمِسْ أثرَ هذا

في **اللّزوميّات**، قالَ:

وأرْواحٌ سَـوالِـكُ، فـي جُسـومٍ،
يُـهَـنَّ بـأنْ يُـرَيْـنَ مُـجَـسَّـمـاتِ (ل١/٢٤٩)

*

خَـمِـدَتْ خَـواطِرُ مِـنْـهُـمُ، وتَـكـاثَـفَـتْ
أرْواحُـهُـمْ، فَـكَـأنَّـهـا أجْـسـادُ (ل٢/٣٧)

*

والـرّوحُ شَـيءٌ لَـطـيـفٌ لَـيْـسَ يُـدْرِكُـهُ
عَقْلٌ، ويَسْكُنُ من جِسْمِ ٱلفَتى حَرَجا (ل١/٢٧٣)

*

وإنّـكَ، مُـنْـذُ كَـوْنِ الـنَّـفْـسِ عَـنْـسـاً،
لَـتُـوضِـعُ فـي الـضَّـلالَـةِ، أو تَـخُـبُّ (ل١/١٠٦)

*

فٱللُّبُّ إنْ صَحَّ أعْطى النّفْسَ فَتْرَتَها،
حَـتّـى تَـمـوتَ، وسَـمَّـى جِـدَّهـا لَـعِـبـا (ل١/١٢٨)

*

كـأنَّ نُـفـوسَـنـا إبِـلٌ صِـعـابٌ
بُـراهـا عَـقْـلُـهـا، وٱلـعـيـسُ تُـبْـرى (ل٢/٢٠٢)

*

إنْ كـانَ إبليسُ ذا جُنْدٍ يَصولُ بِهِمْ،
فـالـنَّـفْـسُ أكْـبَـرُ مَـنْ يَـدعـوهُ إبـلـيـسُ (ل٣/٢٥)

تَرَكْتِ مِصْباحَ عَقْلٍ ما آهتدَيْتِ به،
وآللّهُ أعْطاكِ مِن نورِ آلحِجى قَبَسا (ل٣/٣٤)

*

وآلـلُّـبُّ حـارَبَ فـيـنـا
طَـبْـعـاً، يُـكـابـدُ حَـرْبَـهْ (ل١/١٤٤)

*

وفي آللُّغةِ نَجِدُ حَقيقةً ومَجازاً، وجَمْعاً بين آلحقيقةِ وآلمَجازِ، وهي وفْقُ مَوْضوعِنا آلثُّلاثيِّ من كُلِّ وجهٍ.

فآلحقيقةُ مِثْلُ آلنّفسِ من آلطّبيعيّاتِ، وآلمَجازُ مِثْلُ آلرّوحِ من آلعَقْليّاتِ، وآلجَمْعُ بين آلحَقيقةِ وآلمَجازِ مِثْلُ آلعَقْلِ آلجُزْئيِّ من جِهَةِ أنّه أيضاً مُلْتَقى آلسَّلْبِ آلعَقْليِّ بآلإيجابِ آلطّبيعيّ.

لغز الحياة

مُلخَّصُ قَوْلِ دارسيهِ ٱلمُحْدَثين:

هل للخَلْقِ حِكْمَةٌ مَعْروفةٌ مُتَعَيِّنةٌ، أو أنّ ما نَراه في ٱلكَوْنِ، من مَظاهرَ وكائناتٍ، هو نَتيجةُ نِظامٍ آليٍّ ولا غاية؟

وأثارَ الرّأيانِ في ٱلبيئةِ ٱليونانيّةِ زَوابعَ وأعاصيرَ لا مجالَ للخَوْضِ فيها بإيجازٍ أو إسهابٍ، إلّا فيما يتّصِلُ بأثرِها في ٱلفِكْرِ ٱلعَرَبيّ، وعَلى وَجْهِ التَّخْصيصِ في ٱلفِكْرِ ٱلعلائيّ.

أوّلُ ما يبدو عندَه أنّه أعرَضَ عن ٱلقولِ بٱلعِلّةِ ٱلغائيّةِ في ٱلزّورار»...

لعلّ قضيّةً لَمْ تَشْغَلْه وتَسْتَبِدَّ بتَفْكيرِه مثْلَما شغَلَتْهُ قَضِيّةُ ٱلحياةِ أو أُحْجِيتُها، فكانَتْ شُغْلَه الشّاغلَ في كُلِّ مراحِلِ تَفْكيرِه، وفي كُلِّ ما نَظَمَ ونَثَر.

وليسَ لأنّه عانى كثيراً وكابَدَ من صُروفِها كثيراً وشَقِيَ بأعبائِها، بلْ لأنّها جَوْهَرُ كُلِّ فِكرٍ، فكيفَ بٱلمعرّيّ ٱلمُرْهَفِ ٱلحِسِّ بها وما يَختَلِفُ عليها:

وعـالَمٌ ظَـلَّ فـيـه آلـقَـوْلُ مُـخْـتَـلِـفـاً،

ومُـحْـدَثٌ هُـوَ مـن رَبٌّ لـه آلـقِـدَمُ (ل٤/٢٥٣)

ومَنْ أنْعمَ النّظرَ جيّداً في فَصْلَي ٱلأساسِ ٱلفَلْسفيِّ، والتّصوُّرِ النّاموسيِّ في أُفُقِ ٱلكَوْنِ وٱلفَسادِ، من هذا ٱلكِتابِ، يَستطيعُ النُّفوذَ إلى أغْوارِ الرّأيِ ٱلعَلائيِّ بالنِّسبةِ إلى ٱلحياةِ وما يترادَفُ عليها من صُروفٍ.

فهيَ عندَه نَتيجةُ «قُدْرَةٍ عَجَبٍ» وإنْ لم يُحدِّدْ تَماماً ما يَعْنيهِ بهذهِ ٱلقُدرةِ ٱلعَجَبِ، وإنْ أوْمَأ إليها إيماءً سَبَقَ أنْ عَبّرْنا عنه بـ «كُمونِ ٱلمَعْلولِ في ٱلعِلّةِ»، وسَبَقَ للقُدماءِ أنْ مَثّلوُه بكُمونِ النّارِ في ٱلآحتكاكِ، بلْ بَلَغَ ٱلأمرُ بٱلعَقْلِ ٱلهِنْديِّ أن يَرْمُزَ إلى ٱلكَثْرةِ في ٱلوَحْدَةِ «بالتِّينِ» فهو بُذورٌ مُتراكِبَةٌ كَثْرَةٌ في حَبّةٍ فرديّةٍ مُتَوَحِّدةٍ، ولذا قُدِّسَ فيه عَلى مَعْنى ٱلكُلِّ في ٱلواحِدِ، ومِثْلُهُ الرُّمّانُ في ٱلعَقْلِ ٱلكَنعانيِّ، ولذا أُلِّهَ وعُبِدَ، وكِلاهُما يَرْمُزانِ إلى كُمونِ ٱلكَثْرةِ في ٱلوَحْدةِ:

جَـواهِـرٌ أَلَّـفَـتْـهـا قُـدْرَةٌ عَـجَـبٌ،

وزايَـلَـتْـهـا، فَـصـارَتْ مِـثْـلَ أعْـراضِ (ل٣/٦٦)

ومعَ آطمِئنانِه إلى هذه ٱلقُدرةِ ٱلعَجَبِ، يَمْضي في التّساؤلِ عن ٱلغايةِ... ومعَ أنّ ذِهْنَ ٱلمعرّيّ ٱنْقَدَحَ بٱلتِماعاتٍ شتّى لم تَحُزْ على آطمئنانِهِ أو، بتعبيرِه نفسِه، على «يقينِه»، فظَلَّ عندَ بابِ ٱلأُحْجِيَةِ يَقْرَعُ، ولكنَّ صَدى ٱلقَرْعِ ورَجْعَه كانَ غيرَ واضحٍ، بلْ مُخْتَلِطاً آختلاطاً عَجيباً:

أرى جَـوْهـراً، حَـلَّ فـيـهِ عَـرَضْ

تَـبـارَكَ خـالِـقُـهُ، مـا الـغَـرَضْ؟ (ل٣/١٠٠)

ومَعَ أنّه يُفكّرُ بفِكْرٍ شُموليٍّ، ظلّتِ ٱلأُحْجِيَةُ تحتاجُهُ إلى إنعامِ نظرٍ أكْثَرَ، فتَحْمِلُهُ، كما تَحمِلُ سِواهُ، على السُّهادِ وإعمالِ ٱلفِكرِ ليلَ نهارَ:

لعلَّ نُجومَ ٱللّيلِ، تُعْمِلُ فِكرَها
لِتَعْلَمَ سِرّاً، فٱلعُيونُ سَواهِدُ (ل٢/٧)

وٱلمعرّيُّ ٱلمُوقِنُ بٱلقُدرةِ ٱلخالقةِ، ٱلمُطْمَئِنُّ إليها في إيمانٍ عَميقٍ، لا يُخامِرُهُ شكٌّ بأنّه لِحِكْمةٍ، ولكنْ ما هي؟

وخَلقُكَ مِن ربِّنا، حِكْمَةٌ
لَقَدْ جَلّ عَنْ لَعِبٍ أوْ عَبَثْ (ل١/٢٦٢)

*

لَوْلا بَدائعُ دَلَّتْ أنَّ خالِقَنا
أدْرى وأحْكَمُ، قُلْنا: خَلْقُنا لَمَمُ (ل٤/١٤٨)

إنّه يتحرّى ويَتَقَصّى ويتفَحَّصُ كباحثٍ عن أسودَ حالكٍ في ليلٍ ألْيَلَ، حَتّى يَضَعَ يدَهُ على خيطٍ يُماشيهِ ويُماشيهِ ليصِلَ إلى أنّ ٱلحياةَ في مَظْهَرِها ٱلكَوْنيِّ تَفاعُلاتٌ مبثوثةٌ[1] ومُقدَّرةٌ تَقْديراً بحُسبانٍ:

والشّمْسُ غَزّالةٌ، ولكِنْ
خُفِّفَتِ الزّايُ في ٱلغَزالَةْ (ل٤/٤٨)

ولكيْ لا يُظَنَّ أو يُتَوهَّمَ أنّ الشَّمْسَ هي ٱلفاعلةُ الأصيلةُ قال:

يَجوزُ أنْ تُطْفَأَ الشّمْسُ ٱلّتي وُقِدَتْ
مِن عَهْدِ عادٍ، وأذْكى نارَها ٱلمَلِكُ (ل٣/٢٣٦)

(١) يُقَرِّبُ ما نَعْني النَّظريّةُ ٱلمَعروفةُ بٱسمِ لابلاس.

أمّا ٱلحَياةُ في مَظْهَرِها ٱلعُضويِّ فيُعَبِّرُ عنْه بقولِهِ:

وٱلّـذي حـارَتِ ٱلـبَـرِيَّـةُ فـيـهِ
حَـيَـوانٌ مُـسْـتَـحْـدَثٌ مـن جَـمـادِ (س١/٢٨٦)

ويَنْبَغي أن نَعْرِفَ أنّ ٱلمعرّيَّ لا يَقولُ بٱلجَماديَّة بمَعْنى ٱللّاحركةِ ٱلمُطْلَقَةِ، بل ٱلجماديّةِ الآتّزانيّةِ (الإستاتيكيّة)، ويَكونُ ٱلمعنى حينئذٍ: حيوانٌ مُسْتَحْدَثٌ من آتّزانيّةٍ مُتساويةِ التَّعادلِ حَتّى كأنَّها السُّكونيّةُ، أيْ حركيّةٌ مُتَوَقِّدَةُ التّفاعُلِ من حَركيّةٍ مُتَّزِنَةِ التّعادُلِ. وبهذا ٱلمَفْهومِ يَتّضِحُ مَعْنى قولِه التّالي:

وٱلـلّـبـيـبُ ٱلـلّـبـيـبُ، مَـنْ لَـيْـسَ يَـغْـتَـ
ـرُّ بِـكَـوْنٍ مَـصـيـرُه لـلـفَـسـادِ

إذاً، فحِكْمَةُ ٱلحياةِ تَحقيقُ هذا ٱلآتّزانِ في كُلِّ ٱلحالاتِ، وبمُجَرّدِ أنْ تَزولَ هذهِ ٱلحالُ يَتعرَّضُ للفَسادِ والشُّرورِ، وتَحْقيقُها يَقْتَضينا ٱلمُعاناةَ الشَّديدةَ، وإلّا حَقَّتِ ٱلأرْزاءُ وٱلخُطوبُ وكانَ ٱلخَسارُ.

فـي كُـلِّ أرضٍ صُـروفٌ، غَـيْـرُ هـازِلـةٍ،
يَـلْـعَـبْنَ بـالـنّـاسِ أفـراداً وأزْواجـاً (ل١/٢٧٥)

*

فـيـا دارَ ٱلـخَـسـارِ! ألا خَـلاصٌ،
فَـأَذْهَـبَ فـي ٱلـجُـنـوبِ أو الـشِّـمـالِ
وظُـلْـمٌ أن أُحـاوِلَ فـيـكِ رِبْـحـاً،
ولـمْ أخـرُجْ إلـيـكِ، بـرأسِ مـالِ (ل٤/٩٤)

وهذا يَسوقُنا إلى أنَّ ٱلكائِنَ يَصْنعُ قَدَرَهُ وسُلوكَهُ، إذا تَوَحَّدَ وآتَّزنَ آتِّزاناً مُتعادِلاً:

دُنْـيـاكَ أشْـبَـهَـتِ آلـمُـدامَـةَ: ظـاهـرٌ
حَـسَـنٌ، وبـاطِـنُ أمـرِهـا مـا تَـعْـلَـمُ
وَالـدَّهـرُ يَـصْـمُـتُ غـيـرَ أنَّ خُـطـوبَـه
تُـرْجِـمْـنَ، حَـتّـى خِـلـتُـهُ يَـتَـكَـلَّـمُ (ل٤/١٦٢)

الأقدار

مُلَخَّصُ أقوالِ دارسيهِ ٱلقُدَماءِ وٱلمُحْدَثين أنّهُ «مُضْطَرِبٌ، يَقطَعُ بٱلجَبْرِ حيناً، لِيَقْطَعَ بٱلاختيارِ حيناً آخَرَ، ليَتَرَدَّدَ بَيْنَ هذا وهذا... وجاءَ أخيراً مَنْ يَزْعُمُ أنّه كانَ يَقولُ بالنِّسبيّةِ في حُريّةِ ٱلبادِرَةِ»...

لعلَّ أكثرَ آراءِ ٱلمعرّيِّ طَرافةً ودِقّةً، هذا الرّأيُ ٱلّذي يَدورُ على ٱلأقْدارِ، فهيَ عنْدَه ليستْ ذاتَ مَفْهومٍ غَيْبيٍّ أبداً، كما لا تُوصَفُ بٱلجَبْرِ ولا ٱلاختيارِ...

فقدْ عَرَفْنا، في فَصلِ لزومِ ما لا يلزمُ السّابقِ، أنَّ ٱلقَدَرَ في ٱلأحياءِ هو حالةٌ عُضْوِيّةٌ تَسْتنِدُ إلى ٱعْتدالِ ٱلأخْلاطِ أو عَدَمِ ٱعتدالِها، وإلى فعاليّةِ ٱلخَصائصِ والصِّفاتِ ٱلمُزَوَّدِ بها ٱلأحياءُ أيضاً:

زُحَلِيٌّ واجِمٌ، يَصْحَبُهُ
زُهَرِيُّ الطَبْعِ، غَنَّى وزَمَرْ (ل٢/٣٠٥)

فٱلمعرّيُّ يَقولُ لنا إنَّ النّابَ في ٱللّيثِ يُحدِّدُ له مَجْرىً بعينِه، فَلا يُقالُ لِمَ يَفْتَرِسُ؟ فإنّ النّابَ تَجَسُّدُ إرادةٍ لخاصَّةٍ ومَساقٍ، وهو يَرسُمُ حَتْماً

نهجَه ٱلآفتراسيَّ، وهكذا قُلْ في سائرِ ٱلحَيَوان:

ولـوْ لـم يُـقَـدِّرْ خـالِـقُ ٱلـلَّـيْـثِ فَـرْسَـهُ

لـمَطْعَمِهِ، لـم يُعطِهِ النّابَ، والظُّفْرا (ل٢/١٨٢)

*

ومـا جُـعِـلَـتْ، لأُسـودِ ٱلـعَـريـنِ،

أظـافـيـرُ إلّا آبـتـغـاءَ الـظَّـفـرْ (ل٢/٣١١)

وقَدْ عَرَفْنا أيْضاً، في فَصْلِ التَّصوُّرِ ٱلعامّ، أنّ ٱلْتِقاءاتِ وَحَداتِ ٱلقُوى تَحْتَ أُفُقِ ٱلأربعةِ، أيْ في آفاقِ ٱلكَوْنِ وٱلفسادِ، تَجْري ٱتّفاقاً دونَ ما قَصْدٍ، بلْ خَبْطَ عشواءَ، قال:

لَـوْ نَـطَـقَ الـدَّهـرُ فـي تَـصَـرُّفِـه،

لَـعَـدَّنـا كُـلَّـنـا، مـن الـتَّـفَـتِ

نَـفَـثْـتُـكـمُ مَـرّةً، عَـلـى غَـلَـطٍ،

مِـنّـي، فـهـلْ تُـعْـذَرونَ فـي الـنَّـفَـثِ؟ (ل١/٢٦١)

وهذه ٱلآلتقاءاتُ، دونَ رَيْبٍ، تُحدِّدُ مجاريَ بعينِها لا مَناصَ للأحياءِ عن التَّقلُّبِ فيها قَسْراً.

فٱلقَدَرُ في ٱلأحياءِ، يُعَبِّرُ عن حالةٍ عُضْوِيّةٍ، وعن خَصائِصَ وَصِفاتٍ، فهو طَبْعيٌّ، قال:

وكُـلُّ عُـضْـوٍ لِأمْـرٍ مـا، يُـمـارِسُـه،

لا مَشْيَ للكَفِّ، بل تَمْشي بِكَ ٱلقَدَمُ (ل٤/١٥٢)

وفي ٱلكَوْنيّاتِ يُعبِّرُ عن ٱلتقاءاتِ ٱستعداديّةٍ تَحْدُثُ ٱتّفاقاً، فهو تَصادُفيٌّ أو، بتَعْبيرِ ٱلـمعرّيِّ، عَجْماويٌّ. وأمّا هو في ٱلإنسانِ ٱلّذي تَماثَلَ

بآلآصطفاءِ، وآستعَدَّ للخُروجِ من دائرةِ آلقوَّةِ آلعَمْياءِ إلى دائرةِ آلقُدرةِ آلبَصيرةِ، فإنّه يُعبِّرُ عَنِ آخْتيارِ آلإنشاءِ وجبريَّةِ آلمَنْزِلةِ، قال:

إذا قَضى آللّهُ أمراً جاءَ مُبْتَدِراً،
وكُلُّ ما أنْتَ لاقيهِ، بتَسْبيبِ (ل١٧١/١)

وآلمَغْنيُّ بها أنّ مَنْ أخَذَ النّارَ بيديْهِ فآحترَقَتا، كانَ لديهِ آختيارٌ في آلإنشاءِ وهو آلأخْذُ، وجَبْرٌ في آلمَنْزِلةِ وهيَ آلآحتراقُ... فبينَ النّارِ وآلآحتراقِ عَلاقةٌ غيرُ منفكَّةٍ. وهذا آلجَبْرُ ليسَ جَبْراً بآلمعنى آلغَيْبيِّ وآلبَشَريِّ، بل بآلمَعْنى السَّببيِّ وآلكَوْنيِّ فقطْ.

وكلَّما أخَذَ آلبَشَريُّ نفسَه بعَقْلِ عَنْسِهِ، زادَ نَقاءً وقابليّةً لإشراقِ آلعَقْلِ آلكُلّيِّ في طبيعتِه، وبهذا يَزيدُ آلبَشَريُّ بَصيرةً وقَصْداً في آخْتيارِ آلإنشاءِ، أيْ يُصبِحُ مُسدَّداً، قال:

سَلَكْتُ طُرْقَ آلمعالي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ:
سِيروا وَرائي، فَلمّا شارَفوا خَنَسوا (ل١٨/٣)

وتأمّلْ حَديثَ «فسَدِّدوا وقارِبوا»، في وُجْهَةِ أبي آلعَلاء، تَجِدْه وفْقَ ما نُقرِّرُ من مَعْنى آلقَدَرِ. وكُلَّما أطلَقَ آلبَشَريُّ لطَبيعتِه آلعِنانَ، زادَ آلْتِصاقاً بالطّبيعةِ آلعَمياءِ وزادَ خَبْطاً على سُنّتِها.

وهذه آلعَجْماويّةُ آلمُتَمَدِّدَةُ في مَعْنى آلكائِنِ آلمُتَلَفِّفِ وآلمُتَلَفِّعِ بالضَّراواتِ، هي آلّتي كانَتْ هَدَفاً لحَمْلَتِه آلقاسيةِ.

ولقدْ عَبَّرَ آلمعرّيُّ عن حُريّةِ آلإنشاءِ وجَبْرِيّةِ آلمَنْزِلةِ بأجْلى تعْبيرِ، في قِصّةِ آلقافيةِ آلّتي أورَدَها في **رسالة الغفران**، وآلغَريبُ أنَّ كُلَّ دارسيهِ من قُدماءَ ومُحْدَثينَ لم يَفْهَموا مَغْزاها، ولم يَفْقَهوا سِرَّ إيرادِها، وهي:

قال النَّمِرُ بْنُ تَوْلَب:

أَلَمَّ بِصُحْبَتِي، وَهُمُ هُجُوعٌ،
خَيالٌ طارِقٌ مِن أُمِّ حِصْنِ

لَها ما تَشْتَهي: عَسَلاً مُصَفّىً،
إذا شاءَتْ، وحُوّارى بِسَمْنِ

وهو، أدامَ ٱللّهُ تَمْكينَهُ، يُعَرِّفُ حكايةَ خَلَفِ ٱلأَحْمَرَ مع أصحابِه في هذينِ ٱلبَيْتَيْنِ وهيَ أنّهُ قالَ لهمْ: لوْ كانَ موضِعَ أُمِّ حِصْنٍ، «أُمُّ حَفْصٍ» ما كانَ يَقولُ في ٱلبَيْتِ ٱلثّاني؟ فسَكَتوا فقالَ: حُوّارى بلَمْصٍ، يَعْني ٱلفالوذَج ويُفَرَّعُ على هذهِ ٱلحكايةِ: لو كانَ مَكانَ أُمِّ حِصنٍ، أُمُّ جُزءٍ وآخرُهُ همزةٌ، ما كانَ يَقولُ في ٱلقافيةِ ٱلثّانيةِ فإنّه يُحتَمَلُ أنْ يقولَ: وحُوّارى بكَشْءٍ، مِنْ قولهم: كَشَأْتُ ٱللّحمَ إذا شَويتُهُ حتّى يَيْبَسَ، أو يَقولُ: بوَزْءٍ من قولِهم: وَزَأْتُ ٱللّحمَ إذا شَوَيْتُه... فإنْ خَرَجَ إلى ٱلباءِ فقالَ: من أُمِّ حَرْب، جازَ أنْ يقولَ: وحُوّارى بصَرْبٍ وهو ٱللَّبَنُ ٱلحامضُ... إلخ[1].

وبَيانُ هذه ٱلقِصَّةِ ٱللُّغويّةِ في مَلاحِنِها عَلى نَظريَّتِه ٱلثُّنائيّةِ في ٱلقَدَرِ، أنّ حُرِّيّةَ ٱلآختيارِ للشّاعرِ تَظْهَرُ في وَضْعِ أُمِّ حِصْنٍ أو أُمِّ حفصٍ... إلخ، وجَبْرِيّةُ ٱلمَنْزِلةِ ٱلّتي تَفرِضُها ٱلقافيةُ ظاهرةٌ في حُوّارى بسَمْنٍ أو حُوّارى بلَمْصٍ... إلخ، وذلك لأنّه لمَّا ٱختارَ أُمَّ حِصْنٍ ٱضطُرَّ الشّاعرُ إلى إطْعامِها حُوّارى بسَمنٍ، وإذا ٱخْتارَ أُمَّ حَفْصٍ ٱضطرَّ إلى إطعامِها حُوّارى بلَمْصٍ وهكذا، فإذا قوّى ٱلبَشَريُّ طبيعَتَه ونَزَواتِه ونَزَعاتِه وغَذّاها إلى دَرَجةِ التّمَلُّؤ فإنّه يَفعَلُ ذلك بمَحْضِ ٱلآختيارِ، وحينَ يَذهَبُ، بعدَ ذلكَ، مذاهبَ في

(١) يُفَرِّعُ ٱلمَعَرّيُّ عليها قوافي من ٱلهمزةِ إلى ٱلياءِ، أُنظُر **رسالة الغفران** ص ١٥٤ ـ ١٦٤، ط دار ٱلمعارف، ٱلقاهرة.

الشّهواتِ وٱلقَسْوَةِ والظُّلمِ فإنّه يَفْعَلُ بجبريّةِ ٱلمَنْزِلةِ ٱلّتي وَضَعَ نفسَهُ فيها بٱختيارِه:

يَغْدو على خِلِّه ٱلإنسانُ يَظْلِمُهُ،
كالذّيبِ يأكُلُ عندَ ٱلغِرَّةِ، الذّيبا (ل١/١٣٥)

وخُلاصةُ النّظريّةِ عندَه، أنّ ٱلقَدَرَ يَنبَعِثُ من حُدودِ الطّبيعةِ، وٱلبَشَريُّ يَصْنَعُ ٱلقَدَرَ بنفسِه ولكنّه في النّهايةِ يأسُرُهُ... ولْنَتَلَمَّسْ أثرَ هذا في **اللّزوميّات**، قال:

كيفَ ٱحتِيالُكَ وٱلقَضاءُ مُدبِّرٌ،
تَجْني ٱلأذى، وتَقولُ: إنَّكَ مُجْبَرُ (ل٢/١٤٤)

*

وَإنْ سَألوا عن مَذْهبي فَهْوَ خَشْيَةٌ
مِنَ ٱللّهِ، لا طَوْقاً أبُتُّ ولا جَبْرا (ل٢/١٨٠)

*

تَعالى ٱلّذي صاغَ النُّجومَ بقُدْرَةٍ،
عَنِ ٱلقَوْلِ، أضْحى فاعِلَ السُّوءِ، مُجْبِرا (ل٢/١٨٦)

*

وأرى الأرْبَعَ ٱلغَرائِزَ فينا
وهيَ في جُثَّةِ ٱلفَتى، خُصَماءُ
إنْ تَوافَقْنَ صَحَّ، أو لا، فَما
يَنْفَكُّ عَنْها ٱلإمْراضُ وٱلإغْماءُ
وَوَجَدْتُ الزَّمانَ أعْجَمَ فَظّاً
وجُبَارٌ، في حُكْمِها ٱلعُجَماءُ (ل١/٦٦)

القسم الطّبيعيّ[1]
تصوّرُ المعرّي النّاموسيُّ في أفق الكون والفساد

لسْنا هُنا في حاجةٍ إلى كَبيرِ شَرْحٍ حَوْلَ مسائِلِ الطّبيعيّاتِ كالزّمانِ... إلخ، فقدْ أوضَحْنا شيئاً منه في عَرْضِ تَصَوُّرِه ٱلعامِّ، على أنّه لا مُتَّسَعَ لنا بهِ. وإنّما نكتَفي بإعْطاءِ صُورةٍ مُجْمَلَةٍ عن التّرابُطِ النّاموسيِّ في حُدودِ ٱلكَوْنِ وٱلفَسادِ، وأكثَرُ ما نَعْتَمِدُ فيها على **رسالة الغفران**.

أظهَرَنا ٱلمعرّيُّ في الرّسالة كَيْفَ تَسْتَحيلُ ٱلكلمةُ، أو إرادتُها، ٱستِحالةً مِثْلَ ٱسْتحالَةِ ٱلعِلّةَ في ٱلمَعْلولِ، في عَلاقتِها ٱلاَضطراريّةِ وعدمِ ٱلاَنفصامِ الزّمنيِّ، وٱلجديدُ في مذهبِهِ ٱلعِلّيِّ، أنّ ٱلعِلّةَ هيَ ٱلجَوْهَرُ في ٱلمَعْلولِ وإنّما ٱلفَرْقُ إضافيٌّ.

وأهمُّ ما يَمتازُ به مذهبُه أنّ ٱلمَعْلولَ ذا وُجودٍ كُمونيٍّ في ٱلعِلّةِ، ولِذا هو يَنْبَثِقُ ٱنبثاقاً عَفويّاً، في ٱلوُجودِ لا في ٱلخَصائِصِ والصِّفاتِ، وفي تَسَلْسُلِ ٱلعِلَلِ تَظهَرُ مُقْتَضَياتُها على وَجْهٍ حَتْميٍّ.

(١) قالَ في نَعْتِ الكلمةِ: وهذه الكلمةُ الطيبةُ كأنّها المعنيّةُ بقوله: «ألم تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مثلاً، كلمةً طيّبةً كَشَجَرَةٍ طيّبةٍ، أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماءِ تُؤتي أكلها كُلَّ حينٍ بإذنِ رَبِّها إلخ»، أنظر ص ١٤٠ من الرسالة.

فصِفَةُ الشّرّ أثرٌ آنفِعاليٌّ عن آلعِلّةِ آلقريبةِ، وهو في آلعِلَّةِ القريبةِ أثرٌ آنْفِعاليٌّ عن التّركيبِ. وهكذا يَمُرُّ آلمَعْلولُ في سِلْسلةِ التَّرَكُّبِ، فآلمُرَكَّبُ آلأوسطُ وآلمُرَكَّبُ آلأخيرُ، مُنْفَعِلانِ بآلعِلَّةِ آلأُولى وبخَصائِصِ آلعِلَلِ آلقريبةِ، ولكنَّهُما دائماً أشدُّ آنْفِعالاً بهذِه آلخَصائصِ:

رَكِبَ آلأنامُ، مِنَ الزَّمان، مَطِيَّةً

لَيْسَتْ كَما آعْتَادَ الرّكائبُ تَبرُكُ (ل٣/٢٤٠)

وإنَّ آلكائنَ آلبشَريَّ في أُفُقِ آلكَوْنِ وآلفَسادِ، مَقودٌ جَبْريّاً بجَوٍّ لا يَنفُذُ منه بنَواميسِ آلعِلَلِ، أمّا آتّصالُهُ بفَعاليّاتِ آلعِلَّةِ آلأُولى فضَعيفٌ، وذلك بِنِسْبةِ آلقُربِ أو آلبُعدِ آلهندسيّةِ:

فَسادٌ وكَوْنٌ حادِثانِ، كِلاهُما

شَهيدٌ بأنّ آلخَلْقَ صُنْعُ حَكيمِ (ل٤/٢٠٠)

وسبيلُ آلإصلاحِ إضْعافُ عَمَلِ النّواميسِ في آلعِلَلِ القَريبةِ، آلّتي مِن شأنِها أن تَحجُبَ آثارَ آلعِلَّةِ آلأولى، ليَتِمَّ آلاتّصالُ الشّبيهُ بآلمُباشَرِ بآلعِلَّةِ آلأولى، وهو إنّما يَتِمُّ بالتَّوَحُّدِ ومناهِجِه، وبدونِه لا سبيلَ إلى الاتّصال.

وإنّ التّديُّنَ تَعْبيرٌ عن دَرَجة آلاتّصالِ، آلّتي هي كَمّيَّةٌ من آلآنفعالِ بآثارِ آلعِلَّةِ آلأولى، أي آلخُروجِ من دائرةِ آلحُجُبِ وآلموانعِ... وبتعبيرٍ أوضَحَ أنْ يَعْمِدَ آلمُرَكَّبُ آلقابلُ ليَعْكُسَ صِفَةَ آلانْفعاليّةِ فِيه، فبَدلاً من أنْ تَكونَ أشدَّ بآلعِلَلِ آلقريبةِ تَكونُ أشدَّ بآلعِلَّةِ آلأولى.

وآلمعرّيُّ يعَمَلُ على أن يتَحوّلَ آلمُرَكَّبُ آلبَعيدُ إلى درجتِه قبلَ آلتّراتُبِ، مثلاً آللّهُ هو آلعِلّةُ آلأولى وخاصيّتُه آلخَيْرُ مَثَلاً، فآلّذي آنبَثَقَ عنْه أخَذَ تَشكُّلاً ما، ولهذا آلتَّشَكُّلِ فَعاليّةٌ جَديدةٌ، أو سُلْطانٌ على مُقْتَضاهُ، فآلّذي يَنبثِقُ عنه في الدَّرجةِ الثّالثةِ يَنفَعِلُ به وأيضاً بالشّيءِ آلجديدِ فيهِ

وهكذا دَواليْكَ، دونَ أنْ تَمنَعَ ٱلعلَّةُ ٱلأُولى مِن هذا ٱلآنفعالِ.

وهذا لا يَعْني ٱلعَجْزَ أو ٱلقُدْرَةَ، لأنّ ٱلآنحرافَ واقعٌ في غيرِ جَوِّ ٱلعِلّةَ ٱلّتي لها فيه التحكُّمُ والنُّفوذُ:

أظُـنُّ زَمـانـي، كَـوْنَـهُ وفَـسـادَه،
وَليداً، بتُرْبِ الأرْضِ يَلْهو ويَعْبَثُ (ل١/٢٥٦)

إنّ عالَمَ ٱلعِلَلِ وٱلأسْبابِ يَقْضي بتَخصيصِ ٱلفعاليّةِ، وهذا لا يَجُرُّ إلى ٱلقَوْلِ بسِلْسِلَةٍ من ٱلأربابِ، لأنّها عِلَلٌ جُزْئيّةٌ ومَقْصورةٌ على مَوْقِعها من السِّلْسِلةِ.

فواجِبُ ٱلإنسانِ، وهو ٱلطَّبيعةُ ٱلقابلةُ، أن يُضْعِفَ نَواميسَ ٱلعِلَلِ ٱلمُرَكَّبَةِ، ليتَّصِلَ بٱلعِلَّة ٱلأولى ويَكونَ مَظْهراً لها على نَحْوٍ مُباشرٍ...

وإذا تأمّلْتَ ما نَقولُ من هذا، عَلى ضَوْءِ ٱلقَلْبِ ٱلمَكانيِّ في الصَّرْفِ تَجِدُهُ وفْقَهُ. فإنّ ٱلقَلْبَ ٱلمَكانيَّ ٱلّذي هو مِثْلُ آرام، جَمْع رِئْم، وٱلقاعدةُ تَقْضي بأن يُجْمَعَ على أَرْآم، ولكنْ قَصْداً للآنسجامِ ٱللّفظيِّ قُلِبَ هذا ٱلقَلْب، والتَّوَحُّدُ لِذي الطّبيعةِ ٱلقابِلَةِ، قَلْبٌ مَكانيٌّ لموقِعِه من السِّلْسِلَةِ يُكْسِبُهُ ٱلآنْسِجام.

القسم العملي: نظريّة الأخلاق

لِنُدرِكَها جيّداً يَنْبغي أنْ نأخُذَها بقانونِ النَّفيِ والإثْباتِ، أو بقانونِ سَلْبِ السَّلْبِ، ٱلّذي يَضَعُها في مُعادَلةٍ عقليّةٍ وهي:

لا خيرَ ولا شرَّ مُطلقانِ، بل خَيْرٌ مَشوبٌ بدَخَن[1].

أمّا ٱلخِيرَةُ ٱلمُطْلَقةُ فَليْسَتْ إلّا للّهِ وحدَهُ، وٱسمَعْ قولَه:

ولا تَـطْـلُـبَنَّ ٱلـلُّـبـابَ الـصَّـريـحَ، فَـقَـدْ سِـيـطَ عَـالَمُـنـا، وٱمـتـزَجْ (ل١/٢٩٠)

*

وٱلـخَيْرُ والشَّرُّ مَـمْزوجانِ، ما ٱفْتَرقا، فكُلُّ شَهْدٍ عَلَيْهِ الصّابُ مَذْرورُ

وعـالَمٌ فـيـهِ أضْـدادٌ، مُـقـابَـلَـةٌ، غِـنـىً وَفْـقـرٌ، ومَـكْـروبٌ ومَـقْـرورُ (ل٢/١٣٣)

(١) هو ٱلخَيْرُ ٱلمَدْخولُ فيه كتَمازُجِ الدُّخانِ وٱللَّهَبِ فيما يَنْبَعِثُ من ٱلحَطَبِ ٱلجَزلِ، وأحْسَنَ التّعبير عنه ٱلمَعَرّيُّ بكنائيّةٍ جَميلةٍ: فمنْها عَلَنْدى ساطع وكباء.

وفي هذه ٱلأرضِ الرَّكودِ مَنابِتٌ،

فمِنْها عَلَنْدى ساطِعٌ، وكِباءُ (ل٥٠/١)

وهذا الرّأيُ يَنْتَهي به إلى ٱلقَوْلِ بالمَغْفِرةِ عَلى وَجْهِ الضَّرورةِ، قال: «وبالمَغْفِرةِ نِيلَتِ السُّعودُ» وتأمّلْ تَقْديمَ ٱلجارِّ وٱلمَجْرورِ، ٱلّذي يُفيدُ ٱلقَصْرَ:

ومَغْفِرةُ ٱللّهِ مَرْجُوَّةٌ،

إذا حُبِسَتْ أعظُمي في الرِّمَمْ (ل٢٤٨/٤)

وعليه فكُلُّ مَسائِلِ ٱلأخلاقِ نِسْبِيَّةٌ، لا سيَّما وهي مُعَدَّلةٌ ومُعَيَّنةٌ بالإنسانِ ذي الطّبيعةِ ٱلمَدْخولةِ قالَ:

وغَضِبْنا مِن قَوْلِ زاعِمِ حَقٍّ،

إنّنا في أُصولِنا لُؤماءُ (ل٦٧/١)

*

إنْ مازَتِ النّاسَ أخْلاقٌ يُعاشُ بها،

فإنّهُمْ عِنْدَ سُوءِ الطَّبعِ، أَسْواءُ (ل٥٦/١)

أصل الإنسان

يَشُكُّ ٱلمَعرّيُّ كَثيراً في التَّفَرُّعِ من أبٍ يُدعى آدمَ وأُمٍّ تُدْعى حَوّاءَ، وتَقَدّمْنا بأنّ ٱلمعرّيَّ يَفْهَمُهُما فَهْماً رمزِيّاً خالِصاً، قال:

جـائِـزٌ أنْ يَـكـونَ آدمُ، هـذا،
قَـبْـلَـه آدمٌ عـلـى إثْـرِ آدَمْ (ل٤/٢٤٥)

*

وما آدمٌ في مَذْهَبِ ٱلعَقْلِ واحِداً،
ولـكـنَّـه عِـنْـدَ ٱلـقِـيـاسِ أوادِمُ (ل٤/١٤٤)

*

أنْـتَ يـا آدمٌ، آدمُ الـسَّـرْبِ،
حَـوَّاؤُك فـيـهِ، حَـوَّاءُ، أو أَدْمـاءُ (ل١/٦٧)

*

وأوادِمُ الـزَّمَـنِ الـطَّـويـلِ كَـثـيـرةٌ،
وأوادِمُ الـطَّـعْـمِ الـشَّـهِـيِّ أوادِ (ل٢/٩٢)

ويَبدو جَلِيّاً أنّ ٱلقَوْلَ بأوادِمَ كثيرةٍ يُؤَدّي بالضَّرورةِ ٱلعفويّةِ إلى ٱلقَوْلِ بالتَّطوُّرِ ٱلحِياوِيِّ (البيولوجيِّ)، وهذا لا يَجْعَلُه مُنافِياً للآيةِ الكَريمة: «لَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ في أَحْسَنِ تَقْويمٍ» (التين ٩٥:٢٤)، لأنَّ ٱلآيَةَ مُنْصَبَّةٌ على آدَمَ ٱلأخيرِ في مَراقي التَّطَوُّرِ عَمّا هو أدْنى، وكَانَ خَلْقُهُ ٱلأخيرُ في «أَحْسَنِ تَقْويمٍ» ٱلّذي ٱنْتَهى فيه عَمَلُ التَّطوُّرِ ٱلعُضْوِيِّ إلى ما أُفْرِغَ فيه من شَكْلٍ قويمٍ.

وإذا صَحَّ هذا التَّقديرُ، فيَكونُ مِنْ أَسْبَقِ مَنْ صاغَ فِكرةَ التَّطوُّرِ في ٱلإنسانِ بشكْلِها ٱلعِلميِّ، كما أرانا كيفَ تَتَلاقى نَظريّةُ ٱلتَّطَوُّرِ ٱلعِلْمِيّةُ، ونظريّةُ ٱلخَلْقِ الدينيّةُ.

وٱستِطْراداً أقولُ: إنّي لا أستبعِدُ أنّ مُفردةَ «النّاسِ» مأخوذةٌ من كَلِمةِ «نوس» "Nous" ٱلإغريقيّةِ وتعْني النَّفسَ النّاطقةَ أو القُوَّةَ ٱلعاقلةَ.

وأخْطَأَ اللُّغويّونَ حينَ ظَنّوا مُفْرَدَةَ «النّاسِ» من ثُلاثيٍّ «نَوَس» أيْ تَحرَّكَ ذَهاباً وإياباً، وأُعِلَّتْ بتَحَرُّكِ ٱلواوِ وٱنفِتاحِ ما قبلَها، لٱنطِباقِها على صُنوفٍ من ٱلحَيَوانِ كالدَّوابِّ.

وأقولُ هذا كُلَّه بِكُلِّ تَحفُّظٍ، لأنّي لم أجِدْ عندَ ٱلمعرّيِّ ما يُومِئُ إليه من قُرْبٍ أو بُعْدٍ.

المدينة المتوحّدة

نَظَريّتُه في ٱلمُجْتَمَعِ ٱلأمْثَلِ، كما يتراءى لي، تَجيءُ في عِدادِ أهمِّ نَظَريّاتِهِ. وخُلاصَتُها في إجمالٍ كلِّيٍّ: أنْ تَتلاشى ٱلجَماعاتُ كَوَحداتٍ مُتَجَزّئةٍ مُتَعَدّدةٍ، لتتألّفَ في كُلٍّ مُتَوَحِّدٍ مِنْ شَتّى أقطارِه ونَواحيهِ، وبجَميعِ ٱتّجاهاتِه ومُيولِه، حَتّى تَجيءَ في مِثْلِ دائرةِ ٱلخَمْسَةِ شَكْلاً، وفي مِثْلِ حَقيقتِها مَعْنىً. فباطنُها واحدٌ مُكَرَّرٌ، وظاهِرُها وَحْدَةٌ عُضْوِيّةٌ لا تَنقَسِمُ إلّا في كَسْرٍ عَدَدِيٍّ وهذا فَسادٌ.

وهو، بناءً على نظريّتِه في ٱلإنسانِ وٱلطَّبيعةِ ٱلحَيّةِ فيما يُحيطُ بها من مُحرِّضاتٍ، قَليلُ الثّقةِ بإمكانِ هاتيكَ ٱلمدينةِ ٱلّتي يَفترِضُها ٱفتِراضاً:

مَلَّ ٱلمُقامُ، فكَمْ أُعاشِرُ أُمّةً،

أَمَرَتْ بغَيْرِ صَلاحِها، أُمَراؤُها

ظَلَموا الرَّعيّةَ، وٱستَجازوا، كَيْدَها،

فَعَدَوْا مَصالِحَها وَهُمْ أُجَراؤُها...

وإذا النُّفوسُ تَجاوزَتْ أقْدارَها،

حَذْوَ ٱلبَعوضِ، تَغَيَّرَتْ سُجَراؤُها (ل١/٦٢)

القيامة

يُحَدّثُنا الشّهرستانيّ عن ٱلمانويّةِ أنّها تَقولُ: «إنّ النّورَ والظّلامَ ٱمْتَزَجا ٱتّفاقاً، وأجزاءُ النّورِ أبداً في صُعودٍ، وأجزاءُ الظُّلمةِ أبداً في هُبوطٍ، حتّى تَتَخَلَّصَ ٱلأجْزاءُ من ٱلأجزاءِ، ويَبْطُلَ ٱلآمتزاجُ ويَصِلَ كُلٌّ إلى كُلِّه وعالَمِه، وذلكَ هو ٱلقِيامةُ وٱلمَعادُ، ومِمّا يُعينُ على التّخْليصِ، التّسبيحُ والتّقديسُ، وفي النّهايةِ تَسْقُطُ السّماءُ على ٱلأرضِ وتَضْطَرِمُ النّارُ حتّى يَتَحَلّلَ ما فيها من النّورِ، وتكونُ مُدّةُ ٱلآضطرامِ ألفاً وأربعَمائةٍ وثمانياً وستّينَ سنةً»[1].

ونَرى في ٱلقُرآنِ، حِكايةً عن إبراهيم «قال: رَبِّ أرِني كَيْفَ تُحْيي ٱلْمَوْتى، قَالَ: أَوَ لَمْ تُؤمِنْ؟ قال: بَلى، ولكِنْ لِيَطمَئِنَّ قَلْبي. قال: فَخُذْ أرْبَعةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنّ إليكَ، ثم ٱجْعَلْ على كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنّ جُزْءاً، ثُمّ ٱدْعُهُنّ يأْتينَكَ سَعْياً، وٱعْلَمْ أنّ ٱللّهَ على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ» (البقرة ٢:٢٦٠).

نحنُ لا نَرْتابُ هُنا، بِناءً على التّصوُّرِ ٱلعامِّ وٱلأساسِ ٱلفَلسفيِّ، أنَّ

(١) **الملل والنحل** للشّهرستانيّ، ٦٨/٢.

ٱلمَعَرّيَّ يَرى ٱلقِيامةَ في حُدودِ ٱلاَستحالةِ إلى «فَوْق» بٱلتَّوَحُّدِ أو بلُغةِ ٱلقُرآنِ «لِيَطْمَئِنَّ قَلْبي»، وفي حُدودِ ٱلاَستحالةِ إلى «تَحْت» بٱلاَندماجِ بالطّبيعةِ ٱنْدماجاً كُلّياً... ورأيُه في «ٱلجَنَّة» أنّها تَوَحُّدُ ٱلمُتَّقينَ بٱلعَقْلِ ٱلكُلّيِّ، وهو لا يُنْكِرُ السَّعادةَ بهذا التَّوَحُّدِ أُخرَوِيّاً... ورأيُه في «النّار» أنّها ٱلاَندماجُ بالطّبيعةِ وكلُّها أرزاءٌ وبأساءُ، وهو لا يُنْكِرُ الشّقاوةَ بهذا ٱلاَندماجِ أُخرَوِيّاً، وتأمّلِ ٱلآيةَ ٱلّتي كانَ لا يَفْتَأُ يُرَدِّدُها: «وإنّ جَهَنَّمَ لمُحيطةٌ بالكافِرين» (التوبة ٩:٥٠).

وهو يُنكِرُ في **اللّزوميّات** إنكاراً قاطِعاً ما تَقولُ به ٱلمانويّةُ، من شأنِ ٱلمَعادِ على الشّكْلِ ٱلّذي تَقدّمْنا بذِكْرِه... وإنْ كُنّا نَجِدُ عندَه أثراً لِما يَزعُمُهُ أبو سعيدٍ ٱلمانويُّ من «أنّ للمِزاجِ مُدّةً ويَعْقُبه ٱلخَلاصُ ٱلكُلّيُّ وٱنحلالُ التَّراكيبِ». وإنّ ما ذَكَرْناه من تَصَوُّرِ ٱلمعرّيِّ العامِّ يَجعَلُنا نَقْضي بأنّه لا يَبْعُدُ عنه كَثيراً.

أسلوب التوحُّد التعبيري

كانَ بِوُدّي أن أتَحدّثَ طَويلاً عن نظريّةِ التَّوَحُّدِ، وعن كُنْهِهِ وعنْ مَناهِجِه وما يلزَمُ فيه، وإنْ كانَ من السَّهلِ على كُلِّ ناظرٍ في **اللّزوميّات** أنْ يَستَخْلِصَها، بَيْدَ أنّ ضيقَ ٱلمقامِ يَمنعُني ٱلآنَ عن أيٍّ أخذٍ بسبيلِه، لأجِدَ ولو مُتَّسَعاً قليلاً لأفْرَغَ للكلامِ في أُسلوبِ التَّوحُّدِ التَّعبيريّ.

بِنَظْرَةٍ سَريعةٍ نُلْقيها على أيِّ كِتابٍ من كُتُبِ ٱلمعرّيِّ، نَقتَنِعُ بأنّه ٱلْتَزَمَ طَريقةً بعَينِها، لم تكُنْ لِمَحْضِ التَّظَرُّفِ أو التَّعْبيرِ عن ٱلقُدرةِ ٱلفائقةِ في ٱلغَريبِ وٱلإنشاءِ، بلْ هي أُسلوبٌ في ٱلكِتابةِ مِثْلُها في ٱلفِكْر.

فهو يَتَزَيّدُ من ٱلمُشْتَرَكِ ٱللّفظيِّ إلى حَدٍّ كبيرٍ، حَتّى ليَجعَلُهُ وَحْدَةَ ٱلقِطعةِ ٱلّتي يَصيغُها، ويَتَزَيّدُ من ٱلكِنايةِ وٱلمَلاحِنِ وٱلمَجازِ وٱلرَّمْزيَّةِ ٱلبَعيدةِ.

وذلك لأنّ ٱلمعرّيَّ يَقْصِدُ إلى ٱلإغراءِ بٱلإدراكِ ٱلتَّجْريديِّ ٱلبَحْتِ، بٱلفِكْرِ ٱلكُلِّيِّ ٱلخالِصِ، حَتّى ليَحْيا ٱلمَرْءُ مَعَهُ في عالمٍ تَجْريديٍّ من أقْطارِه، وهذا سَبيلُه بها.

فإنَّ الرَّمْزيّةَ تَوَحُّدٌ بالنَّظرِ إلى الصَّرائِحِ، وهي تَـمْرينٌ وحِذْقٌ لتَنْمِيَةِ ٱلآستعدادِ ٱلإطلاقيِّ، كما أنّها عَبَثٌ بٱلـمُصْطَلَحِ ٱلفِكْريِّ في ٱلألفاظِ وٱنفرادٌ وعُزلةٌ. وهذا ٱلعَبَثُ في ٱللَّفظِ صِنْوُ عَبَثِه بالتَّقاليد وٱلعقائِد.

والرَّمزيّةُ، بَعْدَ ذلكَ، عامِلٌ مُهِمٌّ بسَبيلِ ٱلـخُروجِ من أسْرِ ٱلألْفاظِ وقُيودِها وأجوائِها ٱلـمُسْتَحْجِرَةِ... وكما أنّ ٱلـمعرّيَّ نشَرَ دَعْوَةَ التَّوَحُّدِ بسَبيلِ فِطْرَةٍ عَقْليّةٍ جَديدةٍ، نَشَرَ رَمزيّتَها بسَبيلِ مَنْطقِ فِكْرٍ جديدٍ.

ومنِ وَراءِ ذلك كُلِّه، أرادَ ٱلـمعرّيُّ أنْ يُقنِعَنا بأنَّ ٱللَّفظَ هو ٱلـجَوْهَرُ الثّابتُ ٱلّذي ٱسْتَوتْ فيه ٱلآستحالاتُ السّابقةُ في سِلْسِلَةِ النِّظامِ ٱللُّغويِّ. وٱلـمَعْنى ٱنفعالاتُ ٱللّفْظِ ٱلعارضةُ بٱلعِلَلِ ٱلوجوديّةِ ٱلفاعلةِ، ٱلّتي تَطْغَى على ٱلعِلَّةِ ٱلغائيّةِ وتَـحْجُبُها، وٱلعلّةُ ٱلغائيّةُ هي ٱلعَقْلُ، وهو في ٱللَّفْظِ كِنايتُه.

ومن ٱلـمُلاحَظِ أنّ ٱللَّفظَ لا يَموتُ، وإنّما يَموتُ فيه ٱلـمَعْنى بمَجازِه، ٱلّذي يُصْبِحُ حَقيقةً لـمجازٍ جديدٍ، وهكذا دَواليكَ. وهذه وُجْهَةُ نَظَرٍ دَقيقةٌ، فإنَّ ٱللَّفظَ، كما نَعرِفُ، هو الثّابتُ وهو ٱلـمَوْجودُ ٱللُّغويُّ وَحْدَه، وأمّا ٱلـمَعْنى فيَطْرَأُ ويُعْدَمُ بٱلـمُلابساتِ أو ٱلـمُحَرِّضاتِ، ويَتَحَوَّلُ أو يَتَلاشى مِثْلَ ٱلأعْراض...

*

هذا أبو ٱلعلاءِ إجمالاً كما ٱتَّفَقَ لي ٱستنتاجُه من غُضونِ كلامِه، وحديثُه طَويلٌ لو تَوَفَّرْنا على عَرْضِهِ كما يَقْتَضي ٱلعَرْضُ، ولكنْ يُمكِنُني أن أقولَ، وكُلّي ٱقتناعٌ وٱعْتِدادٌ، بأنّ ٱلـمَعَرّيَّ فِكْرةٌ جديدةٌ وفَلسفةٌ جَديدةٌ ومَنْطِقٌ جَديدٌ.

ومِن ٱلـخَيْرِ أن نَدْرُسَهُ كَثيراً ونَتَفَهّمَهُ طَويلاً، فإنّه قِمّةٌ من أسْمى قِمَمِ

آلفِكْرِ آلعربيِّ الضّائعةِ في عُزلتِها...

وأخيراً، قَدْحٌ بآلمعرّيِّ، وقَدْحٌ كَبيرٌ، أنْ يُتَّهمَ بآلعَدَميّةِ. وآلحقُّ أنّه لم يَكُنْ ذلك وإنْ آمتلأتْ كُتُبُه بآثارِهِ ووَحْيِه، فهو إن تَشاءمَ فليسَ إلّا كما يتَشاءمُ مَنْ يَرى آلفَسادَ ويَلْمِسُهُ، ثُمّ يُحاوِلُ آلحَدَّ منه، وفي مُحاوَلَتِه آلحَدَّ منه تَفاؤليّةٌ لا رَيْبَ فيها.

فليسَ آلفَسادُ في آلحَقيقةِ، في صَميمِها، وإن كانَ آلفَسادُ عليها في قُشورِها وأغطيتِها، وآلمَعَرّيُّ لم يَفْتَأْ ضارِباً عليْها بمِعْوَلِه، قَصْدَ آلجَوْهَرِ، قَصْدَ آللُّبابِ:

آلقَلْبُ كآلماءِ، وآلأهْواءُ طافِيَةٌ
عليهِ، مِثْلَ حَبابِ آلماءِ في آلماءِ (ل١/٧٥)

على سبيل التصدير
٥

مقدمة
٩

مدخل إلى عصر المعرّي
١٧

المعرّي يضع أصول فلسفة جديدة
٢٥

المنهج اللّغويّ عند المعري
٣٧

كيف نقرأ المعرّي
٤٩

ديباجة رسالة الغفران
٥٧

فرضيّات حول رسالة الغُفران
٧٩

مقدمة لُزوم ما لا يلزم
٩٣

قبل حديث الفلسفة
١١١

حديث الفلسفة
١٢٣

منطق المعرّي
١٣٣

الأساس الفلسفيّ العلائيّ
١٥٧

القسم الإلهيّ
١٦٧

التصوّر العامّ في المضمار الإلهيّ والماورائيّ ١٧١

العقل والروح والنفس ١٧٩

لغز الحياة ١٨٣

الأقدار ١٨٩

القسم الطبيعي: تصور المعرّي الناموسي في أفق الكون والفساد ١٩٥

القسم العمليّ: نظريّة الأخلاق ١٩٩

أصل الإنسان ٢٠١

المدينة المتوحّدة ٢٠٣

القيامة ٢٠٥

أسلوب التوحّد التعبيري ٢٠٧

في منشورات دار الجديد
من مؤلّفات
الشيخ عبداللّه العلايلي

□ **أين الخطأ؟** ـ تصحيح مفاهيم ونظرة تجديد.

طبعة ثانية مزيدة ومُنقّحة، ١٩٩٢.

□ **مَثلُهنَّ الأعلى** ـ السيدة خديجة.

طبعة ثانية ومُنقّحة، ١٩٩٢.

□ **من أيّام النّبوّة** ـ مشاهد وقصص.

طبعة ثانية ومُنقّحة، ١٩٩٣.

□ **تاريخ الحسين** ـ نقد وتحليل.

طبعة ثانية مُنقّحة، ١٩٩٤.

□ **مُقدّمات** ـ لا محيد عن درسها جيداً ـ لفهم التاريخ العربي (مستلّ من: تاريخ الحسين ـ نقد وتحليل).

طبعة أُولى، ١٩٩٤.

... ومهما يَكُنْ، فشِعاري في هذا الكتابِ، مِثْلُهُ في كتابٍ سابقٍ، «ليسَتْ تَـمْنَعُني غرابةُ رأيٍ أظنُّ أنّه صحيح أو أعتقدُ صِحَّتَهُ من إبدائِه، كما لا يحولُ بَيْني وبَيْنَ رأيٍ أنّه قليلُ الأنصار. فإنَّ الحَقيقةَ لم تَعُدْ تُنالُ بالتَّصويتِ، كما أنّ الانتخابَ من عَمَلِ الطَّبيعةِ وهي لا تُغالِطُ نفسَها كما لا تَعْمِدُ إلى التَّزوير».

العلايلي

9 782910 355197 ISBN: 2-910355-29-2